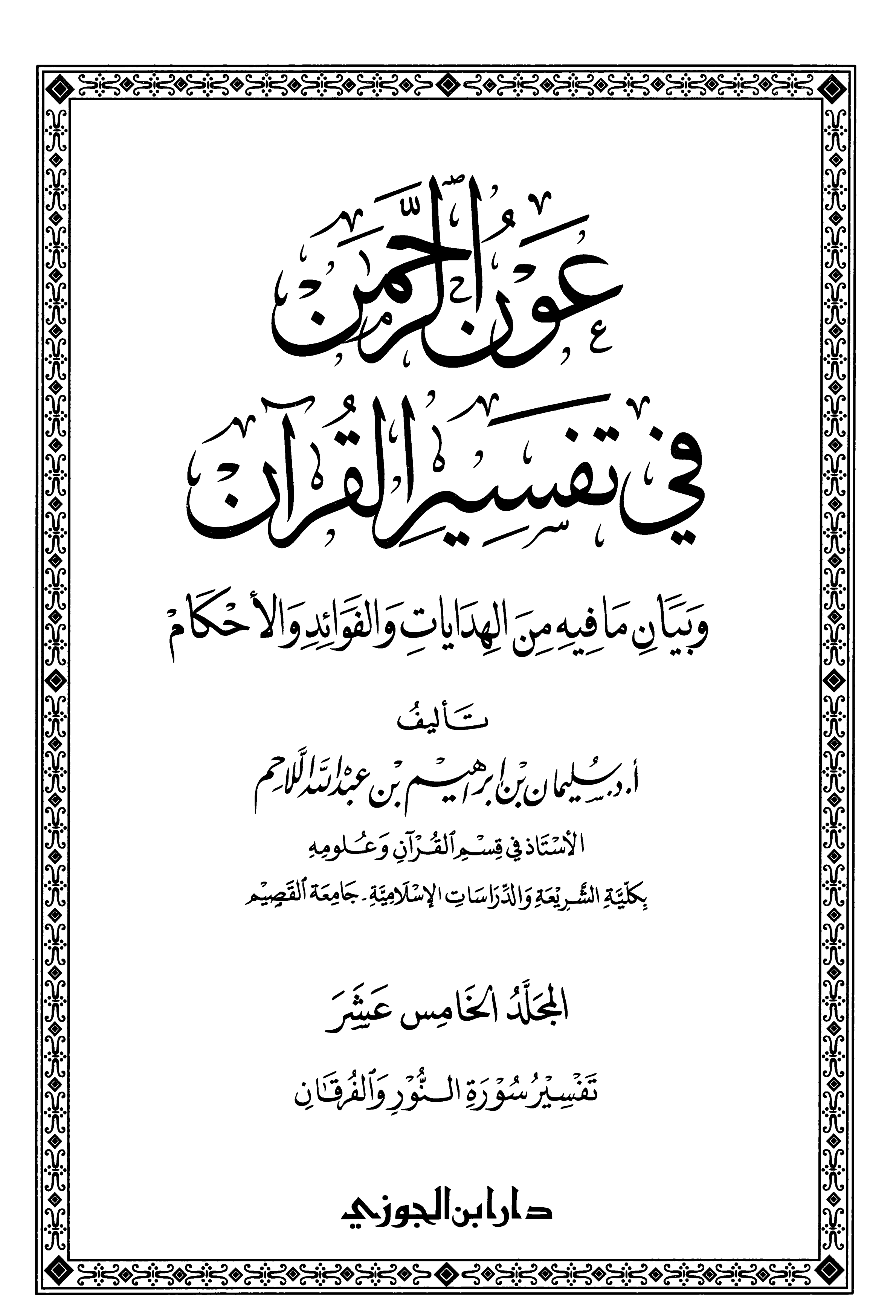


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

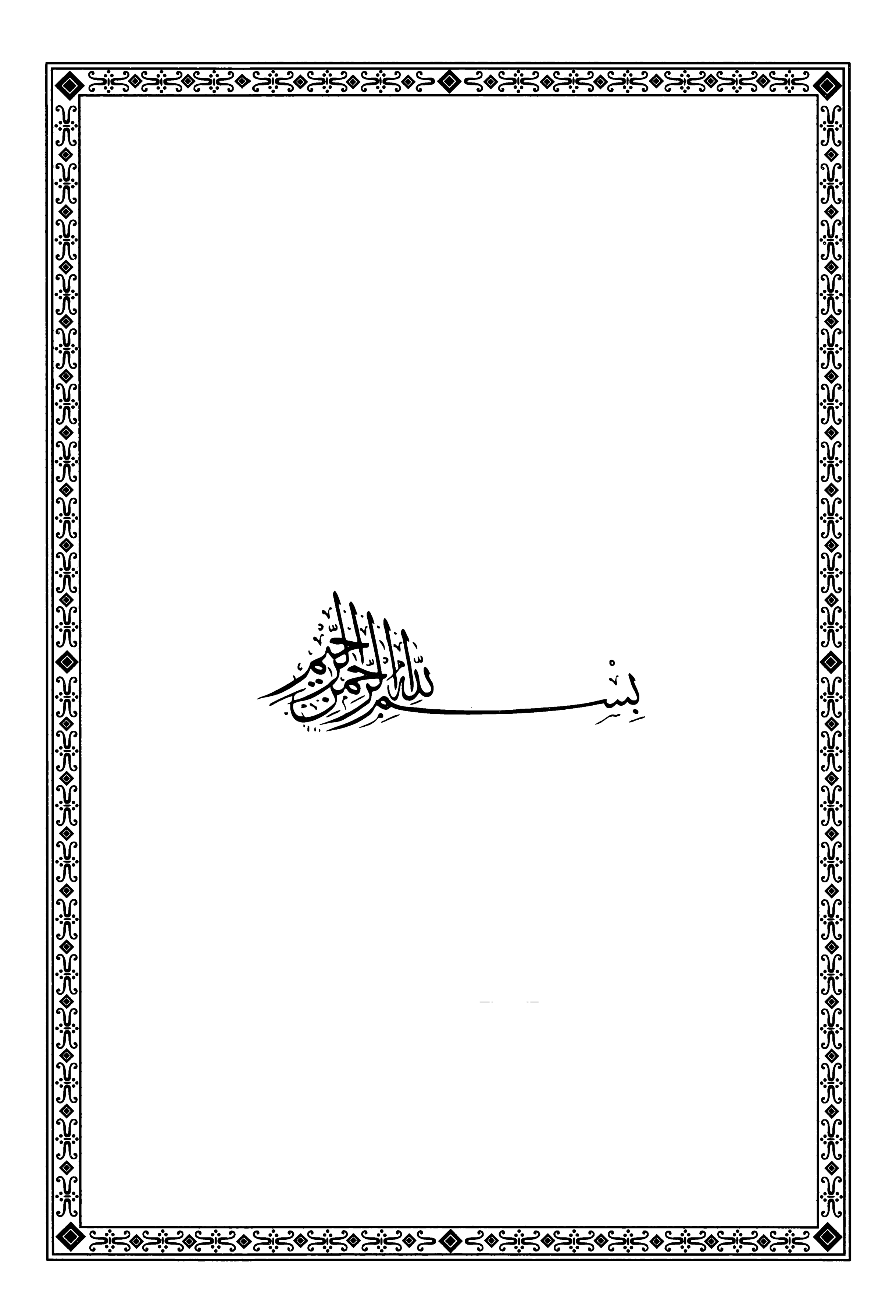
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

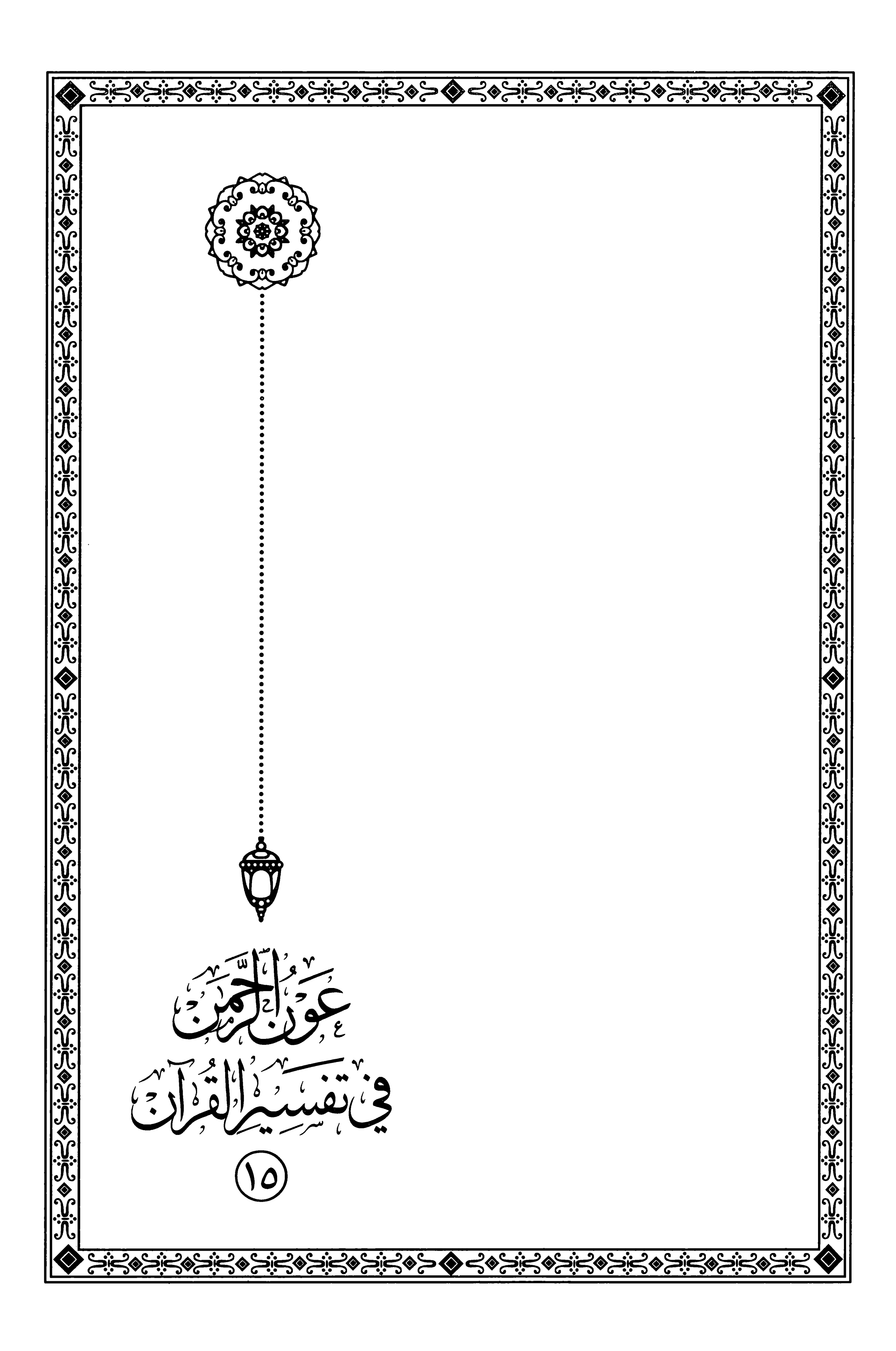
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

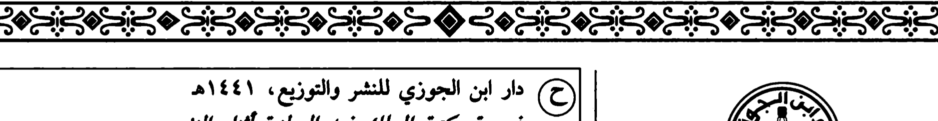
المجلد الخامس عشر

تفسير سورة النور والفرقان

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٥



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام- حي الريان- شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٧١ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

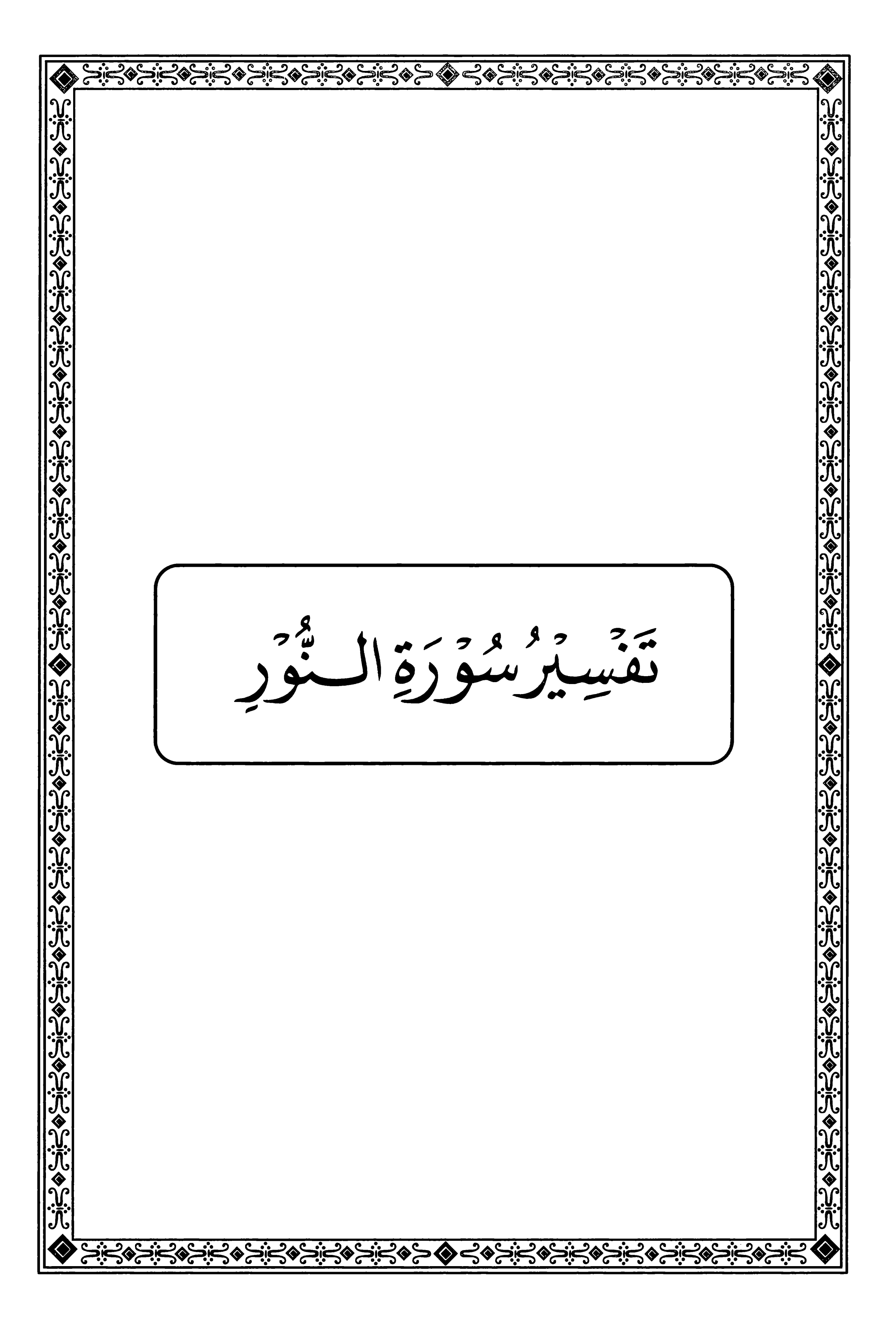
أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

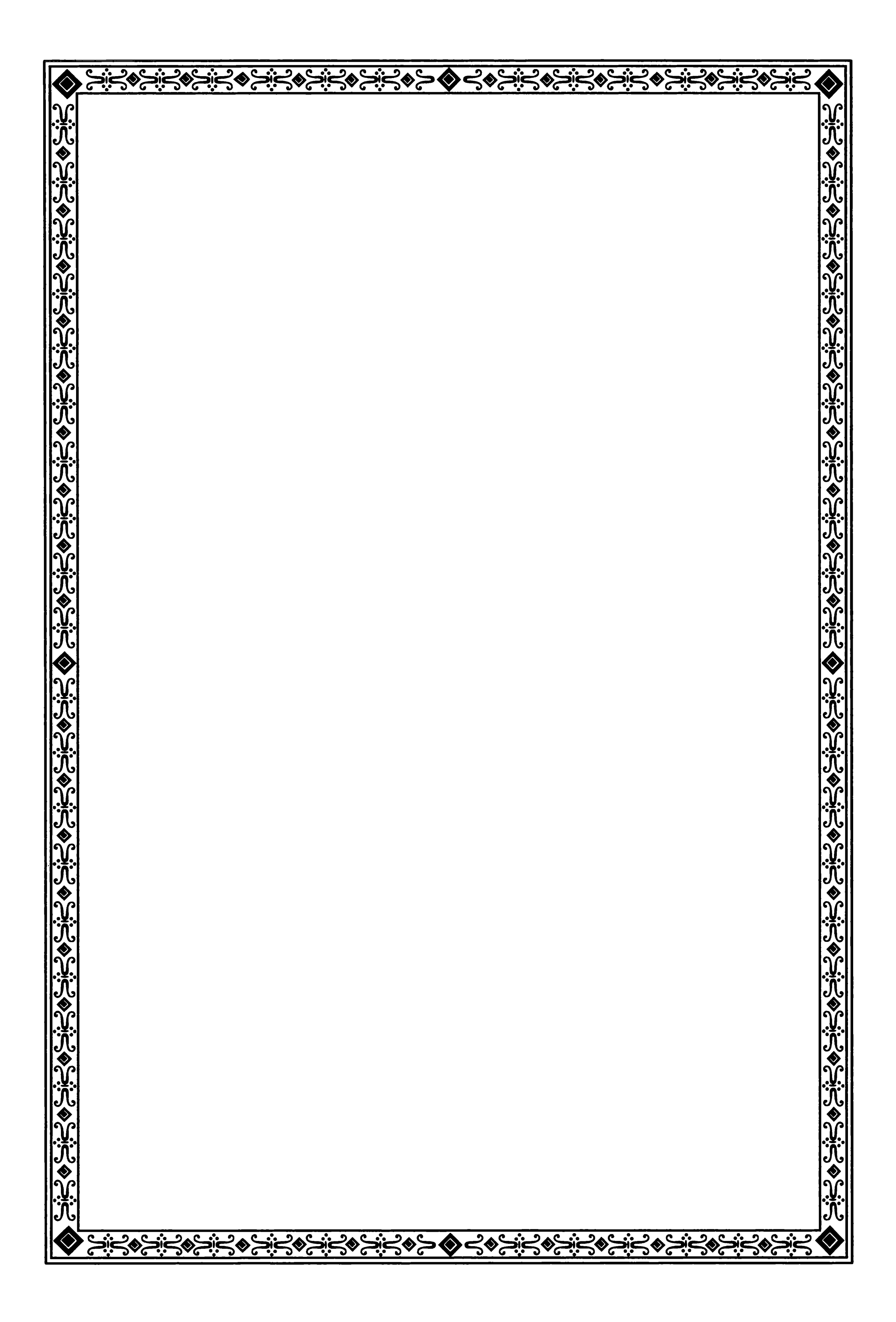
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة سورة النور لذكر النور فيها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [الآية:٣٥]، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الآية:٣٥]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [الآية:٤٠].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

رُويَ مرسلًا عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «**علِّموا رجالكم سُورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور**»[1].

وعن أبي عطية، قال: كتب إلينا عمر: «أن علِّموا نساءكم سورة النور»[2].

وعن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: «أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور»[3].

وعن المسور بن مخرمة- رضي الله عنه- أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور؛ فإن فيهن الفرائض»[4].

وهذه السورة سورة عظيمة، اشتملت من أولها إلى آخرها على كثير من الأحكام والأخلاق والآداب والجوانب التربوية وغير ذلك.

ولهذا أفردها جمع من أهل العلم بالتفسير، منهم ابن تيمية والمودودي والشنقيطي وغيرهم، كما أطال الكلام فهيا كثير من المفسرين في تفاسيرهم.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ١٨ ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٥.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٢٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب التفسير ٢/ ٣٩٥. وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بمطلع خاص من بين سور القرآن الكريم؛ تعظيمًا لها، وامتنانًا بإنزالها ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾.

٢- بيان حد الزاني غير المحصن: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾.

٣- بيان حرمة الزنا، وأن الزاني لا يطاوعه على زناه إلا زانية مثله أو مشركة.

٤- بيان حد القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾.

٥- بيان حكم اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

٦- ذكر قصة الإفك وما تضمنته من الوعد والوعيد والعبر والعظات والحكم والأحكام وغير ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾.

٧- النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وعن الحلف على ترك الإحسان وبذل الفضل.

٨- التحذير من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات والوعيد لمن فعل ذلك، وتبرئة عائشة رضي الله عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾.

٩- بيان آداب الاستئذان في دخول بيوت الآخرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ﴾ [الآية:٢٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٠- الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج، وعدم إبداء الزينة إلا للمحارم فقط إلا ما ظهر منها: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١١- الأمر بتزويج الأيامى من الأحرار والمماليك، ومكاتبة الذين يريدون المكاتبة من المماليك ومساعدتهم، والنهي عن إكراه الإماء على البغاء: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

١٢- الامتنان بإنزال الآيات البينات، وذكر الأمثال: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٣- ثناء الله عز وجل على نفسه بأنه نور السموات والأرض، وتعظيم نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ [الآية:٣٥].

١٤- تعظيم عمارة المساجد، والثناء على عمّارها بالتسبيح والصلاة والعبادة وامتداحهم، ووعدهم بأحسن الجزاء والزيادة من فضله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

١٥- ضرب مثلين لأعمال الكفار الباطلة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [الآية:٣٩]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

١٦- ذكر مظاهر تمام قدرته عز وجل في تسبيح جميع المخلوقات له، وسعة ملكه، وإزجائه السحاب، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب كلها من ماء، على اختلاف

أشكالها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾.

١٧- تأكيد الامتنان بإنزال الآيات: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾.

١٨- فضح المنافقين، وبيان دعواهم الإيمان وهم كاذبون، وإعراضهم عن حكم الله ورسوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الآية:٥٣]، إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾.

١٩- امتداح المؤمنين بقبولهم حكم الله ورسوله، وقولهم سمعنا وأطعنا ووعدهم بالفلاح والفوز والاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وتأمينهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾.

٢٠- تهديد الكافرين ووعيدهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

٢١- مشروعية استئذان المماليك ومن دون الحلم عند الدخول على أهليهم في أوقات ثلاثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [الآية:٥٨]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٢- رفع الجناح عن القواعد من النساء في وضع ثيابهن: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٣- رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد، وفيما تحول هذه الأعذار بينهم وبين القيام به من الأعمال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾ [الآية:٦١].

٢٤- بيان البيوت التي يجوز الأكل منها وإن لم يعلم رضا أصحابها: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ...﴾ [الآية:٦١].

٢٥- بيان صفة المؤمنين حقًّا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

٢٦- نهي المؤمنين أن ينادوا الرسول صلى الله عليه وسلم باسمه مجردًا، كما ينادي بعضهم بعضًا، أو لا يستجيبوا له إذا دعاهم، وتحذير المنافقين المخالفين لأمر الله ورسوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٧- تقرير سعة ملك الله عز وجل وعلمه، ورجوع الخلائق إليه ومجازاته إياهم بأعمالهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾.

قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة، وفي تنكير «سورة» تفخيم وتعظيم لشأنها، وفيه مع تخصيصها بهذا المطلع إشارة إلى عظمة هذه السورة لما اشتملت عليه من أحكام عظيمة وآداب كريمة ومواعظ جليلة[1].

والسورة: مأخوذة من معنى الرفعة والشرف.

قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر[2]:

ألم تـــرَ أن اللهَ أعطـــاكَ ســـورة ... تـرى كـل ملْـكٍ دونهـا يتذبـذبُ

أي: أعطاك منزلة رفيعة شريفة قصرت عنها منازل الملوك.

وهي أيضًا مأخوذة من معنى الإبانة والتمام والإحاطة؛ لأنها بائنة عن السورة الأخرى، منفصلة عنها تامة بموضوعاتها، محيطة بآياتها[3].

والسورة من القرآن في الاصطلاح: هي القطعة من كلام الله تعالى في كتابه ذات بداية ونهاية معروفة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر[4].

---

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن، مادة «سور»، «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٨٩.

(٢) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» ص ٥٦ جمع وتحقيق محمد عاشور.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» ١/ ٢٠، «جامع البيان» ١/ ١٠٤- ١٠٥ تحقيق أحمد شاكر، «المحرر الوجيز» ١/ ٤٦، «لسان العرب» مادة «سور».

(٤) انظر: «البرهان في علوم القرآن » ١/ ٢٦٤، وانظر ما تقدم في بيان معنى السورة والآية في تفسير سورة الفاتحة، المبحث السادس.

﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: الجملة في محل رفع صفة لـ«سورة»، والإنزال يكون من علوٍ إلى أسفل، وفي هذا إثبات علو الله عز وجل على خلقه، وفيه دلالة على أن القرآن منزل غير مخلوق كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة من القول: بخلق القرآن، وقولهم باطل بدلالة القرآن كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وفرَّضناها» بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتخفيف[1].

والفرض يطلق بمعنى: الحز والقطع، يقال: فرض الجزار اللحمة، أي: قطعها، ويطلق على الإيجاب ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة:١٩٧]، أي: أوجب على نفسه الحج بالإحرام به.

ويطلق على التقدير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٦][2].

فمعنى ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجابًا قطعيًا، وقدَّرنا ما فيها من الحدود والأحكام تقديرًا محكمًا، بحيث لا تجوز الزيادة فيها، ولا النقص منها.

وفي قراءة التشديد توكيد الإيجاب والتقدير والإحكام[3]؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا. وقيل: قراءة التخفيف بمعنى «الإيجاب» وقراءة التشديد بمعنى «التقدير».

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾وهو كالتفسير والتوكيد لقوله: ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾.

و﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية، وهي لغةً: العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨].

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٧، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر مادة « فرض» في «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب».

(٣) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» ٢/ ١٣٣، «النشر» ٢/ ٣٣٠، «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٩٠.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

وهي تنقسم إلى قسمين آيات كونية، وهي كل ما بثَّه الله وخلقه في هذا الكون علويه وسفليه من المخلوقات، من السموات والأرض والجبال والملائكة والإنس والجن، والحيوان والنبات، وسائر المخلوقات، فكل ذلك من الآيات والعلامات الدالة على وجود الخالق وعظمته، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس:٣٣، ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٣٨- ٤٩].

وفي كل ذلك آية، بل آيات دالة على عظمة الخالق عز وجل.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد[١]

والقسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية المنزلة من عند الله، وهو الوحي الذي أوحاه الله عز وجل إلى أنبيائه ورسله، وأعظمه القرآن الكريم الذي أنزله الله وأوحاه إلى عبده ونبيه محمد ﷺ، ومنه هذه السورة وما فيها من الآيات البينات.

وسمي ذلك ﴿ءَايَٰتٍ﴾؛ لما فيه من الهدى والإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأخباره، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، ولما فيه من الدلالة على أنه من عند الله عز وجل الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته وألوهيته، المستحق للعبادة دون سواه، كما قال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ولكونه علامة ودلالة على صدق من جاء به وهو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ: قال «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٢].

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾جمع بيِّنة، من بان يبين فهو بيّن، إذا ظهر واتضح، أي: واضحات مفصَّلات بأنفسهن، لا غموض فيهن ولا إشكال، ولا لبس فيما تضمنته من الأحكام والأخلاق والآداب الشرعية، ومن الدلائل الكونية الدالة على وجود الخالق وكمال قدرته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما ذكر الله عز وجل في مواضع كثيرة هذا البيان والتفصيل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

وقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩].

ففي هذه الآيات الشرعية بيان الأحكام والحلال والحرام.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان ١٥٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف وأصلها «تتذكرون»، وقرأ الباقون: «تَذَّكَّرُونَ» بالتشديد[1]. و«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتذكروا، أو للترجي، أي: رجاء أن تذكروا، والرجاء إنما هو من المخاطبين. والأول أصح.

والتذكر: هو الاتعاظ بالقرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من الوعد والوعيد، وتدبر ألفاظه ومعانيه وتصديق أخباره، وتطبيق أحكامه. وليس التذكر الثقافي فقط الذي لا يصاحبه عمل كما هو حال الكثيرين اليوم.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

هذا أول حكم مما فرضه الله عز وجل وأوجبه في هذه السورة وهو حكم الزانية والزاني، أي الحد الذي يقام عليهما، وهو وما بعده تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾، ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلزَّانِى﴾ معطوف عليه، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والزانية: هي المرأة التي ارتكبت فاحشة الزنا، والزاني: هو الرجل الذي ارتكب تلك الفاحشة. و«الزنا» بالمد والقصر «الزناء»و«الزنا»[2]. والقصر أولى.

والزنا هو: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام أي: «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

كما قال ماعز بن مالك- رضي الله عنه- لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا»؟ قال: « نعم: أتيت منها حرامًا، ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا»[3].

والزنا: من أعظم الفواحش قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «زنا».

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وقدَّم الزانية على الزاني في الذكر هنا- مع أن الغالب في القرآن تقديم الرجال على النساء، وذلك- والله أعلم- إشارة إلى أن المرأة هي السبب الأعظم في حصول هذه الجريمة، فلو احتشمت وحفظت نفسها، وقرَّت في بيتها، وامتنعت من هذه الفاحشة وابتعدت عن الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة، بخلاف جريمة السرقة فإن الله عز وجل قدَّم فيها ذكر السارق على السارقة، فقال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨] وذلك لأن الرجل أجرأ على السرقة غالبًا.

وأيضًا فإن الزنا في حق المرأة أشد شناعةً وفحشًا، وضرره وآثاره عليها أعظم لما فيه من الفضيحة والعار عليها وعلى عشيرتها، وقد تَحْمِل بسببه، إضافةً إلى ما قيل من أن داعي الشهوة في المرأة أكثر وأقوى من الرجل على وجه العموم.

وقوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ يعم كل زانٍ وزانية من المسلمين أو من غيرهم، كما في رجمه ﷺ لليهوديين.

﴿فَٱجْلِدُواْ ﴾ الأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاة أمور المسلمين، فلا يجوز أن يقيم الحد غير الإمام أو نائبه لما في ذلك من حصول الفوضى بين الناس، ما عدا السيد فإنه يقيم الحد على مملوكه على الصحيح.

والجلد: ضرب «الجِلد». يقال: جلده، إذا ضرب «جلده» ضربًا يؤلمه، ولا يبضع اللحم، ولا يجرح الجلد[١]، ولا يكسر العظم.

وهكذا ينبغي أن يكون الضرب وسطًا بين الضربين لا شديدًا، ولا سهلًا خفيفًا لا يؤلم، بل ضربًا مؤلمًا غير مبرح، ولا يرفع الضارب يده حتى يُرى بياض إبطه.

ويكون السوط أيضًا وسطًا بين السوطين لا شديدًا ولا لينًا، ويتقي الضارب المَقاتل، كالرأس والوجه ونحو ذلك، قال ﷺ: «**إذا ضرب أحدكم فليتقِ الوجه**»[٢].

وينبغي أن يفرق الضرب على الجسم لينال كل عضو نصيبه من الألم، ويجلد

(١) انظر: «اللسان» مادة «جلد».

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٩٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرجل قائمًا والمرأة قاعدة.

﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا﴾، أي: كل واحد من الزانيين المذكورين في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾.

والآية هنا خاصة بالزناة الأبكار؛ كما سيأتي بيانه في الفوائد والأحكام.

﴿مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾، أي: عدد مائة جلدة بالسوط والعصا ونحو ذلك.

وقد خصَّ من عموم قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ الإماء لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥]، أي: فعليهن نصف حد الحرائر خمسون جلدة، وألحق الجمهور بالإماء العبيد الذكور فمن زنى منهم جُلد خمسين جلدة[1].

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، «تأخذكم» مجزوم بها، وعلامة جزمه السكون، «بهما»، أي: بالزانيين.

﴿رَأۡفَةٞ﴾ قرأ ابن كثير: «رَأَفَةٌ» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بسكونها[2]، ومعناهما واحد.

والمعنى: ولا تغلبكم الشفقة عليهما، والرحمة بهما، والعطف عليهما، فتمنعكم من إقامة الحد عليهما، أو تحملكم على تخفيفه والخروج به عن الوجه الشرعي المطلوب، أما الرأفة الطبيعية فإنها أمر جِبِلِّيٌّ فُطِر عليه البشر، بل كثير من الحيوانات.

﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في سبيل إقامة دين الله وشرعه وحكمه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦] ولفظ الجلالة «الله» علم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢- ٢٤].

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [٢٥].

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

وقد يأتي تابعًا لغيره من أسماء الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١، ٢]، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب عطف بيان، ومعنى (الله)، أي: المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيمًا.

فلا يجوز أن تحول الشفقة عليهما والرحمة بهما دون تنفيذ حكم الله فيهما، أو تحمل على التساهل به وتخفيفه، بل إن عين الشفقة عليهما والرحمة بهما إقامة هذا الحد عليهما تطهيرًا لهما من رجس هذه الفاحشة، كما قال ماعز ﷺ: "طهرني يا رسول الله"[(١)].

وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قال تعالى بعد ذكر قصة أصحاب الجنة الذين عزموا على منع المساكين منها: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٩- ٣٣].

وقال ﷺ للمتلاعنين: «فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[(٢)].

وهذا بعد رفع الحكم إلى السلطان وثبوت الحد، عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب**»[(٣)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الحدُّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا**»[(٤)].

وفي رواية: «لحد يقام في الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين عامًا»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥- من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه. وانظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨٥- ٣٨٦.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود- العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في قطع يد السارق- الترغيب في إقامة الحد ٤٩٠٤، ٤٩٠٥، وابن ماجه في الحدود- إقامة الحدود ٢٥٣٨، وأحمد ٢/ ٣٦٢، ٤٠٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٩٣٢.

قال ابن كثير[١]: «وقوله : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، لا ترحموهما، وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز ذلك».

وأيضًا فلا تأخذكم بهما شفقة ورحمة فتخففون الجلد والضرب عليهما، بل أقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن هذه الفاحشة، وليس المراد الضرب المبرح.

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهم- : «أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها. قال عبيد الله: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رأفة. إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جَلْدها في رأسها، وقد أوجعتُ حيث ضربتُ»[٢].

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، دلَّ عليه ما سبق، أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فاجلدوهما ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله.

قال ابن كثير[٣]: «وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحًا؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك».

وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله! إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال: «ولك في ذلك أجر»[٤].

والإيمان بالله معناه: التصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته مع عمل الجوارح بمقتضى ذلك.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال وما في ذلك اليوم من الأهوال، والجنة والنار، وغير ذلك مما دلَّ عليه الكتاب

---

(١) في «تفسيره»٦/ ٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٤٠، وعبد الرزاق في «المصنف» ١٣٥٣٧، والبيهقي في سننه ٨/ ٢٤٥. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٦.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٦، ٥/ ٣٤. من حديث قرة المزني رضي الله عنه.

والسنة.

وسُمي اليوم الآخر بهذا الاسم؛ لأنه بعد انقضاء هذه الدنيا بأيامها ولياليها، فآخر ليلة منها صبيحتها ذلك اليوم الطويل ولا ليل بعده.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به عز وجل وبين الإيمان باليوم الآخر، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع عن التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى.

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في الشرور، واعتدى بعضهم على بعض ونحو ذلك.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، وهو للوجوب أي: وليحضر (عذابهما). أي: عقوبتهما بجلدهما وإقامة الحد عليهما ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: جماعة من المؤمنين بحيث يكون رجمهما علانيةً بحضور الناس، والطائفة: الجماعة من الناس، من واحد، أو من اثنين، أو من ثلاثة فأكثر[(١)].

والحكمة من ذلك- والله أعلم- التنكيل بهما والفضيحة لهما، والردع لأمثالهما، كما قال عز وجل في المحاربين: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [المائدة:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨].

قال ابن كثير[(٢)]: «هذا تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان الناس حضورًا».

وهذا عذاب معنوي يقع على القلب، مع العذاب الحسي على الجسد بالجلد.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٤٥- ١٤٩، وانظر مادة «طوف» من «القاموس المحيط»، و«لسان العرب».
(٢) في «تفسيره» ٦/ ٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين، وذلك بشهادته على نفسه أو بشهادة المؤمنين عليه؛ لأن المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة، كما روي في الأثر عن عمر رضي الله عنه: «من أذنب سرًّا فليتب سرًّا، ومن أذنب علانيةً فليتب علانيةً».

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

أمر الله عز وجل بجلد الزانيين عقوبةً لهما وتنكيلًا بهما، ثم أتبع ذلك ببيان تحريم مناكحتهما هجرًا وتأديبًا لهما.

سبب النـزول:

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، فأراد أن يتزوجها، فسأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ، ولم يرد عليه شيئًا حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد! ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ فلا تنكحها»[2].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن امرأة يقال لها: أم مهزول كانت تُسافِح، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلًا من المسلمين أراد أن يتزوجها فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾[3].

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٠١، والنسائي في النكاح ٣٢٢٨، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٧، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥١- ١٥٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٦، والحاكم ٢/ ١٦٦، والبيهقي في سننه ٧/ ١٥٣. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «حسن الإسناد». وانظر: «لباب النقول» ص ١٥٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص١٤٢.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٥٩، ٢٢٥، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥٠- ١٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٥ والحاكم في النكاح ٢/ ١٩٣ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٢١٢، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨.

قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

الزاني والزانية: من يرتكبان فاحشة الزنا، وقدم هنا الزاني على الزانية؛ لأن الكلام في النكاح، والرجل هو الذي بيده عقدة النكاح، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

والمشركة والمشرك: من يرتكبان الشرك، وهو دعوة غير الله، وإشراكه مع الله، وتسويته بالله، فيما هو من خصائص الله، كما قال الله جل جلاله عن المشركين أنهم يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

والنكاح: يطلق على العقد، وعلى الوطء، وأكثر إطلاقاته في القرآن على العقد.

واختلف في المراد به هنا، فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد به: الوطء والجماع. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: «ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٍ»[(١)].

وهكذا قال جمع من السلف: إن المراد بالنكاح في الآية: الجماع[(٢)] واختاره الطبري[(٣)] وغيره. قال ابن تيمية[(٤)]: «فأما المشرك فلا إيمان يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها، وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك، وإن لم يكن مشركًا».

وقال ابن كثير[(٥)]: «هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٢، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٧.
كما أخرجه ابن أبي حاتم أيضًا بمعناه من طرق عدة ٨/ ٢٥٢٢- ٢٥٢٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥٣- ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٥٧- ١٥٩، «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٢١ وما بعدها، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٦٧ «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٦٠- ١٦١، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٥٤٠.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٣.

(٥) في «تفسيره» ٦/ ٧.

والمراد من هذا: تقبيح الزنا، والتصريح بخبث الزناة والزواني.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد بالنكاح هنا: العقد، وهذا ما يؤيده ما رُوي في سبب النزول.

قال ابن القيم[1]: «والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يُعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم.. والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى، فإنهم أَشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾ هل هو خبر، أو نهي، أو إباحة؟ فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهيًا له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحةً له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعًا، فلما أَشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه، فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة- وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويُصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك، ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه، ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به: رجل واحد وامرأة واحدة وهي «عناق» البغي وصاحبها، فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها فنزلت الآية، وهذا أيضًا فاسد».

وبعد أن بيَّن وجه فساد هذا القول وذكر قول من قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور:٣٢]، وبيَّن أن هذا أفسد من الكل إذ لا تعارض بين الآيتين قال بعد ذلك:

«فإن قيل فما وجه الآية؟ قيل: وجهها- والله أعلم- أن المتزوج أُمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أُبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر سبحانه في سورتي النساء والمائدة، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرَّعه على لسان رسوله، أولا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٣- ٢٤٦.

يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من أشرك مثله.

وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرَّم عليه لم يصح النكاح، فيكون زانيًا، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك المرأة».

وقال أيضًا: «وأما نكاح الزانية، فقد صرَّح الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه ويعتقد وجوبه، أولا فإن لم يلتزمه ولم يعتقده، فهو مشرك. وإن التزمه واعتقد وجوبه، وخالفه، فهو زانٍ ثم صرَّح بتحريمه فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واستدل ابن القيم على أن المراد بالنكاح: الزواج بقوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، فقال: «والخبيثات: الزواني، وهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن. وأيضًا: فمن أقبح القبيح أن يكون الرجل زوج بغي، وقُبْحُ هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة. وأيضًا فإن البغي تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا، وقد فرَّق النبي ﷺ بين الرجل والمرأة التي وجدها حُبْلَى من الزنا، ولما استأذنه: مرثد بن أبي مرثد أن ينكح «عناق» وكانت بغيًّا قرأ ﷺ عليه آية النور، وقال: «لا تنكحها».

وقد تعقب الشنقيطي[1] قول ابن القيم بأن ما صح عن ابن عباس يرده. واستدل للقول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، بالآيات التي فيها تحريم مناكحة المشركين، ثم قال: «وهذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقًا؛ لأن حمل النكاح فيها على التزويج لا يلائم ذكر المشرك والمشركة، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا أعلم مخرجًا واضحًا من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين، كما حرَّره أبو العباس ابن تيمية- رحمه الله- في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة، هو جواز حمل المشترك على معنييه أو معانيه. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافًا لمن زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر. وإذا حملت المشترك على معنييه، فيحمل

(١) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١- ٨٢.

النكاح في الآية على الوطء وعلى التزويج معًا، ويكون ذكر المشركة والمشرك على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له».

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة لما سبق، أي وحرم وحظر شرعًا الزنا، وتزوج الزانيات، وتزويج الزناة على المؤمنين.

كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية:٢٥] أي: عفيفات غير زانيات علنًا ولا سرًّا، وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [الآية:٥].

فالإيمان المطلق يمنع صاحبه من الزنا، ومن تزويج الزناة والزانيات، قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث[1].

الفوائد والأحكام:

١- عِظم هذه السورة وأهميتها، وما فيها من أحكام وآداب؛ لقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فتخصيصها في هذا المطلع من بين سور القرآن يدل على ذلك.

٢- إثبات علو الله عز وجل على خلقه لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن. وقد ظهرت هذه المقولة منذ القرون الأولى- وما بالعهد من قدم- وانتصر لها الخليفة المأمون. وعُذِّب علماء أهل السنَّة من أجل القول بذلك، منهم إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، الذي تصدى لهذه البدعة وردَّها وثبت على القول بأن القرآن مُنزَّل غير مخلوق.

ولهذا قال علي بن المديني رحمه الله: «أعزَّ اللهُ الإسلامَ برجلين ليس لهما ثالث: أبو

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بكر الصديق يوم الرِّدة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[1].

٤- أن ما أنزله الله عز وجل في هذه السورة من أحكام مما فرضه الله على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

٥- أن في القرآن وما اشتمل عليه من آياتٍ أعظم الدلالة على وجود الله عز وجل وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته، وألوهيته، وكمال شرعه، وصدق رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- الامتنان بإنزال هذه السورة وفرضها، وما فيها من الآيات البينات، وهكذا امتن الله عز وجل على عباده بهذا البيان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

٧- أن المقصود من إنزال السور والآيات: حمل العباد على التذكر والاتعاظ والعمل بما أنزل الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تذكروا.

ويؤخذ من هذا رأفة الله عز وجل ورحمته بالخلق ومحبته لهدايتهم، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢، ١] وقال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] ولولا ذلك لما أرسل الرسل وأنزل الكتب.

٨- في تقديم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ إشارة إلى أن السبب الرئيس في وقوع هذه الفاحشة هي المرأة، كما أنها المتضررة به أكثر، إذ لو قرَّت في بيتها وحفظت نفسها وامتنعت وابتعدت عن مخالطة الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة.

وفي هذا دلالة على تحريم التبرج والسفور، ووجوب حفظ المرأة لنفسها وعِفتها، والبعد عن مخالطة الرجال وأسباب الفتنة لها وبها.

وما من شكٍّ أن نساء المسلمين لو التزمن الحجاب واللباس الشرعي وقررن في بيوتهن، كما أمر الله بذلك أمهات المؤمنين لكان المجتمع أبعد ما يكون عن هذه الفاحشة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

٩- بلاغة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ فقدَّم الزانية على الزاني؛ لأن المرأة-

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥/ ٢٧٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٩٠).

كما سبق- هي السبب الأعظم؛ ولهذا في آية السرقة قدَّم السارق على السارقة فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨]؛ لأن الرجل أجرأ على السرقة غالبًا.

١٠- في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ دليل على أنه لا بد من ثبوت الزنا في حق من يقام عليه الحد، وثبوته بشهادة أربعة رجال عدول مكلفين أحرار، يشهدون شهادة صريحة بذلك، أو بالإقرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾[النساء:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور:٤]، وقال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، فهاتان الآيتان تدلان بمفهومها على أن الزنا يثبت بأربعة شهداء. وعلى هذا أجمع أهل العلم. فإن كان الشهود دون الأربعة أو اختلفت شهادتهم أو بعضهم، أو لم تثبت عدالتهم أو بعضهم، أو كان بعضهم مملوكًا لم يثبت الزنا.

كما يثبت الزنا بالإقرار، وهو أن يعترف الزاني على نفسه بالزنا، من غير أن يكره على ذلك، مع التصريح، بذلك بدليل قوله ﷺ في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- لماعز بن مالك رضي الله عنه: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا. قال: «أفنكتها»؟ قال: نعم. فعند ذلك، أمر برجمه»[1].

وقد اختلف العلماء هل يكفي الإقرار مرة واحدة أو لا بد من الإقرار أربع مرات؟ فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا بد من الإقرار على نفسه أربع مرات، لما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، وهو في المسجد، فناداه، فقال: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، حتى ثنَّى عليه ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أبك جنون»؟ قال: لا. قال: «فهل أُحصنت»؟، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فارجموه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٢٤، ومسلم في الحدود ١٦٩٣، وأبو داود في الحدود- رجم ماعز بن مالك ٤٤٢٧، وأخرجه أيضًا ٤٤٢٨ بمعناه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٧٢، ومسلم في الحدود ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤٢٨، والنسائي في

وعن بريدة- رضي الله عنه- : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا، تنكرون منه شيئًا»؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا، فيما نرى. فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه، فأخبروه: أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرةً، ثم أمر به فرجم»[1].

وقالوا أيضًا: إن هذا هو الموافق لعدد الشهود في الزنا، فمقابل كل شاهد إقرار مرة واحدة. واشترط بعضهم أن تكون الإقرارات في أربعة مجالس لحديث بريدة- رضي الله عنه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار على نفسه مرة واحدة فإذا أقر على نفسه مرة واحدة ولم ينزع عن إقراره أقيم عليه الحد.

واستدلوا بما جاء في حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»[2].

قالوا: فلو كان يشترط لإقامة الحد على الزاني الإقرار أربع مرات لَبيَّن النبي ﷺ ذلك لأنيس- رضي الله عنه- فلما أطلق ذلك عرفنا أنه يكفي الإقرار ولو مرة واحدة.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة- رضي الله عنه- قال: «أُتي رسول الله ﷺ بماعز بن مالك- رجل قصير عليه إزار- فردَّه رسول الله ﷺ مرتين، ثم أمر به فرجم»[3].

وروي أنه ردَّه ثلاث مرات.

الجنائز ١٩٥٦، والترمذي في الحدود ١٤٢٨.

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٣٣. وهكذا جاء في حديث جابر بن سمرة- رضي الله عنه- وغيره، أخرجه مسلم ١٦٩٢، وأبو داود ٤٤٢٢.

(٢) سيأتي قريبًا بتمامه وتخريجه.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٨٦.

قالوا: فهذا كله يدل على أن العدد غير مقصود، وإنما المقصود التثبت والتحقق من وقوع الزنا.

والأول أحوط، والثاني أرجح، فما حصل به تمام التثبت والتحقق كافٍ، سواء اعترف على نفسه مرةً أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا أو أكثر.

ولهذا لو رجع ونزع عن إقراره قُبل منه على الصحيح من أقوال أهل العلم ولم يقم عليه الحد، ولو أقرَّ على نفسه مائة مرة لقوله ﷺ في حديث ماعز لما هرب حين أذلقته الحجارة: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه»(١).

وأما الحمل فلا يثبت به الزنا لوجود الشبهة، فقد تكون المرأة مكرهة أو زُني بها وهي نائمة أو غير ذلك. وقد قال ﷺ: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلّوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»(٢).

١١- وجوب جلد كل من الزاني والزانية مائة جلدة، وعدم الرأفة بهما والشفقة عليهما في إقامة حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ وأجمع المسلمون على هذا.

ويخص من عموم الآية الأَمَة فحَدّها خمسون جَلْدة، نصف حد الحُرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ [النساء:٢٥].

كما دلَّت السنَّة على أن الجلد مائة جلدة خاص بغير المحصن، وأن عليه أيضًا تغريب سنة.

كما دلَّت الآية التي نسخ لفظها وبقي حكمها وكذا السُّنَّة على أن حد المحصن- وهو الذي وطئ بنكاح صحيح- الرجم، فعن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني- رضي الله عنهما: «أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: إن ابني كان عسيفًا- يعني أجيرًا- على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة،

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤١٩- من حديث يزيد بن نعيم بن هزال، عن أبيه رضي الله عنه، وصححه الألباني. وانظر: «المغني»١٢/ ٣٥٤- ٣٥٥، «أضواء البيان» ٦/ ٢٨- ٣٢، ٥٩- ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٢٤- من حديث عائشة- رضي الله عنها- وذكر أنه روي موقوفًا عن عائشة وعدد من الصحابة قال والموقوف أصح. وانظر: «أضواء البيان» ٦/ ٣٧- ٤١.

فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جَلْد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس- لرجل من أسلم- إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»[١].

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا، البِكرُ بالبِكرِ جلد مائة وتغريب عام، والثيبُ بالثيب جلد مائة والرجم»[٢].

فدلَّ هذان الحديثان وغيرهما من الأحاديث على أن حد الزاني غير المحصن هو الجلد مائة جلدة وتغريب عام. وبهذا قال جمهور أهل العلم.

واختلفوا في تغريب المرأة، والمملوك ذكرًا كان أو أنثى[٣]، والأظهر- والله أعلم- أن المرأة تغرب كالرجل إلا إذا خِيف عليها الفتنة، والغالب أنه إذا كان التغريب بما هو ممكن الآن وهو أن يسجن الزاني في بلد آخر[٤]- كما رجح ذلك جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[٥]- فإن الفتنة قد تكون مأمونة.

أما العبد والأمة فالأظهر- والله أعلم- أنهما لا يغربان، لتضرر مالكهما بذلك وقد دلَّ على ذلك حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود- من اعترف على نفسه بالزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود- حد الزنا ١٦٩٠، وأبو داود في الحدود- في الرجم ٤٤١٥، والترمذي في الحدود- ما جاء في الرجم على الثيب ١٤٣٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٠.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي ١/ ٣٠٥، «معالم التنزيل» ١/ ٤٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ١/ ٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ٥/ ٨٧، «زاد المعاد» ٥/ ٣٤، ٣٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣.

(٤) وذلك أن مجرد التغريب بدون سجن قد يكون من الصعب التحكم فيه بمن غرب نظرًا لتوفر وسائل المواصلات السريعة والمختلفة، فبمجرد أن ينفى سرعان ما يعود، ومن الصعب جدًّا، بل ومن العسير جدًّا مراقبته، ولو جهز له جيش كامل.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٩٩.

فتبين زناها، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها..» الحديث[١] ولم يذكر فيه التغريب.

وظاهر حديث عبادة الجمع بين الجلد والرجم للثيب. وقد رُوي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، وقال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ»[٢].

وبهذا قال طائفة من السلف، وأهل الظاهر[٣] وهو رواية عن الإمام أحمد[٤]، لكن الظاهر من أمر الرسول ﷺ لأنيس في قوله: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها». ولم يذكر الجلد أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط، وهكذا ثبت من فعل الرسول ﷺ مع ماعز بن مالك، والغامدية الاقتصار على الرجم فقط، ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهما قبل الرجم.

وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة بألفاظها وطرقها المختلفة والمتعددة[٥]، فحد الزاني المحصن الرجم، وهو مما أنزل في القرآن، كما في حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! فإن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أُنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أُحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحَبَل أو الاعتراف»[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨١٢، وأحمد ١/ ١٤١، وعبد الرزاق في «المصنف» الأثر ١٣٥٠، وابن أبي شيبة ١٠/ ٨٨.

(٣) انظر: «المحلى» ١١/ ٢٣٤.

(٤) انظر: «المغني» ١٢/ ٣٠٨.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥.

(٦) أخرجه البخاري في الحدود- رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٦٨٢٩، ومسلم في الحدود- رجم الثيب في الزنا ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤١٨، والترمذي في الحدود- تحقيق الرجم ١٤٣٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٣، وأحمد ١/ ٢٩، ٣٣، ٣٦.

وقد رجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية، والجهنية، واليهوديين، وامرأة العسيف.
وجمهور العلماء على أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط دون الجلد، وهو الراجح للأدلة السابقة فيرجم بالإجماع، ولا يزاد عليه الجلد عند جمهور أهل العلم[(١)].
وقد رتَّب الله على فعل الفاحشة هذه العقوبة العظيمة وهي الرجم، ورجم سبحانه وتعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل (فاحشة اللواط)، وذلك ما لم يجعله في شيء من المعاصي[(٢)] مما يدل على شناعة وقبح الزنا واللواط.

١٢- أن الذي يقيم الحد على الزناة هم ولاة الأمر أو من يقوم مقامهم، وليس لأحد غيرهم أن يقيمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾، ما عدا المملوك فإن الذي يقيم الحد عليه سيده لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أَمَة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبْلٍ من شعر»[(٣)].
وعن أبي هريرة وزيد بن خالد- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ سُئل عن الأَمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضفير[(٤)]»[(٥)].
ولا يقال إن الخطاب في قوله: (فاجلدوها) لولاة الأمر ونوابهم لقوله في آخره «فبيعوها ولو بضفير» والذي له حق بيعها هو مالكها.
وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أيها الناس، أقيموا الحدود على أرقائكم،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥، «أضواء البيان» ٦/ ٤١- ٤٨.
(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١٢.
(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٤، وفي الحدود ٦٨٣٩، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.
(٤) الضفير: الحبل، كما في الحديث قبله «ولو بحبل من شعر» وانظر: «النهاية» مادة «ضفر».
(٥) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٣٧، ٦٨٣٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، ١٧٠٤، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، ٤٤٧٠، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.

من أُحصن ومن لم يُحصن؛ فإن أَمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها»[١].

وقيل: إن الذي يقيم الحدود على جميع الزناة بما فيهم المماليك هو الإمام أو نائبه لعموم الآية.

والصحيح الأول للأحاديث المذكورة ونحوها فهي مخصصة لعموم الآية، وأنها في الأحرار. وقد رُوي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه جلد أمةً له في الزنا[٢]، وكذا رُوي عن أنس رضي الله عنه[٣].

١٣- لا يجوز للمؤمنين أن تأخذهم شفقة أو رحمة بالزانيين تحول بينهم وبين إقامة الحد عليهما وتنفيذ حكم الله فيهما، أو تحملهم على تقليل الجَلد أو تخفيفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- الإشارة إلى تقديم تنفيذ حكم الله وما يقتضيه العقل والمصلحة على العاطفة مطلقًا، لقوله هنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فإن إقامة الحد عليهما هو عين الرأفة بهما والشفقة عليهما تطهيرًا لهما من رجس الفاحشة، وكما قيل:

فقَسَا ليزدجروا ومَن يكُ حازمًا فَلْيَقْسُ أحيانًا على من يرحم[٤]

والمشاهد أن كثيرًا من الناس قد تحملهم العاطفة على ترك ما يجب فعله أو على ارتكاب ما يجب تركه.

١٥- أن من شرط الإيمان بالله واليوم الآخر إقامة الحد على الزناة، وألاَّ تأخذنا بهما شفقة ورحمة في تنفيذ حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وفي هذا حث وتأكيد على وجوب إقامة الحدود.

١٦- أن الإيمان بالله أعظم أركان الإيمان الستة، وهو أصل الإيمان لتقديمه دائمًا في الذكر على بقية أركان الإيمان كما في قوله هنا: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وكما في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٧٠٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٧٣، والترمذي في الحدود ١٤٤١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٧/ ٣٧٦ (١٣٥٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٨/ ٤٢٨ (١٧١٠٩).

(٣) أخرجه البيهقي ٨/ ٤٢٧ (١٧١٠٨).

(٤) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٢٧٤).

وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

١٧- أن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان وأعظمها؛ لأنه أعظم ما يحمل على العمل ويدفع إليه، لهذا يقرنه عز وجل دائمًا بالإيمان به سبحانه وتعالى كما في قوله هنا: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ .

١٨- يجب أن تكون إقامة الحد على الزانيين علنًا بحضور طائفة من المؤمنين تنكيلًا بهما وفضيحة لهما وردعًا لمن تسول له نفسه الإقدام على مثل فعلهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[1] .

١٩- شدة حرمة الزنا وشناعته؛ لأن الله عز وجل رتَّب عليه هذه العقوبة العظيمة، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

وسأل عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- فقال: «يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»[2] .

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**[3] .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، انظر: «كنز العمال» ١٤٢٨٤، وقد روي نحوه عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان ٨٦، وأبو داود في الطلاق ٢٣١٠، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٣، والترمذي في «التفسير» ٣١٨٢.

(٣) سبق تخريجه.

ومع تشديد الشرع في عقوبة الزنا إلا أنه جعل في هذه العقوبة شيئًا من التدرج، فجعل عقوبته أولًا الحبس والأذى[1]، ثم شرع بعد ذلك الجلد والرجم، وذلك- والله أعلم- لشدة هذه العقوبة حتى لا يفاجأ بها من كان يستخف بأمر هذه الفاحشة.

٢٠- أن الذين يرتكبون فاحشة الزنا من الرجال والنساء هم من الزناة الذين استهانوا بهذه المعصية العظيمة، والتي هي من كبائر الذنوب، أو من أهل الشرك الذين لا يعتقدون حرمة الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فمن استحضر عظم حرمة هذه الفاحشة، واعتقد ذلك، فإنه في الغالب يبتعد عنها وعن أسباب الوقوع فيها. وفي هذا تنفير من الزنا وأهله.

٢١- حرمة تزويج الزناة، والزواني؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾ [النساء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»[2].

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، أو حرم عليهم الجنة، أو لا ينظر الله إليهم: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر في أهله الخبث»[3].

وعن عمار بن ياسر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة

---

(١) وذلك في قوله في سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ الآيتين ١٥، ١٦. وقد ذكر أن نزول آيات سورة النور بعد هاتين الآيتين بسنتين ونصف. انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص٤٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٤ وأبو داود في النكاح- باب قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ٢٠٥٢، والنسائي في النكاح- باب تزويج الزانية وقال ابن حجر في «بلوغ المرام» ص٢٠٨: «رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٦٩، ١٣٤، والنسائي في الزكاة- المنان بما أعطى ٢٥٦٢ وقال الألباني: «حسن صحيح».

ديوث»[١].

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز تزويج الزناة والعقد للزاني على العفيفة، وللعفيف على الزانية وحملوا الآية على أن المراد بالنكاح فيها الوطء والجماع. قالوا: فلا دليل فيها على تحريم العقد للزناة[٢].

وقد تقدم أن كون النكاح مرادًا به العقد هو ما تؤيده الروايات في سبب نزول الآية.

وعلى القول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، أو ما يشمل العقد والوطء، فإن أدلة اشتراط العفة في النكاح كثيرة معلومة، منها قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ﴾ [النساء:٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة ٥].

فهذه الأدلة وغيرها تدل على اعتبار العفة شرطًا في النكاح فكيف يقال مع هذا بجواز عقد الزاني على العفيفة، وعقد العفيف على الزانية.

وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بأدلة لا تدل على ما ذهبوا إليه، منها قوله تعالى في سورة النساء بعد أن ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤]. قالوا: فيدخل فيمن أحل الزانية. وهذا ليس بصحيح فإن الآية عامة خص منها كل ما حرم نكاحه مما لم يذكر في الآية كالجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وبين العمتين وبين الخالتين، ونكاح الخامسة، وزوجة الملاعن، ونكاح الأَمة لمن يستطيع نكاح حرة ونحو ذلك[٣]، ومن ذلك نكاح الزاني والزانية.

كما استدلوا بما رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- : أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده. انظر: «منحة المعبود» أبواب حد الزنا- النهي عن الزنا ١/ ٢٩٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٠: «ويستشهد به لما قبله من الأحاديث».

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١- ٨٢.

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس. قال: «غَرِّبْهَا». قال: أخاف أن تتبعها نفسي. قال: «فاستمتع بها». وفي رواية: «طلقها» قال: لا صبر لي عنها قال: «فأمسكها»[(١)] وهذا الحديث ضعفه جمع من أهل العلم.

فالصحيح الذي تؤيده الأدلة تحريم نكاح الزاني والزانية حتى يتوبا إلى الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: «فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، وفيه آثار عن السلف، وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه، وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه».

وقال القاسمي[(٣)]: «واتفقوا على الكفاءة في الدين والزاني ليس كفؤًا للعفيف فكيف يقال بجواز اقترانهما».

وقال أخونا الدكتور/ ناصر الحميد[(٤)]: «وإني لأعجب- مع وضوح الأدلة- أن يذهب جمهور الفقهاء إلى عدم التحريم، فيجيزون ارتباط الزاني الذي لم يتب بالعفيفة، وارتباط العفيف بالزانية. فالعفيف الذي يقترن بالزانية التي لم تتب بمنزلة مَن يُقر الفاحشة في أهله».

أما إذا تاب الزانيان وأنابا إلى الله عز وجل وصلحت أحوالهما فإنه يجوز تزويجهما[(٥)]؛ لأن التوبة تجبُّ ما قبلها، حتى ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن

(١) أخرجه أبو داود في النكاح- النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ٢٠٤٩، والنسائي في النكاح ٣٢٢٩، وفي الطلاق ٣٤٦٤، ٣٤٦٥.

وقد ضعَّفَ هذا الحديث جمع من أهل العلم بل حكموا بوضعه، قال الإمام أحمد: «هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ وهو منكر، ليس له أصل» انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٠- ١١، «أضواء البيان» ٦/ ٧٣ وقال النسائي: «هذا خطأ والصواب مرسل، وهذا الحديث غير ثابت».

وقال الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام» ص٢٣٣: «ورواه أبو داود والترمذي والبزار، ورجاله ثقات». وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٣١٧.

(٣) في «محاسن التأويل» ١٢/ ٤٤٤٣.

(٤) في كتابه «تفسير سورة النور» ص ١١٠.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ١١ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٨٩.

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

٢٢- حرمة الزنا على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان:٦٨].

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١].

وقد أجمعت الشرائع السماوية والديانات على حرمة الزنا وتأثيم مرتكبه وأنه رذيلة وعيب وعار[٢].

٢٣- أن الزاني ليس بمؤمن الإيمان المطلق، وإن كان عنده مطلق الإيمان، لأن الإيمان المطلق يمنع صاحبه من الزنا، وتزويج الزناة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وكما في حديث أبي هريرة المتقدم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧١، «تفسير سورة النور» للمودودي ص ٣١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حد الزنا وحكم مناكحة الزناة، ثم أتبع ذلك بذكر حد القذف، وذلك كله صيانة للأعراض من الانتهاك والأذى، وصيانة للنفوس المعصومة من الإزهاق(١) والقضاء على وسائل إشاعة الفاحشة في مهدها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الواو: استئنافية. و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يعم كل من رمى المحصنات من ذكرٍ أو أنثى، وإنما غلب فيه الذكور على الإناث.

ومعنى ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الرمي في الأصل يطلق على الرمي الحسي بالفعل، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فقد أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب يوم بدر فرمى بها في وجوه المشركين، فما منهم من أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(٣).

ويطلق الرمي على الرمي المعنوي بالقول بالقذف بالزنا وسيئ القول، قال الشاعر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي ... بريئًا ومن أجل الطوي رماني(٤)

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٣٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٨٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٦٧٣، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢٨٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال في «مجمع الزوائد» ٦/ ٤٨: «ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩١٧، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٤، والترمذي في «التفسير» ٣٠٨٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٣.

(٤) هذا البيت للأزرق بن طرفة الباهلي جوابًا لبعض بني قشير، وقد اختصما في بئر، فقال القشيري: أنت

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الإحصان في اللغة: المنع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠]. أي: لتمنعكم، أي: لتمتنعوا بها في القتال من ضرب السيوف والسهام.

ومنه سُمي الحصن حصنًا؛ لأنه يُتحصن فيه ويمتنع من العدو، وسُمي الحصان حصانًا؛ لأن صاحبه يركبه ويمتنع به من العدو كرًّا، وفرًّا.

ويطلق الإحصان في القرآن الكريم على العفة، كما في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

كما يطلق أيضًا على الحرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

كما يطلق الإحصان أيضًا على التزويج، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

والمراد بالمحصنات في قوله هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: العفائف الحرائر[1].

قال ابن كثير[2]: «﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هي الحرة البالغة العفيفة».

والحَصان بالفتح المرأة العفيفة، كما قال حسان- رضي الله عنه- [3] في عائشة- رضي الله عنها- :

حَصَانٌ رزانٌ ما تُزن بريبة ... وتُصبح غَرثى من لحوم الغوافل

لص ابن لص. انظر: «معاني القرآن» للفراء ١/ ٤٥٨.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٦١.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١١.

(٣) انظر: «ديوان حسان» ص٢٢٨. ومعنى «رزان»، أي: أنها رزينة عاقلة قليلة الحركة، ما تُزنُّ: ما تتهم، غَرثى: جائعة. وانظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤] في تفسير سورة النساء.

ومعنى ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا صراحة، فيقولون: فلانة زانية، أو قد زنت، ونحو ذلك، أو بنفي ولدها عن أبيه؛ لأن ذلك يستلزم الزنا.

ولا خلاف في أن المراد في الآية القذف بالزنا. وحذف المتعلق ولم يصرح به لفحشه وقبحه، مع إمكان الاستغناء عنه لدلالة قوله: ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ بعد ذكر الزواني على أن المراد بالمحصنات هنا: العفائف عن الزنا، وأيضًا لدلالة قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لأن هذا العدد لا يشترط إلا في الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡ﴾ [النساء:١٥]، مما يدل على أن المراد بـ«المحصنات» في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ المحصنات من الزنا.

ويؤيد هذا أيضًا قوله بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النور:٦]، فسياق الآية ولحاقها كل ذلك في الزنا وأحكامه.

والرمي بالقول قد لا يقل أثرًا وضررًا عن الرمي الحسي بالنبل والنصال، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم:٢٦].

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ»، وفي رواية: «لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»(١).

وفي حديث بلال بن الحارث المزني بنحوه، وفيه: «فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»(٢).

وقال ﷺ لمعاذ: «كف عليك هذا» وأمسك بلسانه. فقلت يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد- التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣ وصححه الألباني.

«أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[١].

قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان[٢]

وقال الآخر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ

فعثرته بالقول تودي برأسه ... وعثرته بالرِّجْل تبرا على مَهْل[٣]

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران[٤]

وقد ذكر أن ابن مسكويه كان يحدث تلاميذه في الصباح عن عثرة اللسان، وأنها أعظم من عثرة الرجل، وفي المساء دخل على الخليفة، فبينما هو عنده إذ دخل ابنا الخليفة، فقال الخليفة: أيهما أفضل ابني هذين أو الحسن والحسين؟ فقال ابن مسكويه: خادم علي قنبر أفضل من ابنيك. فاستشاط الخليفة غضبًا وأمر جنوده أن يقتلعوا لسانه، ويخرجوه من خلف رأسه[٥].

وسواء كان المقذوف رجلًا أو امرأةً فإن الحكم واحد، وإنما خص بالذكر رمي المحصنات- والله أعلم؛ لأن قذف المرأة أشد ضررًا وأعظم أثرًا من قذف الرجل؛ لما في ذلك من آثار سيئة عليها، وعلى أهل بيتها وعائلتها، بحيث يبتعد الناس عن الزواج منها، ومن أهل بيتها وعائلتها؛ بسبب هذه القالة التي تنتشر انتشار النار في الهشيم، وقد تكون أوهى من بيت العنكبوت.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال: «حديث حسن».

(٢) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «فيض القدير» للمناوي ٦/ ١٣٩، «روح البيان» لأبي الفداء ٩/ ٥٠٦.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٦٠.

(٤) البيتان للشافعي. انظر: «ديوانه» ص١١٦.

(٥) انظر: «النجوم الزاهرة» ٢/ ٢٨٥، «وفيات الأعيان» ٦/ ٤٠٠.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ «ثـم» عاطفـة، والجمـلة معطوفـة عـلى قولـه: ﴿يَرْمُونَ﴾، أي: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ بعد رميهم لهن بالزنا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، أي: بأربعة رجال مكلفين أحرار عدول يشهدون على صحة ما قال أولئك القذفة.

وسُموا شهداء؛ لأنهم يخبرون بما شاهدوه وبما عاينوه؛ ولهذا لا بد أن تكون شهادتهم صريحة بأن يشهد كل منهم أنه رأى ذكر الزاني في فرج الزانية، كما يرى الميل في المكحلة، ولا تقبل في هذا شهادة النساء مطلقًا ولو كان معهن بعض الشهود من الرجال.

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء:١٥]، فأمر عز وجل باستشهاد أربعةً من الرجال بقوله: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ وأكد وجوب كون الشهادة صريحة بقوله بعد ذلك: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾، أي: فإن شهدوا شهادةً صريحة بأنهم رأوا ذكر الرجل في فرج المرأة[1].

كل هذا من أجل الحفاظ على الأعراض وصيانتها وصيانة المجتمع من الأفّاكين المتقولين، بلا علم. وذلك لما يترتب على القذف من آثار سيئة، وأضرار عظيمة على المقذوف، إذ لو تسامح الشرع في هذا الجانب لأطلق أُناس ألسنتهم بأعراض بريئة.

فسدًّا لهذا الباب وإيصادًا له شدَّد الشرع في أمر ثبوت حد الزنا، فجعل من شرط ذلك أن يكون الشهود أربعة من الرجال الأحرار المكلفين، ولم يقبل فيه شهادة النساء مطلقًا، لا وَحدهُنَّ، ولا مع الرجال، واشترط أن تكون الشهادة صريحة واضحة على الوجه المذكور.

فإن شهد كل واحد من هؤلاء الشهود شهادة صريحة على الوجه المذكور ثبت حد الزنا، ووجبت إقامته، وإن نقص عدد الشهود عن الأربعة، أو لم تكن شهادة أحدهم صريحة واضحة لم يثبت حد الزنا وأقيم حد القذف على القذفة.

والواقع أن ثبوت حد الزنا بالبينة، وهم الشهود الأربعة على الصفة المذكورة لا

(١) كما روي في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لماعز بن مالك: «حتى غاب ذلك منك فيها، كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر..» الخ أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨.
وهذا وإن كان في الإقرار، فكذلك ينبغي أن تكون الشهادة أو أصرح منه.

يكاد يقع، وقد ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: «إنه لم يثبت حد الزنا بالبينة منذ عهد الرسالة إلى يومي هذا».

وليس الدين بالرأي، والشرع ليس متعطشًا لإقامة الحد أكثر من تعطشه لصيانة الأعراض وحفظ الأنفس، بل إن مشروعية حد الزنا مقصود منها صيانة الأعراض كمشروعية حد القذف.

﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ خبر المبتدأ «الذين»، وارتبط بالفاء؛ لأن الاسم الموصول فيه معنى الشرط.

والأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاة الأمر ومن يقوم مقامهم، والمعنى: فاضربوهم ثمانين جلدة.

﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الواو: عاطفة في الموضعين، والجملتان معطوفتان على قوله: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ﴾ الواو عاطفة، و«لا» ناهية، أي: ولا تقبلوا لهم بعد قذفهم المحصنات، وعدم إتيانهم بما يثبت صحة وصدق ما قالوه:

﴿شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾، أي: على الدوام؛ في أي وقت من الأوقات، وفي أي حال من الأحوال، وعلى أي أمر من الأمور، ما لم يتوبوا؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الإشارة لمن يرمون المحصنات بالزنا، و«الفاسقون» جمع فاسق، والفسق هو: الخروج عن طاعة الله تعالى، وعن الصلاح إلى الفساد.

ومنه سميت الفأرة فويسقة، وسُميت الفواسق التي تقتل في الحل والحرم[(١)] لخروجها من أماكنها للإفساد. فـ (الفاسقون) الخارجون عن طاعة الله تعالى.

وقد أكد عز وجل الفسق فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

---

(١) كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ أنه قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديّا» أخرجه البخاري في الحج ١٨٢٩، ومسلم في الحج ١١٩٨، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٢٩، والترمذي في الحج ٨٣٧، وابن ماجه في المناسك ٣٠٨٧.

والفسق في الأصل يطلق على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

ويطلق على ما دون الكفر كما في قوله هنا: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وكما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].

ففي هذه الآية أوجب الله عز وجل على القذفة إذا لم يُقيموا بينة على صحة ما قالوه ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد كل منهم ثمانين جلدة. الثاني: أن ترد شهادته دائمًا. الثالث: أن يعد فاسقًا، وليس بعدل، لا عند الله، ولا عند الناس. وهم كاذبون وإن كان خبرهم مطابقًا للواقع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[النور:١٣].

ويفهم من قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أن القاذف إذا أتى بأربعة شهداء، وشهدوا شهادة صريحة على صحة وصدق ما قال فإنه لا يجلد، ولا ترد شهادته، ولا يعد فاسقًا، ويثبت بذلك حد الزنا على المشهود عليه بذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾.

«إلا» أداة استثناء، والتوبة: الرجوع والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه، أي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة ومن المخالفة إلى الموافقة والمتابعة.

فمعنى ﴿تَابُوا﴾، أي: رجعوا وأنابوا إلى الله عز وجل من فعل هذه المعصية، وهي قذف المحصنات بالزنا.

﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: من بعد ما حصل منهم قذفهن، وذلك: بالإقلاع عن هذه المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون التوبة خالصة لوجه الله عز وجل، لا رياء ولا سمعة، ولا خوفًا من مخلوق، وأن تكون في وقتها المناسب: قبل حضور الموت وبلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨]، وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[١]. وقبل طلوع الشمس من مغربها لقوله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢].

وبما أن من شروط التوبة- بل من أهمها- : الإقلاع عن المعصية، فإن على القاذف أن يتوب علانيةً كما قذف علانيةً، وذلك بأن يُكذِّب نفسه ويُبرئ المقذوف[٣]؛ لأن القذف حق للمقذوف، ومن صدق الإقلاع عن المعصية أن يرد إلى المقذوف حقه وذلك بتبرئته مما قذفه فيه، فلا يُعد القاذف مقلعًا عن المعصية مادام حق المقذوف باقيًا عنده، فإن حقيقة الإقلاع عن المعصية إذا كانت تتعلق بالآدميين، من اعتداء على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم أن يردَّ تلك الحقوق إليهم ما أمكنه ذلك.

فمن شرط صحة الإقلاع عن المعصية أن يُسلِّم القاتل نفسه للقصاص، ويرد من أخذ أموال الناس أموالهم إليهم، ويستحلهم من اعتدى على أعراضهم ويؤدي حقوقهم بأي طريقٍ أمكنه ذلك.

قال ابن القيم في الكلام على قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣]: «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري، فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه»[٤].

﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم بترك هذه المعصية والبعد عنها، وصلاح العمل بالإخلاص فيه لله عز وجل، وكونه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وليس من شرط قبول التوبة من ذنب إصلاح العمل مطلقًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣ وأحمد ٢/ ١٣٢، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٢٤٤٩، والحاكم ٢/ ٢٤٩ من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في تخريج المسند ٦١٦٠، والألباني في «صحيح الجامع الصغير» ١/ ٣٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٥٠.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٦.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم مطلقًا، وهذا شرط لقبول التوبة. والصحيح الأول.

والاستثناء يعود إلى الجملتين السابقتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾، و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ وذلك أن التوبة تمحو وتجب وتهدم ما كان قبلها.

قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، وقال عمر لأبي بكرة- رضي الله عنهما- لما شهد مع الذين شهدوا على المغيرة: «إن تبت قبلت شهادتك، أو تب تقبل شهادتك»[2].

وقيل: إن الاستثناء في الآية يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فالتوبة ترفع الفسق فقط. والصحيح القول الأول.

إذ لا شك أن عدم قبول شهادة القاذف بعد توبته فيه شيء من العقوبة له، وهذا يتنافى مع ما تقتضيه الأدلة الواردة في تكفير التوبة ما قبلها، وقبول شهادة التائب حتى من تاب من الكفر، بل تبديل سيئات التائب حسنات كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

ويدل على هذا أيضًا قوله في ختام الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن من مقتضى مغفرته ورحمته أن يتوب على من تاب إليه، وألا يبقى عليه تبعة في شيء بعد توبته.

وإلى هذا القول ذهب جمهور أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: «دلَّت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة، كما هو مذهب الجمهور، فإن من جملتهم مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وغيرهم، ومعلوم أنه لم يرد النبي ﷺ ولا المسلمون بعده شهادة أحد منهم؛ لأنهم كلهم تابوا، لما نزل القرآن ببراءتها، ومن لم يتب فإنه كافر مكذب للقرآن، وهؤلاء

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٥٠- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ١٦٩، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٦٣، والبيهقي في سننه ١٠/ ١٥٢

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٥.

ما زالوا مسلمين، وقد نهى الله عن قطع صلتهم... وشهادة غيرهم ممن شهدوا على غير عائشة أولى بالقبول إذا تابوا».

أما حد القذف فلا يسقط بالتوبة؛ لأنه حق للمقذوف، فإن عفا عنه سقط وإلا تلزم إقامته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل رد شهادة القذفة وفسقهم، إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد ذلك ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل بمغفرته ورحمته شرع لهم التوبة، ويقبلها منهم.

وهذا يؤيد القول بأن الاستثناء راجع إلى الجملتين، فإن من مغفرة الله عز وجل ورحمته الواسعتين: أن لا ترد شهادة من تاب من القذف وأصلح عمله وحاله، وأن لا يوصف بالفسق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، «غفور» على وزن «فعول»، صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

والمغفرة معناها: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه[1] ويستره، فيقول: «أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟»فيقول: نعم، أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فيعطى كتاب حسناته»[2].

ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستر الرأس وتقيه السهام.

---

(١) كنفه: سَتْره ورحمته. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «كنف».

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، وفي «التفسير» ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

﴿رَّحِيمٌ﴾، على وزن «فعيل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧].

ورحمة الله تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

ورحمته الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين: رحمة عامة لجميع المخلوقات، الإنس والجن، والبر والفاجر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة: فرحمته لهم في الدنيا: ما يتمتعون فيه من نعم الله عز وجل، ورحمته لهم في الآخرة: العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء- كما جاء في الحديث(١).

ومما يدل على أن اسمه عز وجل «الرحيم» يدل على الرحمة العامة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، و[الحج:٦٥]. والقسم الثاني من أقسام الرحمة الفعلية: الرحمة الخاصة بالمؤمنين، بهدايتهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم جنات النعيم. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- عموم حكم القذف لكل من وقع منه ذلك من ذكر أو أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾، وهو اسم موصول يفيد العموم لكن غلب فيه الذكور على الإناث. لكن إن كان القاذف مملوكًا فعليه نصف حد الحر، لقوله عز وجل في حد الإماء في الزنا: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥].

وقَاسَ أهل العلم حكم القذف على حكم الزنا بالتنصيف، كما قاسوا حكم العبد على الأَمة، وقيل: عليه حد الحر ثمانون جلدة(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية ٢٥.

٢- أن الرمي كما يطلق على الرمي الحسي يطلق على الرمي والقذف المعنوي بالقول ونحوه، بل إن الرمي بالقول قد يكون أشد خطرًا وأعظم جرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾.

٣- من شرط إقامة حد القذف وإجراء الأحكام المذكورة في الآية على القاذف: كون المقذوف مسلمًا بالغًا عاقلًا حرًّا عفيفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي: الحرائر العفيفات.

واختلفوا فيمن قذف مملوكًا: فذهب جمهور أهل العلم إلى أن من قذف مملوكًا لا يقام عليه حد القذف في الدنيا وإنما يعزر فقط، بل حكي الإجماع على هذا[(١)].

لما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من قذف مملوكًا له بالزنا أُقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»[(٢)].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالمحصنات في الآية العفائف خاصةً، فمن قذف عفيفة سواء كانت حرة أو أَمة فعليه حد القذف مستدلين بعموم الآية، وعموم قوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[(٣)].

قالوا: وأما حديث أبي هريرة: «من قذف مملوكًا له بالزنا» فهذا خاص بالسيد إذا قذف مملوكه فلا يقام عليه الحد في الدنيا للحديث. كما لا يقام حد القذف على الوالد إذا قذف ولده. أما من قذف مملوك غيره فعليه الحد.

أما إن كان المقذوف صغيرًا دون البلوغ، أو كان ذميًّا فعلى قاذفه التأديب والتعزير عند أكثر أهل العلم، وقيل: عليه الحد[(٤)].

٤- أن رمي المحصنات من النساء أعظم وأشد ضررًا من رمي المحصنين من الرجال، ولهذا خصَّه بالذكر، مع أن الحكم واحد في رمي الذكور والإناث.

---

(١) انظر: «الإجماع» لابن المنذر ١٢/ ٧٠، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٤- ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود- قذف العبيد ٦٨٥٨، ومسلم في الإيمان- التغليظ فيمن قذف مملوكه بالزنا ١٦٦٠، وأبو داود في الأدب ٥١٦٥، والترمذي في البِر والصِّلة ١٩٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٣٣- ١٣٣٤، «المغني» ١٢/ ٣٩٩، «أضواء البيان» ٦/ ٩٣- ٩٤، ٩٩- ١٠٠، ١١٤.

٥- بلاغة القرآن الكريم في تخصيصه المحصنات بالذكر هنا دون المحصنين؛ لعظم ضرر قذف المحصنات، وقد كان الغالب في التعبير القرآني الاكتفاء بذكر الذكور وتغليبهم على الإناث، وقد جاء العكس في هذه الآية للحكمة المذكورة ونحوها.

٦- أنه لا بد لتبرئة القذفة من الحد والأحكام المذكورة في الآية، وإثبات الزنا على المقذوف من أربعة شهود من الرجال العدول الأحرار البالغين؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فمفهوم هذا أنهم إذا أتوا بالشهود انتفت عنهم هذه الأحكام كلها.

ولا تقبل شهادة غير العدول في تبرئة القاذف؛ لأن قبول شهادتهم قذف للمشهود عليه ورمي له بالزنا حتى ولو لم نثبت حكم الزنا عليه بشهادتهم. فإن المفسدة المترتبة على قبول شهادتهم أعظم من المصلحة.

قال ابن تيمية[1]: «وأمَّا من قال الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]».

٧- ينبغي أن لا يشهد الإنسان على أحدٍ بالزنا صراحة ما لم يكن معه ما يكمل أربعة شهود على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. ولقوله ﷺ لعويمر العجلاني: «البينةُ أو حدّ في ظهرك»[2].

وقد اختلف العلماء فيما إذا كان الشهود دون الأربعة، أو أربعة لكن اختلفت شهادتهم هل يقام عليهم حد القذف أولا[3]؟ فمن قال: لا يقام عليهم الحد، قال: لأنهم شهود طُلبوا لأداء الشهادة بما رأوا فما ذنبهم.

ومن قال: يقام عليهم الحد اعتبرهم قَذَفة. واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. وبقوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

وبقوله ﷺ لعويمر العجلاني لما قذف امرأته: «البينةُ أو حدّ في ظهرك».

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٣- ٤٢٤.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٧.

وبما رواه سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ضرب أبا بكرة، وشبل بن معبد، ونافع بن الحارث بن كلدة حدَّهم، وقال لهم: من أَكْذَبَ نفسه أجزتُ شهادته فيما يستقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته، فأكذبَ شبل نفسه، ونافع، وأبى أبو بكرة أن يفعل»(١).

واختار بعض أهل العلم كالشنقيطي(٢) وغيره القول بإقامة حد القذف عليهم، وهو ظاهر النصوص، وهو الأحوط والأسلم للأعراض.

واختار بعضهم كالمودودي القول: بأنه لا حدّ عليهم(٣).

٨- احتياط الشرع المطهر للأعراض وحرصه على حفظها وصيانتها؛ فإن إتيان القاذف بأربعة شهداء يشهدون شهادة صريحة على الزنا أمر في غاية الصعوبة والتعذر. ولهذا فإن المخرج من هذا بإمساك اللسان عن الخوض في أعراض المسلمين، ولو تسامح الشرع في هذا لأطلق أُناس ألسنتهم بأعراض بريئة كذبًا وزورًا وبهتانًا، ولأصبح كثير من البيوت مهجورة لا يتزوج منها بسبب ذلك، ولكن الشرع المطهر الحكيم أوصد الباب وسدَّ الطريق أمام هؤلاء الأفاكين ومروجي الإشاعات. فسبحان الحكيم العليم.

٩- وجوب جلد القاذف ثمانين جلدة، ورد شهادته، والحكم بفسقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وفي هذا جمع للقاذف بين العقوبة الحسية بالجلد، والعقوبة المعنوية برد شهادته وتفسيقه. والعقوبة المعنوية أشد عليه من العقوبة الحسية، وذلك تنكيلًا له وردعًا لغيره، فإن اللسان عدو الإنسان.

هذا إذا كان القذف بالزنا صريحًا- كما سبق بيانه، فإن كان ذلك كنايةً أو تعريضًا، فهذا لا يوجب الحد بل على القاذف التعزير فقط، ما لم تدل القرائن على أن مراد القاذف الزنا، وذلك لأن الحدود تدرأ بالشبهات وقدر المستطاع، لما رُويَ في

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٥٢، وفي «المصنف» الأثران ١٣٥٦٤، ١٣٥٦٥، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٦٣.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ١٤، ١٥، ١٠٣.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص٦١، ٦٢.

الحديث: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»[1].

ولا يجوز أن تعطى الكناية والتعريض حكم التصريح، وقد فرَّق القرآن بينهما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٥].

فأباح عز وجل التعريض، ونهى عن التصريح فدلَّ هذا على افتراقهما[2].

١٠- ينبغي أن يكون الجلد مؤلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ والجلد ضرب الجلد بما يؤلم ولا يشق الجلد، ولا يبضع اللحم، ولا يكسر العظم، ويكون ضربًا بين الضربيْن، ليس بالشديد، ولا بالخفيف، ويكون بسوط وسطًا بين السوطين، ليس بالشديد ولا باللين.

١١- في جلد القذفة ثمانين جلدة، وتأبيد عدم قبول شهادتهم ووصفهم بالفسق بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مع ما في هذه الجملة من المؤكدات دلالة على عظم جرم القذف وشناعته وأثره السيئ على القاذف وعلى المقذوف والمجتمع الإسلامي.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فحيث شهد القاذف بالزنا، وهو كاذب جعل الشرع من ضمن عقوبته رد شهادته، ووصفه بالفسق.

١٣- فضل الله عز وجل ورحمته الواسعة ومغفرته حيث استثنى التائبين من القذف، وجعل لهم ولجميع المذنبين متسعًا للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

١٤- أن من تاب من القذفة فإن شهادتهم تقبل، وينتفي عنهم وصف الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

وهذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٣، «أضواء البيان» ٦/ ٩٤- ٩٩.

وقد قيل: إنه يرجع للجملة الأخيرة فقط وهي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وعلى هذا فالتوبة لا تسقط إلا وصفهم بالفسق. والصحيح الأول.

ومن توبة القاذف أن يُكذِّب نفسه، ويتحلل من المقذوف ما أمكن.

وقيل: لا يلزم أن يُكذِّب نفسه بل يكفي أن يندم ويصلح حاله، والصحيح الأول[(١)].

فإن كانت توبته قبل إقامة حد القذف عليه، وعفا عنه المقذوف سقط عنه الحد وقُبلت شهادته، وانتفى وصف الفسق عنه؛ لأن حد القذف حق للمقذوف فإذا عفا عنه سقط.

وقد قيل: إن حد القذف حق لله تجب إقامته مطلقًا، حتى ولو عفا المقذوف، قالوا: لأن الله لم يذكر سقوطه بالعفو، كما قال تعالى في القتل العمد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: آية ١٧٨]، وقال في القتل الخطأ: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: آية ٩٢].

والأظهر أن حد القذف حق للمقذوف، أو منه ما هو لله، ومنه ما هو للمقذوف[(٢)]، وأنه يسقط بعفو المقذوف عنه، فإن كان قبل الرفع إلى الإمام فلا إشكال؛ لقوله ﷺ: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب»[(٣)].

وإن كان بعد الرفع إلى الإمام، فالأظهر أنه يسقط، كما يسقط حد القصاص بالعفو، ولو بعد الرفع إلى الإمام.

١٥- أن من شرط التوبة من القذف أن تكون التوبة صادقة تتوفر فيها شروط التوبة، وأن يصلح القاذف حاله وعمله وبخاصة ما يتعلق بما وقع فيه من القذف.

١٦- أن من شرط إقامة حدّ القذف والحكم على القاذف بما ذكر في الآية أن يكون القاذف مكلفًا، أي: بالغًا عاقلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ لأن القذف من الحدود، والحدود إنما تقام على المكلفين، وأيضًا فإن

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٤- ١٧٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢/ ١٧٧، ١٩٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦- من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

الشهادة إنما تعتبر بالنسبة للمكلفين، وكذلك الوصف بالفسق، وقد قال ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق»[1].

١٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

١٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ رحمةً ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمةً فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمةً عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٩- في ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. إشارةٌ إلى أَنَّ من مغفرته عز وجل ورحمته أن وفَّقَ من شاء من القذفة وغيرهم إلى التوبة وقبلها منهم.

كما أن في ختمها بذلك توجيهًا للمؤمنين بإسقاط الأحكام المذكورة في الآية عمَّن تاب من القذف، بل إن فيها ما يُشير إلى ترك اللوم لهم والتثريب عليهم، أي: فإن الله سيغفر لهم ويرحمهم، فلا تتبعوهم بشيء.

فالله عز وجل أَغْير على حرماته، وقد فتح للقذفة وغيرهم باب التوبة، بل فتح باب التوبة لمن ارتكب أعظم الذنوب وهو الشرك بالله، وبمغفرته ورحمته وفَّقَ من شاء من القذفة وغيرهم للتوبة وقبلها منهم، بل إنه يُبدل سيئات التائبين حسنات بفضله وكرمه. وعلى هذا فليس من الغيرة الشرعية، ولا من الحق والعدل أن يُلْحق التائب من القذف أو غيره بأي لومٍ أو تثريبٍ.

٢٠- فضل الله عز وجل على عباده حيث شرع لهم التوبة من القذف وغيره من الذنوب، ولو كان أعظم الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث علي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني، وقد روي من حديث عائشة- رضي الله عنها- وغيرها. انظر: «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٨٧.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيتين السابقتين حد القذف إذا لم يأتِ القذفة بأربعة شهداء، يشهدون على صحة ما قالوا، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا كان القذفة هم الأزواج، ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحة ما قالوا، فإنه يجري بينهما حكم اللعان، كما دلَّت عليه هذه الآية، وذلك أن الزوج لا يرمي زوجته غالبًا- إلا إذا كان صادقًا؛ لأن زناها فيه ضرر له وعار عليه، والإنسان لا يذكر عيبًا يعود عليه.

قال ابن كثير[1]: «هذه الآية فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسّر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل».

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ﴾ قال سعد بن عبادة- وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيّدكم»؟ قالوا: يا رسول الله، لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله! ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأةً له قط، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غَيْرَته. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعًا[2] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أُحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله! لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية- وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم[3]، فجاء من أرضه عشاء، فوجد

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

(٢) اللكاع: الحمقاء.

(٣) أي: الثلاثة الذين خلفوا، وهم: هلال بن أمية العمري، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع. وقد

عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعينيَّ وسمعت بأذنيَّ، فكَرِهَ رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة[1]. الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويُبطل شهادته في الناس. فقال هلال: والله، إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا، وقال هلال: يا رسول الله، إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئتُ به، والله يعلم إني لصادق. فوالله، إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي- وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّد وجهه[2]؛ يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي- فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ الآية. فسُري عن رسول الله ﷺ، فقال: «أبشر يا هلال، قد جعل الله لكَ فرجًا ومخرجًا». فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ، وذكَّرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله! يا رسول الله، لقد صدقتُ عليها. فقالت: كذبتَ. فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما» فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتقِ الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه المُوجِبة التي تُوجِب عليكَ العذاب. فقال: والله، لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه المُوجِبة التي تُوجِب عليكِ العذاب، فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله، لا أفضحُ قومي.

ذكر الله قصتهم في سورة التوبة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [الآية:١١٨].

(١) وفي هذا إشارة إلى أن البلاء موكل بالمنطق- كما قيل:

احذر لسانك أن تقول فتبتلي إن البلاء موكل بالمنطق

نسب هذا البيت في «العقد الفريد» ٣/ ١٦، لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أي: تغيّر لون وجهه إلى الربدة، وهي لون بين السواد والغبرة.

فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى بأن لا يُدعى ولدها لأب، ولا يُرمى ولدها، ومن رَماها أو رَمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق، ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أُصَيْهب أُرَيسح حَمْش الساقين[١] فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعدًا جُماليًّا، خَدَلَّج الساقين، سابغ الأليتين[٢]، فهو للذي رُميت به»، فجاءت به أورق جعدًا جُماليًّا خَدَلّج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن» قال: عِكرمة- وهو راوي الحديث عن ابن عباس: فكان بعد ذلك أميرًا على مصر، وكان يُدعى لأمه ولا يُدعى لأب»[٣].

وفي روايةٍ[٤] عن ابن عباس- رضي الله عنهما- : «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك! إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليها فجاء هلال، فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها مُوجِبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع،

---

(١) الأصيهب: هو الذي تعلو لونه صهبة، وهي كالشقرة، والأريسح: هو الذي لا عجز له، وحمش الساقين: أي دقيق الساقين.

(٢) الأورق: الأسمر، وجعدًا: أي جعد الشعر، وهو ضد السبط المسترسل، وجُماليًّا: بضم الجيم، وتشديد الياء: هو الضخم الأعضاء، التام الأوصال، وخَدَلَّج الساقين: أي: عظيم الساقين، وسابغ الأليتين، أي: عظيم الأليتين.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٨- ٢٣٩.

(٤) أخرجها البخاري في «تفسير سورة النور» ٤٧٤٧، وفي الشهادات ٢٦٧١، وأبو داود في الطلاق- باب اللعان ٢٢٥٤، ٢٢٥٦، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٩، وابن ماجه ٢٠٦٧.

كما أخرجه مسلم مختصرًا من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- في اللعان- ١٤٩٦، ومن حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- ١٤٩٥، وكذا الإمام أحمد ١/ ٤٢١- ٤٢٢.

ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن عويمرًا العجلاني أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجلٍ وجد مع امرأته رجلًا، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سَلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكرِه رسول الله ﷺ المسائل فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كَرِهَ المسائل وعابها. فقال عويمر: والله! لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر، فقال: يا رسول الله، رجلٌ وَجدَ مع امرأته رجلًا أيقتله، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيكَ وفي صاحبتِكَ»، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله، إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها، فكانت سُنَّة لمن كان بعدهما في المتلاعنيْن، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين[١]، عظيم الأليتين، خدلج الساقين، فلا أحسب عويمرًا إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة[٢]، فلا أحسب عويمرًا إلا قد كَذَبَ عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ذلك ينسب إلى أمه»[٣].

وفي حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «ثم فرَّق النبي ﷺ بين أخوي بني العجلان، وقال: «الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب» ثلاث مرات»[٤].

وقد اختلف أهل العلم هل ما ورد في هذه الروايات قصتان أو قصة واحدة، فمن

---

(١) أسحم: أسود. أدعج العينين: شديد سواد العينين، واسعهما. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادتي «سحم»، «دعج».

(٢) الوَحَرة: دويبة تلزق بالأرض. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «وحر».

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤٥، ومسلم في اللعان ١٤٩٢، وأبو داود في الطلاق ٣٤٠٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٦، وأحمد ٥/ ٣٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الطلاق- قول الإمام للمتلاعنَيْن: «إن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ٥٣١٢، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، وأحمد ١٩١٢.

أهل العلم من قال: هما قصتان، ومنهم من قال: هي قصة واحدة، ولا يترتب على هذا إشكال؛ لأن القصة ثابتة وصحيحة، فهذا الحكم وهو اللعان دلَّ عليه الكتاب والسنَّة، وأجمعت عليه الأُمة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الواو: استئنافية، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يفيد العموم لكلِّ مَن رمى زوجته من حرٍّ وعبدٍ.

ومعنى ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، أي: يقذفون زوجاتهم بالزنا، كأن يقول: يا زانية، أو رأيتكِ تزنين، ونحو ذلك.[1] والأزواج: جمع زوج، ويُطلق الزوج في القرآن الكريم على المرأة، كما يطلق على الرجل؛ قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء:١٢].

ويطلق على المرأة زوجة في لغة بني تميم؛ وهي دون الفصحى وقد جاء هذا في بعض الأحاديث. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «ولكل امرئ منهم زوجتان»[2].

قال الفرزدق[3]:

وإن الذي يمشي يحرش زوجتي ... كساعٍ إلى أسد الشرى يستبيلها

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم لم يكن لهم شهداء يشهدون على زناهن، ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾، «إلا» للاستثناء، و«أنفسهم»: بدل من «شهداء»، أي: ليس لديهم من يشهد إلا أنفسهم، ولم يقل هنا: «ولم يأتوا بالشهداء» أو «ولم يأتوا بأربعة شهداء» بل قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ إشارة إلى أن المتوقع غالبًا أن لا يكون لدى الزوج شهداء.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٦، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٨، ٢٩٠- ٢٩١، ٢٩٥، «المغني» ١١/ ١٢٢، ١٣٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٦٠٥.

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ خبر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء لشبه الموصول بالشرط من حيث العموم والإبهام.

﴿أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف، وحفص عن عاصم بالرفع في قوله: «أَرْبَعُ» فتكون خبرَ قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾، وقرأ الباقون بنصبها، فتكون مفعولًا مطلقًا لشهادة(١).

أي: فشهادة أحدهم التي يسقط بها عنه الحد، أو فالحكم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، أي: بأن يشهد أربع مرات فيقول:

أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي من الزنا، أو أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به ونحو ذلك، ويكرر ذلك أربع مرات.

والصدق: مطابقة الخبر للواقع، وضده الكذب.

قال ابن كثير(٢): «وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدَّعي عليها بما رماها به، فيُحَلِّفه الحاكم أربع شهادات مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فيما رماها به من الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾، أي: والشهادة الخامسة.

﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ قرأ نافع المدني، ويعقوب بتخفيف «أن» ورفع ما بعدها: «أنْ لعنتُ الله»، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب ما بعدها: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾(٣).

أي: والشهادة الخَامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فيقول: أشهد بالله أن لعنة الله عليَّ إن كنتُ من الكاذبين، أو إن كنت كاذبًا فيما رميت به زوجتي من الزنا.

واللعنة من الله: الإبعاد والطرد عن رحمته، واللعن من المخلوق، معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

---

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» ٢/ ٥٠٩، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

(٣) انظر: «الغاية» ٣٣٧- ٣٣٨، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

واختلف أهل العلم هل ألفاظ اللعان شهادات، أو أيمان؟ والراجح أنها أيمان أكدت بلفظ الشهادة؛ لقوله ﷺ في امرأة هلال: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»[1].

وإذا شهد أربع مرات أنه من الصادقين فيما رماها به من الزنا، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في ذلك برئ من حد القذف، وثبت عليها حد الزنا، وبانت منه بنفس هذا اللعان وحُرِّمَت عليه أبدًا.

قال ابن كثير[2]: «فإذا قال ذلك بانت منه بنفس اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا﴾، أي: ويدفع عنها، ﴿الْعَذَابَ﴾ العقوبة بحد الزنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥].

﴿أَن تَشْهَدَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: ويدفع عنها العذاب شهادتها أربع شهادات بالله إنه- يعني زوجها- لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فتقول: أشهد بالله إن زوجي كاذب فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك. وتكرر ذلك أربع مرات.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قرأ عاصم بنصب: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾؛ فتكون معطوفة على قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾.

وقرأ الباقون بضمها: «والخامسةُ»؛ فتكون مبتدأ، وخبرُها ما بعدها.

وقرأ يعقوب: «أَنْ غَضَبُ»؛ بتخفيف «أَنْ» ورفع ما بعدها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٨. «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٧، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٢٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ١٨٦- ١٨٧ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٢، «أضواء البيان» ٦/ ١٣٤- ١٣٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

وقرأ نافع أيضًا بتخفيف «أنْ» وكسر الضاد وفتح الباء: «غَضِبَ» ورفع لفظ الجلالة على أنّ «غَضِبَ» فعل ماضٍ.

وقرأ الباقون بتشديد «أنَّ» ونصب ما بعدها: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾[1].

﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: والشهادة الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به، فتقول: أشهد بالله أن غضب الله عليَّ إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك.

والغضب أشد من اللعنة؛ لأنه سبب للانتقام، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥].

وإنما جعل الغضب- وهو الأشد- في حق المرأة؛ لأن الزوج- غالبًا- أقرب إلى الصدق، ويبعد أن يرمي زوجته بالزنا إلا إذا تيقن ذلك؛ لأنه يتضرر بذلك، ولأنه إذا كان الزوج صادقًا والمرأة تنكر، صارت ترد الحق مع علمها به، ومن رد الحق مع علمه به فجزاؤه الغضب، كحال اليهود.

قال ابن كثير[2]: «فخصَّها بالغضب، كما أنَّ الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه».

فإن نكلت الزوجة، ولم تلاعن ثبت عليها الحد، لمفهوم قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ الآية. فمفهومه أنها إذا لم تشهد ثبت عليها العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي شرطية غير عاملة، وجوابها محذوف للتفخيم والتهويل، ليذهب العقل في تصوره كل مذهب، أي: ولولا فضل الله عليكم وإحسانه إليكم ورحمته بكم لكان كذا وكذا، ولحرجتم، ولما قَبِل منكم هذه الأيمان، ولعاقبكم، ولما صلح أمر دينكم

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ٣٣٧- ٣٣٨، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

ودنياكم ونحو ذلك.

والفضل: الزيادة والإحسان.

ورحمة الله قسمان: رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة هي صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، وهي أثر من آثار رحمته الثابتة، ومن آثارها الإحسان، وليست هي الإحسان كما يقول بعض أهل التحريف.

قال السعدي[1]: «وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأنْ بين لكم شدة الزنا وفظاعته، وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ «توّاب»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على أن من صفته عز وجل التوبة الواسعة الكثيرة على عباده. يتوب على الكثيرين منهم، ويتوب عليهم مرات كثيرة.

وتوبته عز وجل على عباده تنقسم إلى قسمين: توفيقهم للتوبة، كما قال عز وجل في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨]؛ أي: ثم وفَّقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

﴿حَكِيمٌ﴾ صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدلُّ على أنه عز وجل ذو الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو عز وجل حاكم له الحاكمية ومحكم متقن في خلقه وشرعه وأمره ونهيه، يضع الأمور في مواضعها.

ومن توبته عز وجل الواسعة على عباده، وحكمه التام وحكمته البالغة حرَّم الزنا ومناكحة الزناة، وشرعَ حد الزنا وحد القذف، وحكم اللعان تطهيرًا للنفوس، وصيانةً

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٤.

للأعراض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الزوج إذا قذف زوجته وأتى بأربعة شهود من الرجال العدول المكلفين الأحرار، يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قال ارتفع عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على زوجته كمن رَمى غير زوجته، ولا لعان عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾.

وقيل: لا بد من اللعان لرفع الفراش ونفي الولد.

والأظهر أنه لا يلاعن ولا ينفي الولد؛ لأن الولد للفراش[1]، لحديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[2].

٢- في مشروعية اللعان بين الزوجين- إذا قذف الرجل زوجته- فرج ومخرج له، إذ من الصعب جدًّا والمتعسر أن يكون لدى الزوج شهود في تلك الحال؛ ولهذا لم يقل الله عز وجل: (ولم يأتوا بأربعة شهداء) بل قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، أي: كما هو المتوقع غالبًا. ولهذا قال هلال بن أمية: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ ورسول الله ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. وفي بعض الروايات: والله، إني لأرجو الله أن يجعل لي منها مخرجًا، فأنزل الله هذه الآيات».

وفي حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أن الرجل قال: يا رسول الله، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلًا فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح. قال: فأنزلت آية اللعان»[3]. فحصل بذلك الفرج والمخرج للزوج، وهذا من تيسير الله عز وجل في هذه الشريعة المطهرة، فكلما اشتد الأمر جاء

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٠- ٢٩٢، «المغني» ١١/ ١٤١، ١٨١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥- ٣٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٣، ومسلم في الرضاع ١٤٥٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨٤، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٥، وأبو داود في الطلاق ٢٢٥٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٨.

اليسر من الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]. وفي الأثر: «لن يغلب عسر يسرين»(١).

ولهذا شرع الله الرخص لأهل الأعذار، ومن قواعد الشريعة: أن المشقة تجلب التيسير- فلله الحمد والمنة.

٣- في نقل الزوج الذي قذف زوجته إذا لم يكن لديه شهود إلى الشهادة بنفسه وحكم اللعان بخلاف غيره من القذفة إشارةٌ إلى أنَّ الزوج في الغالب لا يقدم على قذف زوجته وفضيحتها إلا إذا كان صادقًا؛ ولهذا فرَّق الله عز وجل في الحكم بين من قذف زوجته، ومن قذف غير زوجته، فخفف على الأول دون الثاني. وخاصة أن الزوج قد يجب عليه قذف زوجته وملاعنتها إذا وُجد ولدٌ من هذا الزنا، كأن يراها تزني في طهر لم يجامعها فيه، ثم تلد لستة أشهر فأكثر، أو يكون غائبًا عنها مدة طويلة، وهي حامل فتلد، ثم تحمل في حال غيبته وتلد، فهذا الولد قطعًا ليس منه فيجب عليه القذف واللعان. أما في حال عدم وجود ولد فالأولى الستر عليها وعدم القذف واللعان. هذا إذا رآها تزني. أما إذا لم يتحقق، فيحرم عليه(٢).

٤- إذا رمى الرجل زوجته بالزنا ولم يكن له شاهد إلا نفسه، فإنه يجري بينهما حكم اللعان وهو أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به، أو في أن زوجته قد زنت. وهذه الشهادات الأربع بدل من الشهود الأربعة، ثم يقول في الخامسة: إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. وبهذا يرتفع عنه حد القذف، فإن وجد ولد، ينتفي عنه الولد الذي وجد من هذا الزنا، فلا ينسب إليه ولا تلزمه نفقته ولا يتوارثان.

ويدفع عنها العذاب أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا. مقابل شهاداته، ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ

---

(١) رُوي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي ١/ ٢٩٦.

(٢) انظر: «المغني» ١١/ ١٥٦- ١٦٠.

ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وهكذا جاء في سبب نزول الآية. ويجب البداءة بالرجل في اللعان وترتيب ألفاظه كما ذكر الله عز وجل [١].

وإذا تم اللعان بين الزوجين فُرِّق بينهما فرقةً أبدية، وأُلحق الولد بأمه، لما جاء في حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «حضرت عند رسول الله ﷺ، فمضت السُّنَّة في المتلاعنين أن يفرّق بينهما ولا يجتمعان أبدًا». [٢]

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- : «أن رجلًا لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما وألحق الولد بأمه» [٣].

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الحكم يجري بين الزوجين الحرين فقط، أو بين الأحرار والمماليك لعموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، كما اختلفوا هل تحصل الفرقة بلعان الزوج وحده دون لعان الزوجة، أو لابد من لعانهما معًا؟ وهل تحصل الفرقة بينهما بمجرد اللعان أو بتفريق الحاكم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [٤]: «وقد مضت سنَّة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين، سواء حصلت الفرقة بتلاعنهما، أو احتاجت إلى تفريق الحاكم، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج؛ لأن أحدهما ملعون، أو خبيث، فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب». وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن امرأة لعنت ناقة لها، فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت، وقال: «لا تصاحبنا ناقة ملعونة» [٥].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١- ١٩٢، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥- ٣٩١، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق- باب في اللعان ٢٢٤٨ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٧٤٨، وفي الطلاق ٥٣٠٦، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، ١٤٩٤، وأبوداود في الطلاق ٢٢٥٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٧، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٩.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧.

(٥) أخرجه مسلم في الصِّلة والبِر والآداب ٢٥٩٥، وأحمد ٤/ ٤٢٠.

وإذا حصل اللعان بين الزوجين فإنهما لا يُعاقبان، ولا يجوز قذف الملاعنة بالزنا، ولا يقال لولدها: ولد زنا، ومن قذفها بالزنا أقيم عليه الحد؛ لأنه لم يثبت زناها، وإنما انتفى نسب الولد عن الزوج بلعانه، ولا يسقط صداقها، ولا نفقة لها عليه[(١)].

٥- أن الزوج إذا قذف زوجته لا مخرج له من إقامة حد القذف عليه إلا باللعان، فإن نكل عن اللعان وجب إقامة حد القذف عليه وعلى هذا جمهور العلماء. وعليه يدل قوله ﷺ لهلال ابن أمية: «البينة أو حدّ في ظهرك» وقوله له: «اتقِ الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وقوله تعالى في آية القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤].
وقيل: يحبس حتى يلاعن أو يُكذِّب نفسه فيقام عليه حد القذف[(٢)].

٦- إذا لاعن الزوج ثبت على الزوجة حد الزنا، فإذا لاعنت اندفع عنها الحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ الآية.

٧- مفهوم قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ الآية. أن الزوج إذا لاعن زوجته ونكلت هي عن اللعان أن عليها العذاب، وعلى هذا يدل قوله ﷺ لزوجة هلال: «اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».
وبناءً على هذا ذهب جمهور العلماء إلى أن الزوجة إذا نكلت وجب إقامة حد الزنا عليها. وهذا هو الراجح، وقيل: تحبس حتى تلاعن أو تعترف بالزنا[(٣)].

٨- أن الشهادات تطلق على الأيمان لتوكيدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: يمين أحدهم بالله، ولهذا قال ﷺ لما جاء الولد يشبه المقذوف: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن». كما قال تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣٠٣، ٣٠٤، «المغني» ١١/ ١٤٤- ١٤٧، ١٥٢- ١٥٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٦، «أضواء البيان» ٦/ ١٥٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣.
(٢) انظر: «المغني» ١١/ ١٣٦- ١٣٧.
(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٨٧- ١٨٨، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٦، «المغني» ١١/ ١٨٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١، «زاد المعاد» ٥/ ٣٦٥- ٣٧٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣، «أضواء البيان» ٦/ ١٣٢- ١٣٣.

﴿أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٧ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة:١٠٧، ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١، ٢].

٩- أن الزوج بحكم المدعي، عليه الإتيان بالبينة: أربعة شهود، فلو أتى بثلاثة شهود، مع شهادته هو لم يثبت حكم الزنا، وعليه أن يلاعن؛ لأنه مدع والبينة لم تكمل، وقوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ بمعنى: «يمينه». وقيل: يثبت بذلك حكم الزنا؛ لأن الله سمى الزوج شاهدًا، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.
والأظهر القول الأول، وعليه أكثر أهل العلم[1].

١٠- مراعاة عدد الأيمان وأن تكون أربع مرات؛ لتكون- والله أعلم- كل يمين مكان واحد من الشهود الأربعة في القذف.
وهكذا في شهادة الإنسان وإقراره على نفسه بالزنا لابد أن يُقرّ أربع مرات عند طائفة من أهل العلم، لما جاء في قصة ماعز بن مالك- رضي الله عنه- ، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار مرة واحدة[2].

١١- التشديد في أمر اللعان حيث طلب من المتلاعنين أن يشهد كل منهما أربع شهادات، وأن يقول الرجل في الخامسة: إن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وتقول المرأة في الخامسة: إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

١٢- في جعل اللعنة في جانب الرجل بأن يقول في الخامسة: أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وجعل الغضب في جانب المرأة بأن تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ما يشير إلى أن الزوج هو الأقرب للصدق؛ لأن اللعنة والغضب- وإن كان في كلٍّ منهما وعيد شديد وتهديد أكيد، إلا أن الغضب- والله أعلم- أشد من اللعنة؛ لأن فيه معنى اللعنة وأشد فهو سبب الانتقام قال تعالى:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٥، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٩- ١٩٠.
(٢) انظر ما سبق في فوائد الآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥]، وهو من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: آية ٧]، فالمغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى.

١٣- أن أحكام الشرع على حسب الظاهر، ولو كان الواقع يخالفه؛ لأن المتلاعنين متكاذبان، فالزوج يثبت أن زوجته زانية، وهي تدعي أنه قاذف كاذب، وأحدهما كاذب لا محالة كما قال ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب»[(١)]. قالها ﷺ لهلال بن أمية وزوجته لما تلاعنا.

١٤- امتنان الله عز وجل على عباده بما شرع لهم من الفرج والمخرج من الضيق والشدة، ومن اليسر بعد العسر- بفضله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.
أي: لوقعتم في الحرج والمشقة، أو لهلكتم، ولما قَبِلَ منكم الظاهر، مع أن الباطن غير صحيح[(٢)]، وغير ذلك.
قال ابن كثير[(٣)]: «أي: لحرجتم ولشقّ عليكم كثير من أموركم».

١٥- أن الإنسان ليس له غنى عن ربه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ ولهذا جاء في الدعاء: «اللهم، رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»[(٤)].

١٦- أن كل ما يتقلب فيه الخلق كلهم من نعم الدين والدنيا، وما أعده الله لأوليائه من النعيم في الآخرة كل ذلك بفضل الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل بقسميها، وهما توفيقه عبده للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾.

---

(١) جاء هذا في لفظ البخاري وغيره- وقد سبق الحديث وتخريجه.
(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٥٥.
(٣) في «تفسيره» ٦/ ١٣.
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٩- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

وفي ختام آية اللعان بهذا ما يدل على أن المتلاعنين قد حصل منهما ما يوجب التوبة من زنا المرأة، أو قذف الزوج لها، والأيمان الكاذبة، والدعاء على أنفسهما، وفي ذلك أيضًا دلالة على أن من تاب منهما تاب الله عليه.

١٨- إثبات صفة الحكم لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة بقسميها: الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ وأنه عز وجل الحاكم المحكم فيما خلق وشرع وقدر، ومن ذلك حكمه العدل وحكمته التامة في مشروعية اللعان الذي به مخرج وفرج للزوجين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها- : قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أُنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عِقْدي من جزعِ ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقْدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يُهبَّلن[1] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام[2]، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عِقْدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت،

---

(١) لم يثقلن باللحم والشحم.

(٢) أي: القليل والبلغة من الطعام.

وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني، قد عرس من وراء الجيش، فادّلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجاب عليَّ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله! ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا، موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني. وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي، أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ، فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح، قِبَل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، وقالت: تعسَ مسطح، فقلت لها: بئسما قلتِ، أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟! قالت: أيْ هَنْتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلّم، ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أُريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أُمّتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوّني عليك، فوالله! لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرّن عليها، قالت: قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم

أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيت عليها أمرًا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ ابن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي، قالت: فبينا نحن كذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب، تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ

كثيراً من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة- والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبويوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا والله أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن، والله ما كنتُ أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكني كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[١] عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[٢] من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أُنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأكِ». فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي. قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ عشر آيات. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي. قالت: فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمتِ، أو ما رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[٣] من أزواج النبي ﷺ

---

(١) أي: الشدة.

(٢) أي: الدر، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الحسن والصفاء.

(٣) أي: تضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ وتفاخرني.

فعصمها الله عز وجل بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها[١]، فهلكت فيمن هلك»[٢].

وفي بعض روايات حديثها زيادة: «وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمنة».

وفي بعضها: «أنه بلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل فيه، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت عن كنف أنثى قط» قالت: «وقتل شهيداً في سبيل الله».

وفي بعضها أن عائشة كانت تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: «فإنه قال:

فـــإن أبي ووالـــده وعـــرضي ... لعـرض محمـد مـنكم وقـاء»[٣]

وفي بعض الروايات عنها قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على المنبر، فذكر ذاك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حَدَّهم»[٤].

قال أبو داود بعد إخراج هذه الرواية: «وحدثنا النفيلي حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق بهذا الحديث لم يذكر عائشة، قال: «فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة: حسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة» قال النفيلي: «ويقولون: المرأة حمنة بنت جحش».

قال ابن كثير[٥]: «هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين- رضي الله

---

(١) أي: تتعصب لها فتحكي ما يقوله أهل الإفك.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة، فضل عائشة- رضي الله عنها- ٢٤٨٨، وفي التوبة حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٢٧٧٠، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ٦/ ١٩٤، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٧- ٢٠٤، وقد روي من حديث أم رومان أم عائشة- رضي الله عنهما- مختصراً، أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥١، وفي المغازي- حديث الإفك ٤١٤٣، وأحمد ٦/ ٣٦٧- ٣٦٨.

(٣) كل هذه الروايات جاءت عند مسلم.

(٤) أخرجها أحمد ٦/ ٣٥، وأبو داود في الحدود- حد القذف ٤٤٧٤، والترمذي في تفسير سورة النور ٣١٨١، وابن ماجه في الحدود- حد القذف ٢٥٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن» وحسنه الألباني.

(٥) في «تفسيره» ٦/ ١٧.

عنها- ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها، ولنبيه- صلوات الله وسلامه عليه- فأنزل براءتها صيانةً لعرض الرسول- عليه أفضل الصلاة والسلام».

وقد اتفق أهل السِّير على أن هذه الحادثة وقعت في غزوة «المريسيع» ماء لخزاعة، وهي غزوة بني المصطلق، لكنهم اختلفوا متى وقعت هذه الغزوة فأكثرهم على أنها سنة ستٍ من الهجرة، وذهب بعضهم إلى أنها سنة أربع من الهجرة وقيل غير ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك: الكذب الشنيع، والافتراء والبهتان، مأخوذ من أَفَكَ الشيء إذا قلبه، ومنه سُميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات؛ لأن الله جعل عاليها سافلها، وسُمي الكذب إفكاً؛ لأنه قلب للحقيقة عن وجه الصواب إلى وجه الباطل، وهو الإثم الكبير، والذنب العظيم[2]، قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3].

والمعنى: إن الذين اختلقوا هذا الكذب الشنيع، وافتروا هذا البهتان العظيم، وهو قذف عائشة رضي الله عنها.

﴿عُصْبَةٌ﴾ العصبة: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل غير ذلك وسُمِّي الجماعة عصبة؛ لأنه يعصب بعضهم بعضاً ويقويه[4].

﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وقال: ﴿مِّنكُمْ﴾ مع أن فيهم عبد الله بن أُبيّ، رأس المنافقين؛ لأن المنافقين في الظاهر من المؤمنين.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» ٣/ ٣٠٩، «صحيح البخاري مع الفتح» غزوة بني المصطلق ٧/ ٤٢٨، «البداية والنهاية» ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر: «القاموس المحيط»، «لسان العرب»، «النهاية» مادة «أَفَكَ».

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩٨، «لسان العرب» مادة «عصب».

والمراد بهم الذين تكلموا في شأن عائشة- رضي الله عنها- وفي صفوان بن المعطل- رضي الله عنه- كما جاء في سبب النزول، وهم ثلاثة رجال وامرأة: عبد الله بن أبيّ، وحسان بن ثابت ومسطح بن أُثاثة، وحمنة بنت جحش.

قال ابن كثير[١]: «أي: جماعة منهم، يعني ما هو واحد ولا اثنان، فكان المقدم في هذه العصبة عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن».

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبوجعفر بفتح السين: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وقرأ الباقون بكسرها[٢].

والخطاب للنبي ﷺ وزوجه عائشة وأبي بكر وأهل بيته وصفوان بن المعطل، والمؤمنين.

أي: لا تظنوا هذا الإفك شرًّا لكم، أي: إنه وإن كان ظاهره الشر، وكان فيه أذية لكم، فهو ليس شرًّا محضًا.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن عاقبته إلى خير، والأمور إنما هي بعواقبها وما تؤول إليه، فقد أثبت الله عز وجل براءة أم المؤمنين- رضي الله عنها- وأنزل في ذلك قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، وهو امتحان من الله عز وجل فيه الأجر العظيم والثواب الجسيم لمن رُمي به. فالأمور بعواقبها لا بظواهرها القريبة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٧- ١٨.

(٢) انظر: «المهذب في القراءات» ٢/ ٧١

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر:١٥- ١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»[2].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل للعبد، وأن الإنسان قد يظن أن هذا الأمر شر، لنظره فقط إلى ظاهر الأمر، بينما هذا الأمر خير في الحقيقة؛ لأن عاقبته ومآله إلى خير.

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[3]

فما حصل من هذا الإفكِ وإن كان ظاهره شرًّا إلا أن عاقبته ومآله إلى خير، ففيه الأجر والثواب العظيم لمن رُمي به وهي أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل، ولكل من تأذى به، منهم رسول الله ﷺ وأهل بيته وآل أبي بكر- رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

كما أن في هذا الابتلاء تمحيصاً للمؤمنين، وبيان عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وأهل بيته، ودفاعه عنهم، ورفعة شأن عائشة- رضي الله عنها- ، بإنزال براءتها وتخليد ذكرها في القرآن الكريم.

وقد روي عن عائشة وزينب رضي الله عنهما أنهما تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء: وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين ركبتيها؟ قالت: قلتُ:

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

حسبي الله ونعم الوكيل: قالت: قلتِ كلمة المؤمنين»[١].

كما أن في ذلك فضيحة المنافقين وبخاصة رأسهم عبد الله بن أُبيّ، فشره وضرره عائد عليهم؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

فهذا كله خير للمؤمنين في دينهم ودنياهم في الحال والمآل.

قال ابن كثير رحمه الله[٢]: «﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس- رضي الله عنهما، وهي في سياق الموت قال لها: أبشري، فإنكِ زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبكِ، ولم يتزوج بكرًا غيركِ، وأنزل براءتكِ من السماء».

فحمداً لك اللهم أن كل ما يصيب المسلم مما يتأذى به ظاهراً فعاقبته ومآله إلى خير، إذا احتسب ذلك عند الله عز وجل، كما قال ﷺ في حديث صهيب- رضي الله عنه- :

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٤].

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص الكريمة وما فيها من المعاني العظيمة، فإن فيها بتوفيق الله الطمأنينة القلبية وانشراح الصدر، وشفاء القلوب والأبدان، والسعادة في الدنيا والآخرة بإذن الله عز وجل. نسأل الله التوفيق للحق والثبات عليه إلى أن نلقاه عز وجل.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٤- ١٩٥ من حديث محمد بن عبد الله بن جحش.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٤- ٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٢، ومسلم في البر والصِّلة والآداب ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز ٩٦٦.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ «لكل»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و«ما» موصولة أو مصدرية في محل رفع مبتدأ، أي: لكل امرئ منهم الذي اكتسبه، أو اكتسابه من الإثم. و«اكتسب» أبلغ من كسب؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والمعنى: لكل شخص من هؤلاء الذين تكلموا بالإفك وتناقلوه، وخاضوا فيه ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾، أي: ما استحقه وحصل عليه «من الإثم» وهو الذنب والعذاب، بحسب خوضه في ذلك بين مقل ومكثر، وبحسب نيته وما انطوى عليه قلبه، فإن من بين هؤلاء من قصد إشاعة الفاحشة في المؤمنين ممن يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ومنهم من انطلى عليه الأمر فخاض فيه وهو لا يشعر.

والكسب كما يكون بالجوارح الظاهرة يكون بالقلب، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

قال ابن كثير[1]: «أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب».

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي «كُبره» بضم الكاف، وقرأ الباقون بكسرها[2].

والضمير في قوله «كبره» يرجع إلى الإفك، المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أو إلى الإثم في قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

والضمير في قوله: «منهم» يرجع إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾.

ومعنى قوله: ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾، أي: تولى كبر هذا الإفك، وكبر الشيء بكسر الكاف وضمها: معظمه، أي: والذي تولى معظم هذا الإفك بكونه هو الذي يستوشيه ويجمعه، كما قالت عائشة رضي الله عنها، أو بكونه أول من ابتدأه واختلقه وعمل على نشره وإشاعته وإذاعته.

والمقصود بالذي تولى كبره منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، كما

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٥.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

قالت عائشة- رضي الله عنها- ، وعلى هذا أكثر المفسرين[١].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك وكان الذي يتكلم فيه مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم»[٢].

وعن مسروق قال: دخلنا على عائشة- رضي الله عنها- وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له، وقال:

حصان رزان ما تُزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[٣]

فقالت له عائشة: «لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمى- وكان قد ذهب بصره- لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح، أو يهاجي عن رسول الله ﷺ»[٤].

وعنها أنها قالت: «ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولستَ له بكفءٍ؟ ... فشركما لخيركما الفداء

لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوًا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه عذاب

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٩٥- ١٩٧، «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٤٥، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- حديث الإفك ٤١٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠.

(٣) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» ص ٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٥، ٤٧٥٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٨٨ وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

عظيم؟ أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف؟»[١][٢].

قال ابن كثير[٣]: «تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله».

ومع أن هذه الروايات قد يفهم منها أن حسان بن ثابت ممن تولى كبر الإفك، فإن الرواية السابقة صريحة في أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.

وأيضًا فإن مما يرجح كون الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ، لا حسان بن ثابت ما عند عبد الله بن أبيّ من سوء النية وخبث الطوية والقصد المتعمد لأذية الرسول ﷺ وعائشة والمؤمنين- كما هو معلوم عنه مما يبرأ منه حسان بن ثابت، وإن كان قد خاض فيه، وانطلى عليه الأمر من غير قصد، ولهذا قال ابن كثير[٤] عن هذا القول: «وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يذُبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وروح القدس معك»».

وأيضًا فإن حسانًا- رضي الله عنه- أنكر ذلك ودعا على نفسه إن كان قال ذلك، وقال في أبياته المشهورة في الثناء على عائشة والدفاع عنها:

حصان رزان ما تُزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[٥]

حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبي الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدها غير زائل

مهذبة قد طيَّب الله خِيمها ... وطهرها من كل شين وباطل

فإن كان ما بلِّغت أني قلته ... فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي

فكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زَيْن المحافل

---

(١) كنعه بالسيف، أي: أيبس جلده فرقًا وخوفًا وهلعًا.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٣.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٢٦.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٢٥.

(٥) رزان، أي: عاقلة رزينة. ما تُزنُّ، أي: ما تُتهم. غرثى، أي: جائعة، أي: أنها لا تتكلم في الغافلات. وقد تُكلم فيها.

لــه رتبــة عــال علــى النــاس فضــلها   تقاصـــــر عنــــه ســــورة المتطـــاول[١]

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: في الآخرة وهو عذاب النار العذاب الأكبر، وأيضًا عذاب الدنيا مما يترتب على الكفر والمعاصي من الآثار السيئة النفسية والبدنية والمعيشية وغير ذلك، فإن الكفر والمعاصي سبب لفقدان السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة.

قال السعدي[٢]: «﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ هو المنافق الخبيث عبد الله بن أبيّ ابن سلول لعنه الله، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار».

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

هذا توبيخ للمؤمنين في عدم ظنهم الخير بأنفسهم ورد الأكاذيب، وتوجيه لهم.

قوله: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾: «لولا» هنا للتوبيخ والتنديم على التفريط في أمر قد مضى، وفيه تحذير من مثله مستقبلاً.

والهاء في «سمعتموه» ضمير يعود إلى الإفك، أي: هلا إذ سمعتم هذا الإفك.

﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظن المؤمنون والمؤمنات، كحسان ومسطح وحمنة وغيرهم من المؤمنين ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظنوا بقلوبهم بأم المؤمنين عائشة وصفوان رضي الله عنهما وغيرهم من المؤمنين خيرًا، بأن غلبوا جانب حسن الظن والخير والعفاف في عائشة- رضي الله عنها- وفي صفوان، وفي غيرهم من المؤمنين، وأن هذا الفعل لا يقع من مؤمن، كما قال النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث[٣] فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- والصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنه؟!

---

(١) انظر: «ديوان حسان» ص ٢٢٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وترتيب الظن على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة إلى الظن الحسن حال سماع هذا الإفك.

ونص على المؤمنات في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ ولم يكتف بذكر ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ كما هي طريقه القرآن في تغليب الذكور على الإناث؛ لبيان أنه وقع هذا الأمر من ذكور وإناث، وأنه ينبغي أن يحسن المؤمنون ذكورهم وإناثهم الظن بإخوانهم المؤمنين.

﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ لأن المؤمنين كلهم بمثابة نفس واحدة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، وقتل المسلم لأخيه المسلم بمثابة قتله لنفسه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النور:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات:١١]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[(١)].

فحسنُ الظن وتغليب جانب الخير في المؤمنين كلهم واجب، فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- والصحابة ﷺ كصفوان بن المعطل وغيره.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «إذا ظننت فلا تحقق»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- ، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلاً. انظر: «الجامع الصغير» ٣٤٦٦. وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه.

قال ابن تيمية[1]: «لكن مع العلم بما عليه المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر».

وتحتمل الآية معنى ثانياً أي: كما يظن الإنسان بنفسه الخير ينبغي أن يظن ذلك بإخوانه المؤمنين.

أي: كما تظن بنفسك الخير يجب أن تظن ذلك بإخوانك، إلا بيقين يدل على خلاف ذلك، بل لو ظن الإنسان بنفسه الشر والوقوع في الفاحشة إذا حصلت له الخلوة، فلا يجوز له أن يظن ذلك بالآخرين من إخوانه المؤمنين، فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- . والآية تشمل هذا كله.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: فبادروا عند سماعه بظن الخير بأنفسهم، وتفنيد هذا الخبر وتكذيبه، أي: قالوا بألسنتهم: هذا كذب وافتراء بَيِّن واضح ظاهر في نفسه أنه كذب وافتراء ومُبَيِّن أمر قائله بأنه مفتر كذاب.

فجمعوا بين حسن الظن بأم المؤمنين- رضي الله عنها- في باطنهم، وبين رد هذه الفرية ظاهرًا والجزم ببطلانها، وأنها كذب وافتراء بَيِّن واضح.

قال ابن كثير[2]: «﴿وَقَالُوا۟﴾ بألسنتهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا- لو قدر- خفية مستورًا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة».

وهكذا يجب على المؤمنين أن يقدموا حسن الظن بمن هم محل العدالة والثقة من المسلمين، وأن يردوا بألسنتهم ما يلفقه المغرضون من افتراءات كاذبة، ما لم يظهر لهم

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٧.

خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ «لولا» كالتي قبلها للتوبيخ والتنديم والضمير في «جاؤوا» يعود إلى العصبة الذين جاؤوا بالإفك. أي: هلا جاء أولئك العصبة الذين تكلموا بهذا الإفك ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على الإفك ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ من الرجال الأحرار المكلفين العدول يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قالوا.

وفي هذا إشارة إلى مطالبتهم بالإتيان بأربعة شهداء على هذا الإفك، كما أن فيه إشارة إلى عجزهم عن الإتيان بالشهداء؛ لأنهم كَذَبَة مفترون، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾: عاطفة، و«إذْ» ظرف للزمان الماضي بمعنى: «حين» مُضَمَّنٌ معنى الشرط.

وقوله: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ ولم يقل: «فإذ لم يأتوا بهم» بل أظهر في مقام الإضمار للتوكيد، أي: فإذ لم يأتوا بالشهداء على صحة ما قالوا، ولن يأتوا بهم.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. أي: فأولئك الذين قذفوا عائشة وصفوان- رضي الله عنهما. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لشأنهم.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في علمه وحكمه الشرعي ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب والافتراء والفجور.

وأكد تحقق هذا الوصف فيهم وبلوغه غايته بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الكاذبون غاية الكذب دون غيرهم.

قال ابن القيم[1]: «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا».

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٦.

وقال السعدي[1]: «﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، لهذا قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق».

ولهذا أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف على حسان بن ثابت. ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، أما عبد الله ابن أبيّ، فيحتمل- والله أعلم- أنه لخبثه ومكره، يشيع هذا الخبر ويلفقه، دون أن يصرح بذلك، كأن يقول: يقولون حصل كذا من عائشة، أويتكلم به لدى خواصه الذين يطمئن أنهم لا يشهدون عليه بذلك، لينشروه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ «لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي حرف شرط غير جازم.

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الفضل: الزيادة، أي: ولولا فضل الله وزيادته التي يتفضل بها على عباده من جلب الخير لهم، ودفع الضر عنهم، والتوبة عليهم، والتجاوز عنهم.

والخطاب في قوله (عليكم) للذين تكلموا في قضية الإفك، وبخاصة المؤمنين منهم؛ وهم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش؛ لأن المؤمنين هم الذين أهل لفضل الله ورحمته الخاصة.

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾، أي: ورحمته لكم، والمراد هنا رحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لأن الخطاب معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

والرحمة هي سبب الفضل من الله.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ «الدنيا»: هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت «دنيا» من الدنو وهو القرب؛ لأنها قبل الآخرة فهي متقدمة عليها من حيث الزمن؛ ولهذا سماها

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٧.

الله عز وجل الأولى قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠].

وهي أيضًا مأخوذة من الدناءة، ؛لأنها حقيرة دنيئة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[١].

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ هي الدار الآخرة التي بعد هذه الدار الدنيا، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا؛ ولأنها آخر دار، فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

والمراد: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم في الدنيا بأن وفقكم للتوبة وقبلها منكم، وشرع لكم ما يطهركم به من حد القذف، وفي الآخرة بأن عفا عنكم، وتجاوز عن ذنوبكم ليحلكم دار كرامته.

﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو جواب «لولا» والخطاب في قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ إلى الذين خاضوا بالإفك.

أي: لأصابكم ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ «في» سببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي خضتم وتكلمتم فيه في حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث، أي: أكثر منه ونشره[٢].

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: عذاب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه في الدنيا مما يفوق الجلد والتوبيخ، وفي الآخرة بالنار، والذي سيمس أولئك الذين حرموا فضل الله ورحمته ممن خاضوا في الإفك من المنافقين كعبد الله بن أبي وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولكن بفضل الله عز وجل ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وتطهيرهم بالجلد،

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «فيض».

وتوفيقه لهم للتوبة وقبولها منهم عفا الله عنهم، وتجاوز عن ذنوبهم وأنجاهم من العذاب، وفازوا بالجنات وعظيم الثواب.

قال ابن كثير(١): «يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه».

وقال السعدي(٢): «﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب».

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، والأصل «تتلقونه» فخفف بحذف إحدى التاءين، أي: حين تتلقونه وتتلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض ويرويه وينقله بعضكم عن بعض، والضمير في ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يعود إلى الإفك، ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، أي: بقولكم: قال فلان كذا، وسمعت فلانًا يقول كذا، وذكر بعضهم كذا، وقيل: كذا وكذا ونحو ذلك(٣).

وأُسند التلقي وأُضيف إلى الألسن، مع أن الكلام يتلقى بالأذن إشارة- والله

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٧- ٣٩٨.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٧.

أعلم- إلى مبادرتهم إلى نقله والتكلم فيه بألسنتهم وهلة وحال سماعه، وكأنهم تكلموا به قبل أن يستقر في الآذان من سرعة تلقيهم له.

وقد كانت عائشة- رضي الله عنها- تقرأ «إِذْ تَلِقونَهُ بِأَلسِنَتِكُم» والوَلق: الإسراع. والمراد به هنا الإسراع إلى اختلاق الكذب.

عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقرأ: «إذ تَلِقونَهُ» تقول: إنما هو وَلْقُ القول- والوَلْقُ: الكذب. قال ابن أبي مليكة: وكانت أعلم من غيرها بذلك؛ لأنه نزل فيها»[1].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾، أي: قولاً لا مستند له ولا حقيقة، بل مجرد قول بالأفواه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] أي: بألسنتكم مما لا حقيقة له. وقيل: هذا من باب التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فقوله:﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ توكيد إذ من المعلوم أن القلوب في الصدور، ومثل هذا قول القائل: رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي ليس لكم به علم، أو مصدرية، أي: قولًا ليس لكم به علم، أو نكرة بمعنى شيء في محل نصب مفعول به أي: وتقولون بأفواهكم شيئًا ليس لكم به علم.

أي: تقولون ما لا تعلمون[2].

فأصبح حالكم كمن يقول: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[3].

وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[4].

وعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤٤، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢١٥- ٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥،- من حديث أسماء- رضي الله عنها- .

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة ٥، وأبو داود في الأدب ٤٩٩٢- من حديث حفص بن عاصم رضي الله عنه.

تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[١].

وروى عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم»[٢].

قال ابن تيمية[٣]: «وقوله: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ قال: فهذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل، والقول بلا علم».

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها[٤].

أي: وتظنون أن هذا الإفك الذي افتريتموه في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

﴿هَيِّنٗا﴾، أي: سهلاً يسيرًا. قال السعدي[٥]: «ولهذا أقدم عليه من أقدم من المؤمنين، ثم تابوا وتطهروا بعد ذلك».

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الواو للحال أي: والحال أنه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي وفي علمه.

﴿عَظِيمٞ﴾، أي: ذنب عظيم، وجرم كبير، وعقابه عظيم وعذابه أليم؛ لأنه قذف لزوجة أفضل الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وهي أفضل أزواج الأنبياء وسيدتهن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- بل إن القذف مطلقًا من أعظم الذنوب الموبقات.

كما في حديث أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة- ما جاء في الإحسان والعفو ٢٠٠٧، وقال «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٩٥.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٤) انظر: «المهذب في القراءات العشر» ص ٧١.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٨.

(٦) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧ ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧.

قال ابن كثير[(١)]: «ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هينًا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل».

وإذا كان الرب العظيم وصف هذا الإفك بأنه عنده عظيم، فلا يستطيع أحد أن يقدر كنه عظمة هذا القول وخطورته إلا العظيم سبحانه وتعالى، مصداق ذلك قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ، وفي رواية لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»[(٢)].

وفي حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها سُخطه إلى يوم يلقاه»[(٣)].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل ﵁: «كف عليك هذا- وأمسك بلسانه- فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[(٤)].

وعن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الواو: استئنافية، و«لولا»: للتوبيخ والتنديم؛ لأنه فات وقتها ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: وهلا حين سمعتم هذا الإفك.

﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي: قلتم منكرين لذلك ومسارعين حال سماعه بالبراءة منه.

وترتيب القول على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد- التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩. وصححه الألباني

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال الترمذي: «حديث حسن».

إلى نفي هذا الإفك والبراءة منه حال سماعه.

و«ما»: نافية، أي: قلتم: ما يجوز لنا أن نتكلم بهذا الإفك العظيم ولا يمكن أن نتكلم به، ولمكانة عائشة- رضي الله عنها- أجل وأعلى من أن ينسب إليها هذا الأمر، أو يقع منها. وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف[١].

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيها لله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يقدر على زوجة سيد الخلق، وسيدة نساء الأنبياء أن تقع فيما قيل عنها ورميت به، فهو عز وجل أغير على نبيه ﷺ وعلى زوجة نبيه ﷺ، ولهذا لم تزنِ امرأة نبي قط لعصمة الله عز وجل لهن عن ذلك فكيف بعائشة- رضي الله عنها- أفضلهن وزوجة أفضلهم[٢].

وأيضًا: سبحانك وتنزيها لك من أن نتكلم بهذا الإفك فنخالف أمرك.

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا الإفك الذي رميت به عائشة وصفوان رضي الله عنهما ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: كذب عظيم.

و﴿بُهْتَٰنٌ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أن هذا الإفك بلغ الغاية في الكذب، ولهذا وصفه بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

والبهتان: هو الكذب على البريء، والقول عليه بما ليس فيه، كما قال ﷺ في الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[٣].

وسمي الكذب بهتانًا، وبهتًا؛ لأنه يبهت ويحير من رمي به ويدهشه كما أنه في نهاية الأمر يبهت ويحير صاحبه الذي افتراه واختلقه؛ لأن وبال ذلك عليه.

ولهذا يطلق البهت والبهتان على المجادلة بالباطل كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: تحير وانقطع وقال تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٢٠]،

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٢) انظر: «زاد المسير» ٨/ ٢١٥، «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٨- ٢٩، ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: كذبًا وذنبًا عظيمًا ودعوى باطلة.

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ الموعظة: معناها: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، وما يلين القلوب. أي: ينهاكم الله متوعدًا ومحذرًا لكم أن ترجعوا لشبه هذا القول.

﴿أَبَدًا﴾، أي: مطلقًا فيما يستقبل من رمي عائشة أو غيرها من أزواج النبي ﷺ أو غيرها من المؤمنين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله، وكل ما يجب الإيمان به، فلا تعودوا لمثله أبدًا؛ فمن شرط الإيمان: ألا تعودوا لمثل هذا القول أبدًا؛ تعظيمًا لحرمات الله عز وجل، واحترامًا لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، أي: يوضح ويفصل لكم الآيات الشرعية والكونية وما يؤخذ منها من أحكام وحكم، شرعية وكونية وجزائية. فقد بين الله عز وجل في معرض ذكر هذه الحادثة حادثة الإفك كثيراً من الأحكام والحكم الشرعية والكونية والجزائية.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى عليه السلام لما سُئِل عن القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فلا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة الغائية

والحكمة الصورية، فهو عز وجل حاكم محكم متقن في خلقه وشرعه وقدره وجزائه[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

هذا وعيد وتهديد وتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾، أي: يرغبون ويودون ويتمنون بقلوبهم إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وربما عملوا على ذلك بجوارحهم، فتكلموا بألسنتهم، وكتبوا بأقلامهم ونحو ذلك؛ لإظهار الشماتة بالمؤمنين وأذيتهم، ولإشباع رغباتهم وشهواتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾، أي: يحبون شيوع الفاحشة، أو إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

ومعنى ﴿أَن تَشِيعَ﴾، أي: أن تظهر وتفشو وتنتشر[٢].

والفاحشة والفحشاء والفحش: ما يستقبح ويستفحش في الشرع وعرف المسلمين من الأقوال؛ كالقذف والغناء والسب والشتم، ونحو ذلك، ومن الأفعال؛ كالزنا واللواط وأسبابهما من الاختلاط بين الرجال والنساء والخلوة بالنساء وبالمردان، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

واللواط أشد وأفحش من الزنا، ولهذا أطلق عليه اسم الفاحشة بالتعريف، قال تعالى عن لوط أنه قال لقومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

قال ابن تيمية[٣]: «وهذا ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم في الفاحشة، أو يخبر بها محبة لوقوعها في

---

(١) يحسن مراجعة تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء:١٧].

(٢) انظر مادة «شيع» في «المفردات» و«لسان العرب».

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١٢.

المؤمنين إما حسدًا أو بغضًا، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، فكل من أحب فعلها ذكرها».

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ العذاب: هو العقوبة والنكال، و«أليم» على وزن «فعيل» بمعنى «مُفعِل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

وهكذا جميع الذنوب والمعاصي وعقوباتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة لها آلامها الحسية والمعنوية.

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾: «أي: يختارون ظهور الكلام عليهم بالقبيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب».

فلهم عذاب أليم في الدنيا بجلدهم حد القذف ثمانين جلدة، لنطقهم بالقذف بألسنتهم وأفواههم، مع العذاب المعنوي الدنيوي بسبب الذنوب والمعاصي وهو قلقهم واضطراب حياتهم.

ولهم عذاب أليم في الآخرة حسيًّا ومعنويًّا في النار، لما انطوت عليه قلوبهم من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين وسعيهم إلى ذلك.

وذلك أن الحدود على الصحيح كفارات فلا يجمع للقاذف بين عقوبتين؛ الحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، اللهم إلا أن يحمل ذلك على المنافقين فإن العقوبة في الدنيا لا تكفر عنهم عقوبة الآخرة إلا من تاب منهم من النفاق.

وفي حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»[2].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩، وابن ماجه في الحدود ٢٦٠٣.

كان كيف كان يكون، علمه محيط بالأشياء في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم فهو عز وجل يعلم أحوال خلقه، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ويعلم ما يصلحهم من الأحكام الشرعية والقدرية.

ويعلم ما تنطوي عليه قلوب أناس من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

ومن علمه عز وجل تقديره كونًا أن يحصل ما حصل من قضية الإفك، وعاقبته خير للمؤمنين كما ذكر الله عز وجل.

ومن علمه عز وجل أنه رتب العذاب الدنيوي وهو الجلد، والعذاب الأخروي بالنار على من وقع في ذلك ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تأديبًا لهم وردعًا لأمثالهم، ولو لم يقم عليهم حد القذف لانبرى أناس يتكلمون في أعراض بريئة ولشاعت الفاحشة بين المؤمنين بسبب ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لا تعلمون وجه الحكمة فيما شرع الله وقدر، ولا علم عندكم؛ لأن ما عندكم من العلم لا يساوي شيئًا بالنسبة لعلم الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، ولا تعلمون أيضًا إلا ما علمكم الله. قال ابن كثير[1]: «فردوا العلم إليه ترشدوا».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ كرر عز وجل تذكيرهم بفضله ورحمته هنا، وقد سبق في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية:١٠] تأكيدًا لعظيم فضله عليهم ورحمته بهم وامتنانًا عليهم بذلك؛ ليشكروه، وتنبيهًا لهم على عظم هذا الإفك كما قال عز وجل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

«لولا» شرطية غير عاملة، وحذف جوابها للتعظيم والتفخيم؛ ليذهب فيه الفكر كل مذهب، أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكان كذا وكذا، أو لعاجلكم بالعقوبة، أو لما صلح أمر دينكم ودنياكم ونحو ذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾، أي: ذو الرأفة العظيمة بعباده وخلقه. والرأفة: أخص من

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٩.

الرحمة، بل هي أشد الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة.

فلكونه عز وجل رؤوفًا رحيمًا تفضل على المؤمنين ورحمهم، ووفقهم إلى التوبة مما حصل منهم من الخوض في هذه القضية، وقبلها منهم وطهرهم من ذلك.

قال ابن كثير[1]: «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه».

ففي الآيات السابقة ذكر عز وجل الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فجعل لهم مخرجًا من ذلك بالملاعنة بين الزوجين بفضله عز وجل ورحمته؛ لأنه التواب الحكيم.

وذكر عز وجل في هذه الآيات أنه جعل لعائشة- رضي الله عنها- وللمؤمنين فرجًا ومخرجًا من هذه القضية، وجعل العاقبة لهم بفضله ورحمته؛ لأنه الرؤوف الرحيم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات براءة أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- مما قاله فيها أهل الإفك، وعناية الله عز وجل بها وفضلها وعظيم مكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات.

٢- دفاع الله عز وجل عن نبيه وأهل بيته، وعن آل أبي بكر وعن المؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨].

٣- فضيحة أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم بما أنزل الله فيهم من الآيات وبيان أن ما جاؤوا به كذب وإفك مبين، وبهتان عظيم.

٤- أن الذين تكلموا في قضية الإفك جماعة من المؤمنين، بما فيهم المنافقون الذين هم في الظاهر من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

٥- أن عاقبة الابتلاء قد تكون إلى خير؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن ما حصل لعائشة- رضي الله عنها- من هذا الإفك عاقبته خير لها ولرسول الله ﷺ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

وأهل بيته ولآل أبي بكر ولصفوان بن المعطل، وغيرهم من المؤمنين.

فقد فضح الله عز وجل أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم وبيّن كذبهم، وبرأ أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وأهل بيته ﷺ والمؤمنين، وأثنى عليهم وامتدحهم، وبيّن لهم الحكم وعلمهم الأدب في مثل هذا، وهذا كله خير، هذا في الدنيا.

وفي الآخرة لهم عند الله عظيم الأجر والثواب، كما قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»[1].

٦- أن لكل من هؤلاء العصبة الذين تكلموا بالإفك نصيبه من الإثم والذنب وجزاءه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

فمن أطال الخوض في هذا وأكثره فنصيبه من الذنب والجزاء أعظم، ومن أقل في ذلك فذنبه وجزاؤه على قدر خوضه في ذلك.

ومن خاض فيه عن قصد وسوء نية وخبث طوية كعبد الله بن أبيّ فذنبه وجزاؤه أعظم ممن خاض فيه من غير قصد، وإنما انطلى عليه الأمر.

ومن جزاء ذلك الجزاء الدنيوي بإقامة حد القذف على من ثبت عليه ذلك منهم ورد شهادته، والحكم بفسقه حتى يتوب.

٧- أن أعظم أصحاب هذا الإفك عذابًا من تولى كبر هذا الأمر، ابتداءً به ونشرًا وإشاعة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهو عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فهو من أعظم الخائضين في هذا مع نفاقه وسوء نيته، وخبث طويته ومحبته إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

٨- أن الذنوب تتفاوت من حيث كبرها وكثرتها وخلاف ذلك، ويتفاوت عذابها على حسب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- توبيخ من تكلم بالإفك من المؤمنين، وتنديمهم وعتابهم، وتعليمهم الأدب في مثل هذا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) سبق تخريجهما.

١٠- وجوب حسن الظن بالمؤمنين، وأن الأصل فيهم العدالة والبراءة والخير والعفاف، حتى يثبت خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

١١- أن اتهام المؤمن لأخيه بمثابة اتهامه لنفسه، وأن حسن الظن به بمثابة حسن الظن بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: بإخوانهم المؤمنين، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- أن ما رُميت به عائشة- رضي الله عنها- كذب بين واضح ظاهر، وبهتان عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

١٣- وجوب رد الأخبار والإشاعات المغرضة ورفضها بقوة وحزم؛ لكذبها وعدم صحتها، ولما تسببه من شرور وفتن على المجتمع الإسلامي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا كذب بين مردود جملة وتفصيلاً.

وقد قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

١٤- وجوب إتيان القَذَفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

١٥- إذا لم يأت القذفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا فهم عند الله الكاذبون المفترون، الذين بلغوا الغاية في الكذب، ووجب إقامة حد القذف عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وحيث إن ما جاء به هؤلاء الذين تكلموا في عائشة- رضي الله عنها- إفك وكذب مبين، وبهتان عظيم، فقد أقام النبي ﷺ الحد على القذفة منهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، وتاب الله عليهم.

فعن عروة عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على

المنبر فذكر ذاك وتلا- يعني القرآن- فلما نزل أمر بالرجلين والمرأة فَضُربوا حدهم»(١).

وعن محمد بن إسحاق قال: «ثم أمر رسول الله ﷺ بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصحوا بالفاحشة فَضُربوا حدهم»(٢).

وقيل: إن النبي ﷺ أقام الحد على أربعة، هؤلاء الثلاثة، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول.

والمشهور القول الأول: وهو أنه ﷺ أقام الحد على الثلاثة: حسان ومسطح وحمنة، دون عبد الله بن أبيّ؛ لأنه لخبثه ودهائه وخوفه من أن يفتضح نفاقه، كما قالت عائشة- رضي الله عنها- : «يستوشيه ويجمعه»، فهو يعمل على نشره وإشاعته بطرق خفية وملتوية، ولا يصرح به. وإن صرح به فعند أمثاله من المنافقين الذين يتسترون عليه، وقيل غير ذلك(٣).

١٦- فضل الله عز وجل على المؤمنين ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، حيث طهر من وقع منهم بالإفك بإقامة الحد عليهم، ووفقهم للتوبة، وقبلها منهم، فسلموا من أن يمسهم العذاب العظيم لو لم يتوبوا، وفي هذا وعيد شديد وتحذير أكيد من الوقوع في مثل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٧- العتاب الشديد للذين تلقوا الإفك وتناقلوه بألسنتهم فيما بينهم، وتكلموا بأفواههم بما ليس لهم به علم، والنهي عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

١٨- وجوب التثبت في الأخبار وفي نقل الكلام، والإمساك عما ليس للإنسان به علم؛ لأن الله عاتب المؤمنين على ما حصل منهم من تلقي الإفك والقول بلا علم.

١٩- عظم ذنب وإثم من خاضوا في هذا الإفك، وأنه ليس بالأمر الهيِّن، فهو قذف لأم

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣١٥.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٣، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٦٦.

المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ وابنة الصديق رضي الله عنه وعنها، فآذوها وآذوا رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، وآذوا أبا بكر وأهله ﷺ، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه والمؤمنين.

علمًا أن القذف بحد ذاته ذنب عظيم، فكيف إذا كان لإحدى أمهات المؤمنين، بل لعائشة التي هي من أفضل أمهات المؤمنين، والتي هي أحب أزواج النبي ﷺ إليه والتي فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كما قال ﷺ[1]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن كثير[2]: «وقد أجمع العلماء- رحمهم الله- قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به الذين ذكروا في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم».

٢٠- عتاب الله للمؤمنين ثانيًا وتأديبه وتعليمه لهم، وبيان أنه كان الواجب عليهم لما سمعوا حديث الإفك أن يمسكوا عن الكلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

٢١- وجوب الذب عن عرض المسلم برد ما يقال فيه من الإفك، وبيان أنه كذب وبهتان عظيم وفي الحديث: «من رد عن عرض أخيه المسلم رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[3].

٢٢- وجوب الإمساك والبعد عن الخوض في الكلام الباطل، وإن خاض فيه من خاض من الخلق، وما أكثرهم، فالعافية غنيمة، والسلامة لا يعدلها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

وانظر إلى كثير من المسلمين في مجالسهم العامة والخاصة ومنتدياتهم وفي مواقعهم على «الإنترنت» وفي الساحة المفتوحة الساحة السوداء ساحة الحراج وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٣٤، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: «حديث حسن».

يندى جبينك من سوء أخلاق كثير من المسلمين، وخوضهم في الباطل، بما يحمل بين طياته الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ويؤدي إلى تمزيق كلمة المسلمين ووحدتهم، وجعلهم أيدي سبا، ولقمة سائغة لأعدائهم، بل ويؤدي إلى ما هو أعظم من ذلك وهو الإساءة إلى الشرع المطهر والدين الإسلامي الحنيف ووصمه بأنه مصدر هذه التصرفات، وحاشا الدين الإسلامي من ذلك.

٢٣- تسبيح الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، وأن حكمته عز وجل تأبى أن يقع في فراشه ﷺ ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها.

٢٤- أن ما قيل من الإفك في عائشة- رضي الله عنها- كذب بلغ من الكذب غايته ومنتهاه؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٥- وعظ الله للمؤمنين ونهيه لهم نهيًا مؤكداً وتحذيرهم من الرجوع إلى مثل هذا الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

٢٦- أن من شرط الإيمان وكماله عدم الرجوع في مثل ذلك، وعدم الوقوع في أعراض المسلمين وقذفهم كذبًا وبهتانًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢٧- أن الذنوب والمعاصي تضعف الإيمان، وأن كمال الإيمان بالبعد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه بها أعناقهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[1].

٢٨- تبيين الله وإيضاحه لعباده الآيات الشرعية والكونية، وما فيها من الأحكام والحكم؛ إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل والحكم التام والحكمة البالغة له- سبحانه

(١) سبق تخريجه.

وتعالى- لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، والتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذوا المؤمنين ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»[1].

وإذا كان هذا الوعيد بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لمن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فكيف بما هو أعظم من ذلك، من فِعْل ذلك وقوله ونقله وإظهاره[2].

٣١- يجب أن يعمل المؤمنون جميعًا على القضاء على أسباب إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي.

٣٢- يجب رد الأمور إلى الله تعالى والتسليم لأمره، والرضا بقدره؛ لسعة علمه وحكمته، فما حصل من خبر الإفك فبعلمه وتقديره، ولحكمة يعلمها، وبعلمه شرع ما شرع من الأحكام لعلاج هذه القضية وأمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- أن علم الخلق لا شيء بالنسبة لعلم الله عز وجل فهم لا يعلمون كيف المخرج من مثل هذه الوقائع، وكيف علاجها، ولا يعلمون الحكمة في تقدير الله لها، وفيما شرع من أحكام لعلاجها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- أن ما فيه العباد من النعم، وما اندفع عنهم من النقم في دينهم ودنياهم هو بفضل الله عز وجل عليهم ورحمته لهم ورأفته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن ذلك تبرئة عائشة- رضي الله عنها- والمؤمنين، وفضيحة أهل الإفك وبخاصة المنافقين.

٣٥- إثبات صفة الرأفة الواسعة لله عز وجل وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، وهي

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٩- من حديث ثوبان ﷺ.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٠.

رحمة ذاتية صفة من صفاته عز وجل الثابتة، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾.

لما ذكر الله عز وجل قضية الإفك، وما حصل من الخوض فيها فمن متكلم فيها، ومن ناقل، أو مصدق لها أتبع ذلك ببيان أن ذلك كله من خطوات الشيطان وعمله تحذيرًا من ذلك.

وقد نهى الله عز وجل في آيات عدة من القرآن الكريم عن اتباع خطوات الشيطان. أعاذنا الله وجميع المسلمين من الشيطان وخطواته.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة لـ«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا» صلة الموصول.

والإيمان في اللغة: التصديق قال تعالى عن أولاد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

وقال ابن تيمية معناه الإقرار لا مجرد التصديق[١].

فعلى هذا أبو طالب عم النبي ﷺ مصدق برسول الله ﷺ لكنه لم يقر؛ لهذا لم يدخله تصديقه في الإيمان، فهو القائل:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنَى بقول الأباطل[٢]

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٦٣٨، ٥٢٩- ٥٤٣.

(٢) انظر: «ديوان أبي طالب» ص١٢٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩٩، «الحماسة المغربية» ١/ ١٠٤.

والقائل:

ولقد علمت بأن دين محمد | من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة | لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[(١)]

ولهذا لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء إليه النبي ﷺ، وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل، فقال ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقال له عبد الله بن أمية وأبو جهل: قل: بل على ملة عبد المطلب. فقال: بل على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله»[(٢)].

والإيمان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- : «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(٤)].

﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، اتباع الشيء: الأخذ به واقتفاؤه وسلوك منهجه وطريقه.

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، قرأ نافع وحمزة وأبو عمرو، وخلف، وأبو بكر عن عاصم: «خُطْوات» بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بضمها[(٥)].

وخُطوات: جمع خُطْوة، والخُطْوة في الأصل: ما بين قدمي الماشي.

وخُطوات الشيطان: طرقه ومسالكه ووساوسه ونزغاته، وتزيينه وهمزاته وتسويله وعمله.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا

(١) انظر: «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٦١، «ديوان أبي طالب» ص١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٤، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من حديث ابن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى»٧/ ٦٧٢، ١٧٠.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤.

(٥) انظر: «النشر» ٢/ ٢١٥، ٢١٦.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون:٩٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [القصص:١٥].

والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله عز وجل، مأخوذ من شطن، بمعنى: بعد عن رحمة الله وجنته، وعن كل خير[1].

ويكون من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[2]. ورأس الشياطين وكبيرهم إبليس لعنه الله، ومن خطوات الشيطان وطرقه وأعماله محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم شرط جازم، و«يتبع» فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل كون «الفاء» تعليلية، والجملة تعليل للنهي أو للشرط. وجواب الشرط محذوف، تقديره: فقد غوى. ونحو ذلك، وهذا أقرب.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الفحشاء: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، ومن ذلك الزنا والقذف ونحو ذلك.

---

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه ص ٢٦٠، ٢٨٦، ٣٢١، وانظر مادة «شطن» في «تهذيب اللغة» و«مقاييس اللغة»، وانظر: «تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة ٧٠٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمين، وهو ضد المعروف، ويشمل جميع المعاصي والذنوب، فعطفه على الفحشاء من عطف العام على الخاص. والمعنى: أن من يتبع طرق الشيطان ومسالكه وأعماله فإنه لا يدله إلى خير بل يأمره بالفحشاء والمنكر ويقوده إلى كل شر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

قال ابن كثير[١]: «هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها».

ورحمك الله يا ابن كثير فما أفصح هذه العبارة وما أوجزها وأبلغها وأحسنها وأدلها على المقصود، فإن قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ اشتمل على نهي وتحذير، ودل على أنه يأمر بكل ما خالف الشرع والعرف، أي يأمر بجميع المعاصي والذنوب والشرور، ومفهوم ذلك أنه لا يأمر بما لم يكن فاحشًا ولا مستنكرًا في الشرع والعرف، فلا يأمر بخير أبدًا.

اللهم إلا إذا كان سيترتب على ذلك الخير شر أعظم منه، أو يمتنع بسببه خير أعظم منه فإن هذا من مسالك الشيطان كما قال ابن القيم- رحمه الله- : «إن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل»[٢].

وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا ... وصولاً إلى باب من الشر أعظم

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب «لولا» و«ما» نافية ﴿زَكَىٰ﴾ قرأ روح ويعقوب في رواية زيد «زكّى» بتشديد الكاف، وقرأ الباقون بتخفيفها[٣].

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥٨. «التفسير القيم» ص٦١٣.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

و«زكى»، أي: طهر، طهارة معنوية من دنس الشرك والذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩- ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨].

و«من» في قوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي. «أحد» نكرة في سياق النفي، فتعم كل أحد. والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم بتوفيقه لكم للتوبة، وبيان الحق لكم، وحفظكم من خطوات الشيطان ما طهر منكم من أحد أبدًا من الشرك، ومن جميع الذنوب والمعاصي، من الفجور والفحش والأخلاق الرديئة وغير ذلك، فطهارة من طهر منكم إنما هي بفضل الله ورحمته؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن الله عز وجل بفضله ورحمته يطهر من يشاء من عباده ممن يعلم أنهم أهل للتزكية. فيوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم، ويوفقهم لسلوك الطريق المستقيم، ويحفظهم من خطوات الشيطان وطرق أهل الجحيم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦] لهذا أمر المسلمون أن يرددوا في صلواتهم، بل في كل ركعة منها قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة:٦- ٧]، وفي الدعاء: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(١).

وكان ﷺ يردد في أناس من أصحابه ﷺ يوم الخندق:

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- حفر الخندق ٢٨٣٧، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة الأحزاب ١٨٠٣-

نسأل الله عز وجل الهداية والتوفيق بفضله ورحمته.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي ذو السمع الواسع لكل شيء، سميع مجيب الدعوات، سميع لجميع الأصوات خفيها وجليها سرها وعلانيتها، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقالت عائشة- رضي الله عنها- : «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾»(١).

فهو عز وجل سميع لدعاء عباده ولجميع الأصوات، يسمع أنين المذنبين وتوبة التائبين وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمن يستحق التزكية والتطهير ممن لا يستحق ذلك، والعلم بما يظهر الخلق وما يبطنون، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

سبب نزول الآية:

لما أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى عشر آيات فيها براءة عائشة- رضي الله عنها- مما قال أصحاب الإفك، وكان ممن تكلم فيه مسطح بن أثاثة.

قالت عائشة- رضي الله عنها- : فقال أبو بكر- رضي الله عنه- وكان ينفق على

من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨. وصححه الألباني.

مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه أبدًا بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدًا»[1].

قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الواو استئنافية، و«لا» ناهية.

قرأ أبو جعفر «ولا يتأل» وقرأ الباقون: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾.

ومعنى القراءتين واحد، أي: ولا «يحلف»[2] مأخوذ من «الأَلِيَّة» وهي الحلف واليمين كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٦- ٢٢٧]، أي: للذين يحلفون على عدم قربان نسائهم تربص أربعة أشهر.

قال الأعشى[3]:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدًا

وقال الآخر:

قليل الألايا حافظ ليمينه ... إذا صدرت منه الألية برت[4]

والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى واليتامى والمساكين. فحذفت «لا» النافية[5].

وقيل معنى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، أي: ولا يألو، أي: ولا يقصر، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]، أي: لا يقصرون في جلب الخبال لكم. ومنه ما رُوي عن معاذ: «أجتهد رأيي ولا آلو»[6]، أي: ولا أقصر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٨٥- ١٨٧، «السيرة النبوية ٢/ ٢٦- ٢٧.

(٤) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» ص٣٢٥.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٩، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٧٦.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧- من حديث معاذ في قصة بعث

ويكون المعنى: ولا يقصر أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى[١].

والآية تحتمل المعنيين، لكن المعنى الأول أظهر وأشهر، وعليه يدل سبب النزول.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾، أي: أصحاب الفضل منكم، و«الفضل»: الزيادة، أي: أصحاب الزيادة والتفضل والإحسان والصدقة. وقيل: المراد بالفضل هنا الصلاح في الدين، لعطف السعة عليه.

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: الغنى والطول والجدة، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾، أي: أن لا يؤتوا، فحذفت منه «لا» النافية، وحذفها بعد القسم مطرد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥] أي: لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف.

وعلى المعنى الثاني تكون جملة ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ في محل جر، والتقدير: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى، أي: ولا يقصروا في أن يعطوا أولي القربى.

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، أي: أصحاب القرابة المحتاجين. وذلك أن أم مسطح بنت خالة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وكان مسطح مسكينًا لا مال له إلا ما ينفقه عليه أبو بكر- رضي الله عنه- وكان من المهاجرين في سبيل الله، وكان ممن تكلم في الإفك وجلد حد القذف وتاب الله عليه- رضي الله عنه[٢].

وقدم «أولي القربى»؛ لأن الصدقة على القريب أولى، فهي صدقة وصلة- كما جاء في حديث سلمان بن عامر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن

النبي ﷺ له إلى اليمن.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٠- ١٦٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٨٢، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، والدارمي في الزكاة ١٦٨٠. وصححه الألباني.

ظهر غنى وابدأ بمن تعول»[١].

وعن طارق المحاربي قال: قدمنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك، أدناك»[٢].

وعن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[٣].

ولهذا قال ﷺ لأبي طلحة- رضي الله عنه- لما أراد أن يتصدق بحائطه المسمى «بيرحاء» قال ﷺ: «وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[٤].

وحتى في الدعوة إلى الله فهم أولى من غيرهم ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

ولهذا كان الميراث للأقربين، الأقرب فالأقرب، وكذا النفقة تجب للأقرب فالأقرب.

وقد استدل ابن تيمية[٥] وغيره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية على وجوب الصلة والنفقة لذوي الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب قال: «لأن أم مسطح بنت خالة أبي بكر، وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم، والنهي يقتضي التحريم، فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجبًا؛ لأن الحلف على ترك الجائز جائز».

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا يجد إلا بعض كفايته أو لا يجد شيئًا، وسمي مسكينًا أخذًا من السكون وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فتجده بين

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٦، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٣٢. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٨، ومسلم في الزكاة ١٠٣٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦١، ومسلم في الزكاة ٩٩٨، وأبو داود في الزكاة ١٦٨٩، والنسائي في الأحباس ٣٦٠٢، والترمذي في التفسير ٢٩٩٧- من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- .

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٣.

الناس ساكتاً لا يتكلم. وإن تكلم لم يسمع الكثيرون له، بل قد يمن عليه بعض الناس بالسلام، وحاله كما قيل:

إذا قلّ مال المرء قل بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا ... أقدامه خير له أم وراؤه

وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقًا بقاؤه[(١)]

والمراد بالمساكين هنا ما يشمل الفقراء؛ لأن «الفقير» و«المسكين» من الأسماء التي إذا افترقت اجتمعت وإذا اجتمعت افترقت وقد اختلفوا أيهما أشد حاجة الفقير أو المسكين، والأكثرون على أن الفقير أشد حاجة[(٢)]؛ لأن الفقر مأخوذ من «القفر» وهي الأرض الخالية، أو من انفصام فقار الظهر، الذي هو من أشد ما يكون، وقد يؤدي إلى الهلاك نسأل الله العافية. وقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[(٣)].

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: والمهاجرين من مكة إلى المدينة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في طريق الله وإخلاصًا له، وفرارًا بدينهم، ونصرة لدين الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٠٠] أي: إخلاصًا لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام[(٤)].

وخص «المهاجرين» مع أن المسكنة والحاجة قد تكون فيهم وفي غيرهم من الأنصار وغيرهم، وذلك لما جاء في سبب نزول الآية من منع أبي بكر النفقة على مسطح وهو من المهاجرين؛ ولأن المهاجرين أشد حاجة حال نزول الآيات؛ لأنهم ﷺ خرجوا من مكة وتركوا أزواجهم وأولادهم وأموالهم وديارهم، كل ذلك فرارًا بدينهم، ولهذا آخى النبي ﷺ في أول الهجرة بينهم وبين إخوانهم الأنصار، حتى كان الأنصاري يجعل ماله نصفين

---

(١) الأبيات لأبي حيان التوحيدي. انظر: «ديوانه» ص ٢٤٦. وانظر: «الكشكول» ٢/ ٢٣٩، «الوابل الصيب» ص٧٦.

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٤٤٢- ٤٤٨، «لسان العرب» مادة «سكن»، «فقر».

(٣) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وصححه الألباني ١٢٧٦.

(٤) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة «هجر».

بينه وبين أخيه المهاجري، ويطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المهاجري. بل يرث بعضهم بعضًا بتلك المؤاخاة حتى نسخ الله ذلك وجعل الميراث للأقربين.

والمعنى: لا يحلف أصحاب الفضل منكم والغنى، الذين منّ الله عليهم بذلك أن لا يعطوا المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين والمهاجرين، وكل هذه الصفات الثلاث موجودة في مسطح، فهو من قرابة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وهو من المساكين المحتاجين، وهو من المهاجرين.

وعطف هذه الصفات على بعض تنزيلاً لتغاير ا لصفات منزلة تغاير الذوات للدلالة على أن كل صفة منها بمفردها تستوجب الإنفاق والإحسان، فكيف إذا اجتمعت هذه الصفات.

والنهي موجه إلى ما يقع في المستقبل، ويفهم منه أن ما وقع من أبي بكر- رضي الله عنه- كما دل عليه سبب النزول- أمر لا ينبغي، لكن دون توبيخ.

قال ابن كثير(1): «أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام».

وقد نهى الله تعالى عن جعل اليمين بالله تعالى عرضة لعدم البر؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ اللام لام الأمر في الموضعين، ولهذا جزم الفعل بعدها. والعفو: ترك العقوبة على الذنب، والتجاوز عنها. والصفح: ترك التثريب واللوم، ونسيان ما حصل، كما قال يوسف لإخوته- عليه وعليهم السلام- : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

أي: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ عما حصل أو يحصل من هؤلاء المنفق عليهم من الإساءة والأذى وسوء الأدب- إذ لا شك أن الواجب مقابلة الإحسان بالإحسان، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لكن إذا قابل المحسن إليه بالإساءة فلا ينبغي أن يكون ذلك حاملاً على ترك الإحسان إليه، فإن الاستمرار بالإحسان إليه أقرب لرده إلى الحق، وهو أخلص لله تعالى، يدل على أن باذل الإحسان لا ينتظر ممن أحسن

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

إليهم شيئاً كما قال الله عز وجل عن عباده المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨- ٩].

وقال تعالى في الثناء على أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- في إنفاقه في تخليص المستضعفين من المؤمنين بمكة من أيدي المشركين ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧- ٢١].

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ «ألا»: أداة عرض لاستمالة قلوب المخاطبين. ﴿تُحِبُّونَ﴾، أي: تودون. ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، والتقدير: ألا تحبون مغفرة الله لكم، أو غفران الله لكم.

ومفعول «يغفر» محذوف للعلم به، أي: أن يغفر الله لكم ذنوبكم.

والمغفرة: ستر الذنوب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره، وتقيه السهام.

ولما أنزل الله عز وجل هذه الآية بادر أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- فعفا وصفح، وأعاد النفقة إلى مسطح وقال رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

مع أن خوض مسطح في هذا الإفك من مقابلة الإحسان بالإساءة ومن ظلم ذوي القربى الذي ما أشد وقعه على النفس كما قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند[1]

وهكذا ينبغي للمسلم إذا حلف على أمر فرأى غيره خيرًا منه أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»[2].

كما ينبغي للمسلم أن يكون إلى العفو والصفح عمن أساء أقرب منه إلى الانتقام لينال مغفرة الله عز وجل كما في هذه الآية، وليكون أقرب للتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ولينال الخيرية الموعود بها في

(١) البيت ينسب لطرفة بن العبد، وهو في «ديوانه» ص ٣٦ طبعة دار صادر، وينسب لعدي بن زيد العبادي، وهو موجود في «ديوانه» ص ١٠٧ تحقيق محمد جبار، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في الأيمان والنذور ١٥٣٠، ومالك في النذور ١٠٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وليكون أجره على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]، وليأخذ بعزائم الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ من الترغيب في الخير والحث على المبادرة إليه والحض على المسارعة إليه والمنافسة فيه، وفي مغفرة الله، ما يقصر التعبير عنه، مما يدل على بلوغ القرآن الغاية في الترغيب فيما يريد الترغيب فيه، ومن ذا الذي لا يقول: «بلى» إذا قيل له: ألا تحب أن يغفر الله لك. رغبة فيما عند الله، كما قال الصديق رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

لكن من كتب الله عليه الخذلان قد يقول: «لا» بلسان حاله أو بلسان مقاله، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥].

ولما قيل لرجل: «ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ» قال: إني لست بمجنون»[١].

ولهذا قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبق الكلام عليه[٣]، وفي ختم الآية بهذا وعد بالمغفرة والرحمة لأبي بكر الصديق- رضي الله عنه- الذي نزلت فيه هذه الآية، ولغيره من أهل الإحسان والعفو.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده بفعله إن كان أمرًا، وتركه إن كان نهيًا يعد من

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٥، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١- من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٠، ومسلم في الإمارة ١٨٣٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان، وأن الإيمان قبل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- نهي المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ومسالكه ووساوسه وما يزينه من أعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

٤- أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا يأمر بخير أبدًا، مما يوجب الحذر منه ومن مسالكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾.

٥- تزكية الله عز وجل للمؤمنين وتطهيره لهم من الذنوب والمعاصي بالإيمان والتوبة بفضله عز وجل ورحمته، ولولا ذلك ما زكى منهم من أحد أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾.

٦- أن الأمر في الهداية والإضلال، وتزكية النفوس وتطهيرها، وعدم ذلك كله بمشيئة الله يهدي من يشاء ويطهرهم بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

٧- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، الذي وسع جميع الأصوات، وصفة العلم الواسع لله عز وجل، الذي وسع وأحاط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

٨- نهي الله عز وجل لمن أعطاهم الله الفضل والسعة في الرزق عن الحلف على ألا يؤتوا المحتاجين من أصحاب القربى والمساكين والمهاجرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾.

وأول من يدخل تحت هذا النهي أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- الذي نزلت بسببه الآية.

فلا ينبغي للمسلم أن يحلف على ترك شيء من أعمال البر والخير، وأن من فعل ذلك ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير، وهكذا فعل الصديق- رضي الله عنه.

٩- مشروعية الإنفاق على الأقارب، وقد يكون ذلك واجبًا.

١٠- الترغيب في الصدقة والإحسان لمن عنده فضل وَوُسِّع عليه في رزقه بأن يعطي المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾.

١١- أن الصدقة على القريب أفضل من الصدقة على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ فقدم «أولي القربى» على «المساكين» فدل على أن الصدقة عليهم أفضل، وفي الحديث «الصدقة على القريب صدقة وصلة»(١).

١٢- ذل الحاجة، ولهذا سمى الله المحتاجين بالمساكين؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكنتهم فكانوا كالساكن الذي لا حراك فيه، وكما سماهم في مواضع أخرى بالفقراء؛ لأن الحاجة جعلتهم كمن انقصمت فقار ظهره نسأل الله العافية.

١٣- في ذكر المهاجرين في سبيل الله إشارة إلى ما كان عليه المهاجرون ﷺ من الفاقة والحاجة حيث تركوا ديارهم وأموالهم ﷺ، وأن المعتبر في الهجرة ما كان في سبيل الله؛ لإقامة دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- الترغيب في العفو والصفح عمن أساء عمومًا، وعن أهل الحاجة من الأقارب والمساكين خصوصًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾، وأن ذلك سبب للمغفرة؛ ولهذا قال بعده: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣- ١٣٤].

١٥- أنه لا ينبغي أن تحمل إساءة من أساء، ومعصيته على ترك الإحسان إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾، بل إن الإحسان لمن أساء دليل على الإخلاص، كما أنه سبب لرد المسيء إلى الحق وترك الإساءة.

١٦- الرد على المعتزلة القائلين بأن الكبائر تحبط الأعمال؛ لأن مسطحًا- رضي الله عنه- ممن خاض في الإفك، وذلك كبيرة من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ولعن الله فاعليه وتوعد عليه بالعذاب العظيم، فقال: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ومع ذلك أثبت أن هجرة مسطح باقية بل نوّه بهجرته[١].

١٧- بلوغ القرآن الغاية في الترغيب في العفو والصفح وطلب مغفرة الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فإن في هذا من حسن التعبير ولطافته وتحبيب هذا العمل ما لا مزيد عليه؛ ولهذا قال أبو بكر ﷺ: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

١٨- أن الجزاء من جنس العمل فإن من عفا وصفح عن الخلق، غفر الله له وتجاوز عن ذنوبه وسترها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن كثير[٢]: «فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله ما أنفعه بنافعة أبدًا. فلهذا كان الصديق هو الصديق».

وفي حديث أسامة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٣].

١٩- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل نزول الآية وبعدها، فقد كان رضي الله عنه معروفًا بالإحسان والفضل والأيادي على الأقارب والجيران والمستضعفين من المؤمنين، لكنه بعد خوض مسطح في الإفك أراد أن يمنع النفقة عنه، فلما أنزل الله هذه الآية رد النفقة، وقال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي» ومقابلة الإساءة بالإحسان درجة عظيمة لا ينالها إلا من وفقه الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤- ٣٥]. اللهم نسألك من فضلك.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٢- ١٦٣.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨.

وهذا المعنى متحقق في الصديق- رضي الله عنه- أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[(١)]. قال بكر بن عبد الله المزني: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[(٢)].

٢٠- من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير.

٢١- إثبات سعة مغفرة الله عز وجل وتجاوزه عن ذنوب عباده وستره عليهم. وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل ؛ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٢- دل ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة له عز وجل، على أن زوال المرهوب بسبب مغفرته عز وجل، وحصول المطلوب بسبب رحمته سبحانه وتعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- باب الخوخة والممر ٤٦٦، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب- مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٦٦٠، وابن ماجه في المقدمة- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٩٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الصلاة، ٤٦٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» ص ٣٦٩ رقم ٩٧٠.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق حد الذين يرمون المحصنات في الدنيا وهو جلدهم ثمانون جلدة ورد شهادتهم، وفسقهم. ثم ذكر ما قاله أصحاب الإفك من الكذب المبين والبهتان العظيم في حق أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وما لهم من العذاب العظيم في الدنيا والآخرة. ثم أتبع عز وجل ذلك بالوعيد للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عمومًا باللعن والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وهو متناول لمن قذف عائشة، أو غيرها من أمهات المؤمنين من باب أولى.

وقد روي عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: «رميت بما رميت به، وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذا أوحي إليه، قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه، وقال: يا عائشة أبشري، قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى قرأ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾»[(١)].

وهذا- إن صح- إنما فيه أن عائشة هي سبب النزول، ولعل هذا هو مراد ابن عباس رضي الله عنهما- فيما روي عنه- أنه قال: «نزلت في عائشة خاصة»[(٢)]، أي: أن عائشة هي سبب النزول.

والصحيح أن الآية عامة كما اختار ذلك أكثر المفسرين منهم الطبري[(٣)]، وابن كثير[(٤)]، واستدل له بما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٥٧- الأثر ١٤٢٨٥- وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٢.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٣٠.

(٤) انظر: «تفسيره» ٦/ ٣٢- ٣٣.

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ «الذين» اسم موصول لجمع الذكور، وغلب الذكور هنا على الإناث؛ لأن الآية تشمل من رمى من الذكور والإناث.

ومعنى: ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا و«المحصنات» العفائف. ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾، أي: عن الفاحشة، البعيدات عنها فلا تخطر لهن على بال، ولا يخطر على بالهن ما يقال عنهن من أمر الفاحشة لحسن سرائرهن، وطهارة قلوبهن، وسلامة صدورهن[٢] كما قالت عائشة- رضي الله عنها: «رميت بما رميت به وأنا غافلة.

وكما قال عنها حسان رضي الله عنه[٣]:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

فقوله: «وتصبح غرثي»، أي: جائعة، «من لحوم الغوافل»، أي: أنها لا تقع في أعراض النساء الغافلات عن الفاحشة.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: جمع مؤمنة، أي: المصدقات المنقادات ظاهرًا وباطنًا، والمؤمنات إيمانًا يمنعهن من الفجور.

وسواء كان القاذف رجلاً أو امرأة، وسواء كان المقذوف أيضًا رجلاً أو امرأة، وهذا بإجماع المسلمين[٤].

وإنما خصّ- والله أعلم- بالذكر رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، دون رمي المحصنين من المؤمنين، مع أن كل ذلك لا يجوز ومتوعد عليه؛ لأن رمي المرأة أشد ضررًا وأعظم أثراً من رمي الرجل؛ ولأن سياق الآيات جاء بعد ذكر من رموا أم

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان- بيان الكبائر ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٢) انظر: «فتح القدير» للشوكاني ٤/ ١٧، «أضواء البيان» ٦/ ٨٧.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٢٢٨.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٩، «أضواء البيان» ٦/ ٨٩.

المؤمنين عائشة- رضي الله عنها.

وقدم الوصف بالإحصان على الإيمان في الآية مع أن الإيمان أكمل وأولى بالاعتبار؛ لأن الزنا ينقض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الذي ينقض ما رُمين به وهو الإحصان.

﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لم يقل: لعنهم الله، ليشمل لعن الله وغيره، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩].

واللعن من الله معناه: الطرد والإبعاد عن رحمته، ومن المخلوقين معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

فهؤلاء القذفة: ملعونون مبعدون عن رحمة الله وعن الخير في الدنيا والآخرة، ومن طرد عن رحمة الله وعن الخير، فليس له إلا العقوبة والشر، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بحد القذف، وألم الذنب والمعصية المعنوي وأثره السيئ على مرتكبه مدة حياته، وهذا أمر مشاهد.

فإن المعاصي والذنوب تورث قسوة في القلب، وضيقًا في الصدر، وسوادًا في الوجه، ومحقًا للبركة في الرزق والعمر، وشقاءً في الحياة، ويزداد ذلك بقدر بعد الإنسان عن الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

ولهم عذاب عظيم في الآخرة بالنار، وهو أعظم وأشد من عذاب الدنيا.

ولهذا الوعيد الشديد ذهب بعض أهل العلم كابن عباس رضي الله عنهما وغيره إلى أن الآية فيمن رمى أزواج النبي خاصة. ويقوي هذا قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]، وفي رمي أمهات المؤمنين أعظم الأذى له ﷺ.

ولهذا قال ﷺ كما في حديث الإفك: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد

بلغني أذاه في أهل بيتي»[١].

وظاهر الآية عمومها لجميع المحصنات من أزواج النبي ﷺ وغيرهن من المؤمنات، وهو الصحيح كما سبق بيانه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ يوم: ظرف للعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يشهد»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَشْهَدُ﴾[٢].

والمعنى: تقر وتعترف عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بحيث لا يستطيعون الإنكار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي بالذي كانوا يعملون، أو بعملهم، وهو يشمل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

أي: يوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا بها من الخوض في الباطل من رمي المحصنات بالزنا، وإشاعة الفاحشة والغيبة والنميمة وغير ذلك.

وتشهد أيضًا عليهم أيديهم بما بطشوا بها وظلموا واعتدوا، وبما أخذوه بها من غير حق، وتشهد عليهم أرجلهم بما مشوا بها إلى الباطل والحرام والظلم.

فيا سبحان الله هذه الجوارح التي كانت تدافع عنهم في الدنيا، أشهدها الله عليهم وأنطق ما لم يكن منها ناطقًا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:١٩- ٢٣].

وفي بعض المواضع يُختم على الأفواه وتنطق الجوارح فقط، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أتدرون مم أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا» فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكنَّ كنت أناضل»[1].

قال السعدي رحمه الله[2]: «ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ «يوم» بدل من يوم الأولى في قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ والتنوين عوض عن المحذوف، أي: يومئذ تشهد عليهم تلك الجوارح، وذلك يوم القيامة.

﴿يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ﴾، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا تامًا، لا نقص فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١].

«الحق»، أي: الذي هو غاية الحق والعدل والإنصاف، من غير زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: ويعلمون عندما يوفيهم الله أعمالهم علمًا جازمًا أن الله عز وجل هو الحق الثابت فهو عز وجل حق، ووجوده حق، وصفاته حق، وربوبيته حق،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٤.

وألوهيته حق، ودينه حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وكلامه حق، صدق وعدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأحكام الكونية والشرعية والجزائية.

﴿الْمُبِينُ﴾، أي: البين أنه حق في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته بدلالة آياته ومخلوقاته، المبين أنه عز وجل الحكم العدل سبحانه وتعالى، فهو سبحانه حق، وما عداه باطل، قال لبيد[1]:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهو عز وجل المظهر للأمور على حقائقها، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي لا يظلم أحد عنده مثقال ذرة.

الفوائد الأحكام:

١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يرمون العفائف الغافلات عن الفاحشة المؤمنات بالطرد عن رحمة الله، والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، وذكر منهن: «**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

٢- أن من رمى غير العفائف الغافلات المؤمنات لا يستحق هذا الوعيد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾

٣- حِرْص الشرع المطهر على صيانة المجتمع الإسلامي وحفظه من إشاعة الفاحشة.

٤- عناية الدين الإسلامي بعفاف المرأة المسلمة وطهرها، لتبقى مكرَّمة مصونة؛ لهذا جاء في الآية النص على من يرمون المحصنات، دون من يرمون الرجال المحصنين، وإن كان رمي الجنسين كلاهما محرم وقذف، إلا أنَّ تضرر المرأة العفيفة بالقذف أشد من تضرر الرجل كما هو معلوم.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

٥- إثبات الدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٦- شهادة الجوارح: الألسنة والأيدي والأرجل على الإنسان بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٧- في شهادة الجوارح على الإنسان بما عمل إجارة له من الظلم، ودليل على كمال عدل الله تعالى.

٨- تمام قدرة الله تعالى، حيث أنطق هذه الجوارح.

٩- في شهادة الجوارح على صاحبها، وقد كانت في الدنيا تدافع عنه دليل على إحقاق الحق، وقيام العدل في ذلك اليوم بأدق صوره.

١٠- عدم استطاعة الإنسان الاستتار بفعله؛ لأن جوارحه شهود عليه، مع شهادة الكرام الكاتبين، واطلاع العليم الخبير.

١١- مجازاة الخلق على أعمالهم وحسابهم عليها بدقة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾.

ولهذا يقول المجرمون إذا وضع الكتاب ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

١٢- في تلك العرصات يوم القيامة يظهر للخلائق تمام الظهور أن الله عز وجل هو الحق المبين، الحكم العدل، الذي لا يظلم أحد بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

الخبيث والطيب من الأوصاف المتضادة، فيقال: الخبيث للحرام والرديء والنجس، ويقال: الطيب للحلال والجيد والطاهر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢] فسر الخبيث بالحرام والرديء، وفسر الطيب بالحلال والجيد.

وقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون.

والخبيث والطيب من الأوصاف التي قد توصف بها الأقوال والأعمال والأعيان والأشخاص والمعتقدات وغير ذلك.

فالقول منه الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم:٢٤]، وقال تعالى:﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠].

وفي الحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(١).

والعمل منه الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأنبياء:٧٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة:٩٠]

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والرجس: النجس والخبيث.

وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[1].

وهذا يشمل الطيب من الأقوال والأعمال والأعيان أيضًا وغير ذلك.

والأعيان: منها الطيب والخبيث.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون:٥١]. وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]، وقال تعالى ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢]، و[الصف:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

والأشخاص منهم الطيب والخبيث، فالمؤمن طيب طاهر، والكافر خبيث نجس، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] والنجس: الخبيث.

قال الراغب[2] في تعريف الخبيث: «وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال».

وقال في تعريف الطيب: «والطيب: ما تستلذه الحواس وتستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان مباحًا، وفي حدود ما جاء في الشرع والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال».

ولهذا فإن قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠] يشمل كل ما يمكن وصفه بالخبث والطيب، أي: لا يستوي الخبيث أيًا كان من قول أو عمل أو عين أو شخص أو غير ذلك بالطيب أيًا كان.

وبناء على هذا فإن قوله هنا: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٥، والترمذي في التفسير ٢٩٨٩ والدارمي في الرقاق ٢٧١٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «المفردات» مادة «خبث»، ومادة «طيب».

﴿لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ يحتمل أن المراد به: أن الزانيات من النساء للزناة من الرجال، وأن الزناة من الرجال للزانيات من النساء، واللام للاستحقاق، أي: فهن لهم وهم لهن شرعًا واستحقاقًا.

والطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، و«الطيبون» العفيفون من الرجال «للطيبات» العفيفات من النساء، أي: فهن لهم وهم لهن شرعًا واستحقاقًا.

فالمراد بالخبث على هذا القول الزنى، وهو الوصف الذي لا يمكن أن ينسب لزوجات الأنبياء عليهم السلام؛ كما جاء في الأثر: «وما زنت امرأة نبي قط».

بخلاف ما عدا الزنى من الأوصاف الخبيثة؛ فقد كانت امرأة نوح ولوط عليهما السلام كافرتين.

والمراد بالطيب على هذا القول: العفاف.

فعلى هذا فالمراد بالخبيثات: الزانيات من النساء، والمراد بالخبيثين: الزناة من الرجال، والمراد بالطيبات: العفيفات من النساء، والمراد بالطيبين: العفيفون من الرجال.

وفي هذا توكيد لبراءة عائشة- رضي الله عنها- وأن الله عز وجل لم يكن ليختار لأفضل الخلق وأطيبهم وسيد الأولين والآخرين إلا أفضل وأطيب وأطهر وأعف نساء العالمين، ومنهن عائشة الطاهرة المطهرة وسيدة نساء الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن كثير[1]: «أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا، ولا قدرًا».

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، أي: «الخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات كالفواحش من الزنا وقذف المحصنات والخوض في الكلام الباطل «للخبيثين» من الرجال والنساء وهم أهل الفحش فعلاً وقولاً وأخلاقًا وصفاتٍ و«الخبيثون» من الرجال والنساء «للخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، فهن لهم، وهم لهن يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن، ومن ذلك رمي المحصنات

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٥.

الغافلات المؤمنات بالزنا، وغير ذلك.

و«الطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، وهي الصالحات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، من الصلاة والزكاة والصيام وذكر الله عز وجل والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس وحسن السمت وحسن الخلق وغير ذلك «للطيبين» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون.

و«الطيبون» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون «للطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات[(١)] فهن لهم وهم لهن يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن.

ولا مانع من حمل الآية على القولين بحيث يحمل الخبث والطيب على خبث الأشخاص وطيبهم، وخبث العمل والقول والخلق والصفات وطيبها قال ابن القيم[(٢)] بعد أن ذكر القولين: «وهي تعم ذلك وغيره، فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين».

وقدم ذكر الخبيثات والخبيثين- والله أعلم؛ لأن السياق في إثبات براءة عائشة- رضي الله عنها- والرد على أهل الإفك وغيرهم من قذفة المحصنات الغافلات المؤمنات، وبيان حكم ذلك وشناعته والوعيد عليه.

وفي قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ إطناب وتوكيد وحصر.

ففي عطف قوله: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ على ما قبلهما إطناب وتوكيد لذلك.

كما أن في الجمل الأربع لفظها ومفهومها توكيدًا وحصرًا وبيان أن لكل صنف خبيثًا كان أو طيبًا قرينه الذي يستحقه ويليق به شرعًا؛ لأن اللام في قوله: ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ وكذا ما بعدها للاستحقاق. وفي ذلك حصر من جهتين: حصر الخبيثات للخبيثين، وحصر الخبيثين للخبيثات، وحصر الطيبات للطيبين وحصر الطيبين للطيبات، بحيث

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٣٢- ٢٣٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٥.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٧.

لا تبقى خبيثة لطيب، ولا خبيث لطيبة، ولا تبقى طيبة لخبيث، ولا طيب لخبيثة[(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ الإشارة تعود إلى الذين رُموا بالإفك، وهم عائشة وصفوان- رضي الله عنهما- ومن نالهم أذى ذلك وهم الرسول ﷺ وآل أبي بكر، وغيرهم من المؤمنين ممن قد يُرمون بذلك، وهم الطيبون والطيبات المذكورون بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تنبيهًا على شرفهم وفضلهم وعلو منزلتهم و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: خبره، ومعنى: ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: أن الله برأهم، فهم أبرياء مما قيل فيهم، منزهون منه، و«من» في قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ حرف جر، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: من الذي قاله أو يقوله أهل الإفك، أو من قول أهل الإفك.

وفي قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ توهين لهذا القول وتضعيف له، وأنه مجرد قول لا حقيقة له فهم بريئون بتبرئة الله عز وجل لهم من قول أهل الإفك فيهم. وهذا شهادة من الله عز وجل ببراءة عائشة رضي الله عنها وكفى بها شهادة، فهو خير الشاهدين.

فبرأ عز وجل عائشة بنفسه، كما برأ يوسف عليه السلام على لسان صبي في المهد، وكما برأ مريم على لسان ابنها عيسى عليهما السلام[(٢)].

وهم أيضًا بريئون مما يقوله أهل الإفك والكذب عمومًا وأهل القذف بالباطل للمحصنين والمحصنات، فليس بصحيح ما قيل فيهم، وليسوا ممن يرمون أهل العفة والإحصان بالفاحشة، أو يخوضون في الباطل؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه. والرزق: العطاء. والكريم: الكثير الواسع الحسن، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**وإياك وكرائم أموالهم**»[(٣)]، أي: خيارها وحسنها.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٢، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٥، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٨١.

(٣) سبق تخريجه.

أي: لهم خاصة من الله عز وجل ستر لذنوبهم عن الخلق وتجاوز منه عن عقوبتهم عليها، وعطاء منه عز وجل لهم واسع حسن كثير في الدنيا، وفي الآخرة في جنات النعيم بسبب ما قيل فيهم من الكذب، وما حصل لهم من الأذى، فصبروا عليه، وبسبب بعدهم عن قول الإفك في غيرهم وعن الخوض بالباطل.

قال ابن كثير[1]: «وفيه وعد بأن تكون زوج النبي ﷺ في الجنة» يعني: عائشة- رضي الله عنها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات حكمة الله تعالى في الأحكام الشرعية والقدرية؛ حيث جعل الأشياء متناسبة؛ كل شيء له ما يناسبه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات:٢٢]، فالأماكن الطيبة العامرة بذكر الله مأوى الملائكة، والأماكن الخبيثة- كمواضع الأذى- مأوى الشيطان، والنفس الطيبة يقترن بها الطيب، وتؤيدها الملائكة، والنفس الخبيثة يقترن بها الخبيث ويسلط عليها قرينها من الشياطين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ ﴾ الآية.

٢- أن الخبيثات الزانيات من النساء للخبيثين الزناة من الرجال، وأن الخبيثين الزناة من الرجال للخبيثات الزانيات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ ﴾.

٣- أن الطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، وأن الطيبين العفيفين من الرجال للطيبات العفيفات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فلا يجوز تزويج عفيفة بزان، ولا تزوج عفيف بزانية.

٤- توكيد براءة عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأن رسول الله ﷺ أطيب الطيبين، وعائشة أفضل نساء الأنبياء وسيدتهن رضي الله عنها وعنهن أجمعين.

٥- أنه لا يجوز تزوج الطيبين من الرجال بالخبيثات من النساء، ولا تزويج الطيبات من

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٥.

النساء بالخبيثين من الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وقال تعالى في أول السورة: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

٦- أن الخبيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للخبيثين من الرجال والنساء، وأن الخبيثين من الرجال والنساء للخبيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.

٧- أن الطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للطيبين من الرجال والنساء، وأن الطيبين من الرجال والنساء للطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٨- أن الخبيث لا يلتقي مع الطيب، وأن الطيب لا يلتقي مع الخبيث بحال، لأن الله جعل أهل الخبث بعضهم لبعض، وجعل الطيبين بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

وأن كل صنف يلتقي مع نظيره وقرينه، ويلتئم معه، ويطمئن إليه، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[(١)].

وروي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «نزلنا الكوفة بليل، فنزل الأخيار على الأخيار، ونزل الأشرار على الأشرار». وفي المثل: «الطيور على ألّافها تقع»[(٢)].

٩- وجوب تنزيل الناس منازلهم، فلا يوصف الطيب بالخبيث، ولا الخبيث بالطيب.

١٠- تبرئة أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وأهل بيته ﷺ مما قال أهل الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- الأرواح جنود مجندة ٣٣٥٣، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في البر والصلة والآداب- الأرواح جنود مجندة ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤.

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للنيسابوري ١/ ٤٤٢، «الأمثال المولدة» للخوارزمي ص١٢٨.

قال ابن كثير[1]: «وهو عز وجل لا يقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك- يعني الفاحشة- حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة».

١١- دفاع الله تعالى عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين عمومًا.

١٢- بُعد الطيبين والطيبات عن الخوض في الباطل وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

١٣- وعد الله عز وجل للطيبين والطيبات البعيدين عن الفواحش، وعن قول الإفك، وعن قذف المحصنين والمحصنات، وقول الباطل بالمغفرة والرزق الواسع الحسن في الجنة، وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

* * *

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٨.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة، من أول السورة إلى ما قبل هذه الآيات حد الزنا والقذف وأحكامهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بالاستئذان عند دخول بيوت الغير، وذلك كله حفاظًا على الأعراض، وصيانة لها، وذلك أن الاستئذان من أسباب الوقاية من الاطلاع على ما لا يجوز والنظر إلى العورات، وما قد يؤدي إليه ذلك من الوقوع في الفاحشة، أو القذف وذكر عورات الآخرين.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَدۡخُلُواْ ﴾ «لا» ناهية، ﴿بُيُوتًا﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وورش وحفص عن عاصم بضم الباء هنا وفي قوله ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ وفي جميع القرآن. وقرأ الباقون بكسرها(١).

و«بيوتًا»: جمع بيت، والبيت في الأصل ما له أعمدة. ومنه سمي البيت الحرام.

﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، أي: بيوت غيركم، أي البيوت التي يسكنها غيركم، سواء كان الساكن في هذه البيوت مالكًا لها أو مستأجرًا.

ويفهم من ذلك أن دخول بيوتهم ليس بحاجة إلى ما ذكر من الاستئناس والسلام، وسيأتي بيان حكم ذلك في آخر السورة.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ حتى: لانتهاء الغاية، والمعنى: حتى تستأذنوا، أي: تطلبوا الإذن بالدخول، وتعلموا بأنه قد أذن لكم، كأن يقول من يريد الدخول: أأدخل ونحوه، ويجاب إلى ذلك، وبأي عبارة أو وسيلة حصل الاستئذان كفى ذلك كدق

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٢٦٦.

الباب ونحو ذلك[١].

وسُمي الاستئذان: استئناسًا؛ لأن الطارق قبل أن يؤذن له كالمستوحش، فإذا استأذن واستعلم واستكشف، وأذن له بالدخول أنس وزالت عنه الوحشة.

والدليل على أن المراد بالاستئناس: الاستئذان والاستعلام قوله بعد هذا: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[٢].

وكذا قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا»[٣].

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها»، ويقول: «تستأنسوا» وهم من الكاتب، أو يقول: أخطأ الكاتب»[٤]، فهذا إن صح عن ابن عباس رضي الله عنهما فإن الذي يؤخذ منه أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرؤها: «حتى تستأذنوا» كقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، وهي تفسر قراءة: «حتى تستأنسوا».

أما قول ابن عباس رضي الله عنهما: «وهم من الكاتب أو أخطأ الكاتب» فهذا في صحة نسبته لابن عباس نظر، ولو صح فهو مردود بإجماع الأمة قاطبة على أن ما بين دفتي المصحف هو مما أنزله الله عز وجل بلا نقص ولا تغيير ولا تبديل؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقد فند صحة هذه المقالة عن ابن عباس وردها جمع من أهل العلم منهم ابن العربي والقرطبي وأبو حيان والشنقيطي وغيرهم[٥].

---

(١) كما في حديث جابر- رضي الله عنه- وسيأتي.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١- ٢٤٢، ٢٤٥- ٢٤٦، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٣- ٢١٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٦، ٣٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٧.

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٨٨٠٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان»١٧/ ٢٣٩ـ٢٤٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦، والحاكم ٢/ ٣٩٦.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٤، «البحر المحيط» ٦/ ٤٤٥، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٨.

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال الطبري[1]: «وهو من المقدم الذي معناه التأخير إنما هو: حتى تسلموا وتستأذنوا».

وقال ابن كثير[2]: «فيستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده»

لكن ليس في الآية ما يدل على أن الأولى تقديم الاستئذان على السلام؛ لأن الواو تقتضي الجمع ولا تقتضي الترتيب، فيجوز عطف الأول على الأخير بالواو كقوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣]، والركوع قبل السجود، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب:٧]

فالواو إذا تجردت من القرائن والأدلة الخارجية لا تقتضي إلا مطلق الجمع والتشريك، وقد تقتضي الترتيب إذا دلت القرائن أو الأدلة على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨].

وقد قال ﷺ في الحديث: «ابدأ بما بدأ الله به»[3].

وقد دلت السنة على تقديم السلام على الاستئذان، فعن كلدة بن حنبل- رضي الله عنه- قال: دخلت على النبي ﷺ، ولم أسلم، ولم استأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل»[4].

وعن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي

---

(١) في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٢٩٦١، والترمذي في الحج ٨٦٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الاستئذان- كيف الاستئذان ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان- التسليم قبل الاستئذان ٢٧١٠، وأحمد ٣/ ٤١٤، وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الألباني.

ﷺ فدخل»[١].

وعن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «أألج- أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها: روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعها الرجل، فقالها، فدخل»[٢].

وعن خالد بن إياس قال: حدثتني جدتي أم إياس قالت: «كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة، فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن لصاحبتكنَّ تستأذن، فقالت: السلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا؟ ثم قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾»[٣].

وعن ثابت عن أنس بن مالك، أو غيره: أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد ابن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله. ولم يُسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثًا ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك، ومن البركة. ثم أدخله البيت، فقرب إليه زبيبًا، فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرارُ، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون»[٤].

وقد روي هذا الحديث عن قيس بن سعد بن عبادة بأطول من هذا.

فعن قيس بن سعد بن عبادة- رضي الله عنه- قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردًا خفيًا، قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذره يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السلام

---

(١) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٥١٧٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١- ٢٤٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٨ وأخرجه أبو داود في الأطعمة ٣٨٥٤ مختصرًا عن أنس أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت فأكل، ثم قال النبي ﷺ: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»، وصححه الألباني.

عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردًا خفيًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله» ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأرد عليك ردًا خفيًا، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ، فأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله مِلْحَفَةً مصبوغة بزعفران- أو ورس- فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه، وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة» قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام. فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارًا قد وَطَّأَ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ فقال سعد: يا قيس اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب» فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف» قال: فانصرفت»[1].

والاستئذان ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف؛ لما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «أنه استأذن على عمر ثلاثًا فلم يؤذن له، ثم انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» فقال: لتأتينّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلى ملإٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق»[2].

والحكمة- والله أعلم- في كون الاستئذان ثلاثًا: أن صاحب البيت قد لا يسمع في الأولى فيسمع في الثانية أو الثالثة.

وعن قتادة قال في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ قال: «هو الاستئذان ثلاثًا من لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن

---

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب» كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٥، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٤٦٦. ونسبه ابن كثير أيضًا إلى النسائي انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٦ وقال بعد سياق الحديث: «وقد روي من وجه آخر فهو حديث جيد قوي» وقال الألباني: «ضعيف الإسناد».

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان- التسليم والاستئذان ثلاثًا ٢٠٦٢، ومسلم في الآداب- الاستئذان ٢١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٨١.

شاؤوا أذنوا، وإن شاؤوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر»[١].

والمقصود أن المستأذن إن أذن له في الأولى، أو الثانية، أو الثالثة دخل، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة فلينصرف، لكن لا يلزم إذا أذن له في المرة الأولى، أن يستأذن ثانية وثالثة. فإن استأذن ثلاثًا وعلم أنهم سمعوه، أو غلب على ظنه لا ينبغي أن يزيد على الثلاث وإن علم أنهم لم يسمعوه أو غلب على ظنه نظرًا لكبر المنزل، ونحو ذلك فقيل ليس له أن يزيد على الثلاث[٢].

والأظهر- والله أعلم- أن له أن يزيد على الثلاث؛ لأن المقصود بالاستئذان إسماع أهل البيت صوت المستأذن، ولهذا قال في الحديث: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له» فقوله: «فلم يؤذن له»، أي: بعد سماعهم لاستئذانه، فإذا لم يسمعوه، فكأنه لم يستأذن وإنما حدده الشرع بثلاث؛ لأن الغالب- والله أعلم- أن الثلاث كافية لإسماع أهل البيت وبخاصة إذا كان البيت صغيرًا كبيوت الصحابة- رضي الله عنهم- آنذاك. لئلا يحرج أهل البيت ويضايقهم ويزعجهم. أما إذا لم يسمعوه فلا بأس بالزيادة على الثلاث؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

وأيضًا فإن من كمال الاستئذان أن يُعرِّف المستأذن أهل البيت بنفسه، بقوله: أنا فلان ونحو ذلك؛ لأن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وقد يرغبون بدخول أحد دون أحد، وعلى هذا دلت السنة.

فعن جابر بن عبد الله- رضي الله تعالى عنه- قال: «أتيت النبي ﷺ في دَين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا»؟ قلت أنا. قال: «أنا، أنا» كأنه كرهه»[٣].

كما أن من آداب الاستئذان عدم وقوف المستأذن أمام الباب بحيث إذا فتح الباب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦- الأثر ١٤٣٤٧. والبيهقي في «شعب الإيمان» ٥/ ٣٩. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ١٧٥- ١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان- باب: إذا قال: من ذا؟ قال: أنا ٦٢٥٠، ومسلم في الآداب- كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل له: من هذا؟ ٢١٥٥، وأبو داود في الأدب- الرجل يستأذن بالدق ٥١٨٧، وابن ماجه في الأدب ٣٧٠٩، وأحمد ٣/ ٣٦٣. وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٨.

يطلع على ما بداخل البيت.

فعن عبد الله بن بسر- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور»[١].

وعن هزيل قال جاء رجل، وعن عثمان بن أبي شيبة قال: سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب- قال عثمان: مستقبل الباب، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك- أو: هكذا- فإنما الاستئذان من النظر»[٢].

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- : أن رجلاً اطلع من جحر في دار النبي ﷺ، والنبي ﷺ يحك رأسه بالمدرَى[٣] فقال: «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الأبصار» وفي رواية: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»[٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح»[٥].

كما أن من آداب الاستئذان أن يكون في وقت مناسب، فلا يكون في وقت الصلاة ولا في وقت النوم في الليل أو في الظهيرة، ولا في وقت الغداء أو العشاء ونحو ذلك.

فهذا الذي ينبغي عند دخول بيوت الآخرين: السلام والاستئذان.

أما عند دخول الإنسان على أهل بيته، من والدين وزوجة وأولاد وغيرهم فإنه يسن أن يشعرهم بدخوله، بما يدل على ذلك من قول أو فعل أو كليهما؛ لئلا يقع نظره على عوراتهم.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس: «أستأذن على أخواتي أيتام في

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٦ وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الاستئذان ٥١٧٤، ٥١٧٥، وصححه الألباني.

(٣) المِدْرَى: آلة يحك بها الرأس.

(٤) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٢٤، ومسلم في الآداب ٢١٥٦، والنسائي في القسامة ٤٨٥٩، والترمذي في الاستئذان ٢٠٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في الديات- من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب- تحريم النظر في بيت غيره ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦١.

حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضًا، فقال أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن»[١].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم الإذن على أمهاتكم»[٢].

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنها- قالت: «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه»[٣].

وعن أبي عبيدة قال: «كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم، ورفع صوته»[٤].

وعن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- أنه قال: «إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه»[٥].

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: « نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً»، وفي رواية: «يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»[٦].

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل، فقال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً، أي: عشاءً كي تمتشط الشعثة وتستحد المُغِيْبَة»[٧].

ولا منافاة بين هذين الحديثين وما جاء في معناهما من الأحاديث فالنهي فيها لمن طال سفره أن يباغت أهله في الدخول ليلاً وأما قوله ﷺ: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً أو عشاء»

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١ «إسناد صحيح».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٦) أخرجه البخاري في العمرة ١٨٠١، ومسلم في الإمارة- كراهة الطروق وهو الدخول ليلاً- لمن ورد من سفره ٧١، وأبو داود في الجهاد ٢٧٧٦، والترمذي في الاستئذان- كراهية طروق الرجل أهله ليلاً ٢٧١٢.

(٧) أخرجه البخاري في النكاح- باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة ٥٠٧٩، ومسلم في الإمارة- كراهة الطروق- ٧١٥.

فهذا بعد قدومهم نهارًا: فأمرهم بالانتظار ليبلغ خبر قدومهم أهليهم ويستعدوا لهم[1].

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ الإشارة إلى عدم دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئناس والسلام أي: الاستئذان والسلام خير لكم أيها المؤمنون من الهجوم على البيوت دون استئذان وسلام، فالاستئذان والسلام خير للمستأذن ولأهل البيت، لما يترتب على الاستئذان والسلام من مصالح دينية ودنيوية، ولما يترتب على تركهما من مفاسد دينية ودنيوية.

وقوله: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ اسم تفضيل مقصود به تحقيق الوصف أي: أن الخير في الاستئذان والسلام، لا في الدخول دون ذلك.

وليس معنى ذلك أن في الدخول بلا استئذان وبلا سلام شيئًا من الخير، بل إن الاستئذان واجب، والدخول بلا استئذان لا يجوز؛ والتفضيل قد يكون بين طرفين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان:٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥] أي: هو العدل، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم:٢٧]، أي: هو هين عليه سبحانه وتعالى.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتذكروا وتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾ الفاء: عاطفة أي: فإن لم تجدوا في بيوت الغير أحدًا منهم يأذن لكم بالدخول، أو لم يجبكم أحد.

﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والنهي هنا للتحريم فلا يجوز دخول بيوت الغير حتى في حال غيابهم إلا بإذنهم، لما في ذلك من التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾، أي: حتى يؤذن لكم بالدخول بأن يحضر أهل البيت بعد غيابهم، فيأذنوا لكم.

---

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي ١٣/ ٧١- ٧٢، «فتح الباري» ٩/ ١٢٣.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾، أي: وإن قيل لكم من قبل أهل البيت: ﴿ٱرْجِعُواْ﴾، ولم يأذنوا لكم بالدخول

قال ابن كثير[١]: «أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده»

﴿فَٱرْجِعُواْ﴾، أي: عودوا، وانصرفوا من حيث جئتم، ولا تقفوا على أبواب الناس، والأمر هنا للوجوب، فإذا استأذنوا ثلاثًا، ولم يؤذن لهم وجب عليهم الرجوع والانصراف، وعلى هذا دلت السنة- كما سبق.

بل إن في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ بالبناء للمفعول ما يدل على أن على المستأذن الرجوع بمجرد سماعه من داخل البيت من يقول: ارجع أيًا كان القائل سواء كان ممن له حق الإذن أم لا.

والمعنى: فارجعوا من غير إلحاح، ولا مضايقة لأهل البيت، مع سلامة الصدور، وتقدير ظروف أهل البيت، والتماس العذر لهم، كما قال قتادة: «ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر»[٢].

فإن من الناس من إذا استأذن على أحد، ولم يؤذن له غضب وأرعد وأزبد، وتكلم في أهل البيت، وربما اتهمهم بأنهم يكرهونه، أو بما هو أسوأ من ذلك.

﴿هُوَ﴾، أي: رجوعكم ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، «أزكى»: أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وليس فيه ما يدل على أن في عدم رجوعهم شيئًا من الزكاء.

ومعنى ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي: رجوعكم أطهر لكم أي: أطهر لقلوبكم وأعمالكم، وأعظم لثوابكم، وأكثر خيراً وبركة لكم، لما في ذلك من طاعة الله عز وجل وعدم مضايقة أهل البيت؛ ولأن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل.

قال قتادة: «قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: «ارجع» فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾»[٣].

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

وكما أن على المستأذن الرجوع، إذا لم يؤذن له مع سلامة الصدر على أهل البيت، وحسن الظن بهم، وتقدير ظروفهم، والتماس العذر لهم، فإن على أهل البيت وهم المستأذن عليهم تقدير ظرف المستأذِن، وتطييب خاطره، والإذن له ما أمكن ذلك، فإن ذلك لا شك أسلم للصدور، وأقرب للمودة والألفة، وأبعد عن الكراهة والجفوة، فإن للشيطان مداخله ووساوسه بين الناس. وقد يكون هذا المستأذن جاء من بعد، أو لصلة قرابة، أو صداقة أو لحاجة ملحّة ونحو ذلك.

والخلاصة أنه ينبغي على المستأذِن مراعاة الآداب التي دل عليها الكتاب والسنة، والحكمة فيها.

كما أن على المستَأذَن عليه مراعاة حقوق المستأذِن، وعلى كل منهما التسامح مع الآخر، والعفو عما قد يحصل منه من تقصير، وحسن الظن به والتماس العذر له.

وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه[1]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ «ما» مصدرية أو موصولة، أي: والله بعملكم، أو بالذي تعملون عليم، أي: وهو عليم بجميع أعمالكم؛ باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن امتثل أمر الله عز وجل بالاستئذان وغيره، ووعيد لمن خالف أمر الله بترك الاستئذان وغيره.

و﴿عَلِيمٞ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة علم الله عز وجل وإحاطته بالأشياء كلها، في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه:٩٨].

ولما سئل موسى- عليه السلام- عن القرون الأولى قال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ص٩٣، «زهر الآداب» للحصري ١/ ٥٥، «نهاية الأرب» للنويري ٣/ ٩٤.

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

بعد ما نهى الله عز وجل في الآيتين السابقتين عن دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان، بيَّن في هذه الآية أنه لا حرج في دخول البيوت التي تكون غير مسكونة، كأنها مشاعة، إذا كان لهم فيها متاع بغير إذن، فكأن هذه الآية استثناء من الآية قبلها.

قال ابن كثير[1]: «هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت، التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن فيه أول مرة كفى».

سبب النزول:

قال الواحدي[2]: «قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾، الآية».

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: ليس عليكم حرج ولا إثم، ولا تضييق.

﴿أَن تَدْخُلُواْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: ليس عليكم جناح في دخول بيوت غير مسكونة. وذلك لزوال المحذور.

﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، أي: ليس فيها ساكن.

﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾، أي: فدخولكم فيها لأجل المتاع، وليس لغير حاجة، والمراد بالمتاع هنا: المتعة، والتمتع فيها، وذلك بالاستكنان فيها من الحر والبرد والرياح والمطر ونحو ذلك.

وقيل المراد بالمتاع ما يتمتع به وينتفع به من مطعم أو مشرب أو ملبس أو فراش أو غير ذلك من الأثاث وغيره.

لكن الأظهر أن المراد بالمتاع التمتع بالنزول فيها، والاستكنان من الحر والبرد

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

(٢) في «أسباب النزول» ص ٢١٩.

والرياح والمطر، والاستراحة فيها لأكل أو نوم ونحو ذلك[1].

ولا منافاة بين المعنيين لو حملت الآية عليهما معًا. وكل ذلك يسمى متاعًا؛ لأن الإنسان يتمتع به، أي: ينتفع وقتًا قد يطول أو يقصر، ثم ينتهي بزوال هذا المتاع وانتهائه، أو بزوال الإنسان وفنائه. والبقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال تعالى عن الدنيا كلها: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٧]، [النحل:١١٧].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

«ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تظهرون، والذي تخفون وتبطنون.

وقد تكون مصدرية، أي: والله يعلم إبداءكم، وكتمانكم، أي: إظهاركم، وإخفاءكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء:١١٠].

فهو عز وجل يعلم ما يظهره الخلق من الأقوال والأفعال وما يكتمونه من ذلك وغيره، وعلمه عز وجل بما يُسر كعلمه بما يُبدى ويُظهر؛ لأن السر والعلانية عنده سواء.

قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٧]

وفي الآية وعد ووعيد، فمن علمه عز وجل بما يظهره العباد وما يخفونه، أنه سيحاسبهم على أعمالهم الظاهرة والخفية، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ولا يظلم ربك أحدًا.

فهذه الآية أظهر في الشمول وأشد في التوكيد وأعظم في الوعد والوعيد من قوله في الآية السابقة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما جاء بعده من الطلب أمرًا كان أو نهيًا، أو كليهما يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢١.

يعد نقصًا في الإيمان.

٣- عدم جواز دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾؛ حرمة لحقوق الآخرين وممتلكاتهم وأحوالهم وأسرارهم، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه»[1].

وفي رواية: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فلا دية ولا قصاص»[2].

فمن أراد دخول بيوت الغير وجب عليه الاستئذان.

٤- إذا استأذن الطارق على أهل البيت فأذنوا له جاز له الدخول، وجعل بعض أهل العلم مثل هذا في الحكم ما لو أرسل رسولاً لأحد يدعوه للحضور إلى بيته، فهذا بمثابة الإذن له؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»[3].

وهذا محمول قطعًا على حال لا يحتاج معها إلى الاستئذان، كأن يكون المدعو في مكان قريب، أو ضمن أناس ربما كانوا وقوفاً على الباب ونحو ذلك.

ولا يمكن أن يحمل الحديث على أن إرسال الرسول يكفي عن الإذن مطلقاً، حتى ولو طال الفصل، واختلف الوقت وتبدلت الأحوال، بل يجب الاستئذان على الرسول والمرسل إليه.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: دخلت مع رسول الله ﷺ، فوجد لبنًا في قدح، فقال: «أبا هر، الحق أهل الصفة، فادعهم، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا،

---

(١) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦٠.

(٢) أخرجه النسائي في القسامة ٤٨٦٠، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ٥١٨٩.

وأخرجه البخاري- معلقاً- في الاستئذان- باب إذا دعي الرجل فجاء هل يستأذن. انظر: «فتح الباري» ١١/ ٣١.

فاستأذنوا، فأذن لهم فدخلوا»[1].

٥- جواز دخول الناس بيوتهم بغير استئذان؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.

أما السلام فإنه يسن عند دخول بيوتهم وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١].

٦- أن الاستئذان والسلام عند إرادة دخول بيوت الغير خير للمستأذِن ولأهل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وذلك لما فيه من احترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على أحوالهم إلا بإذنهم، إلى غير ذلك مما هو طاعة لله عز وجل، وسبب للألفة والمحبة بين المستأذِن وأهل البيت، وامتثال أمر الله واكتساب الأجر.

بخلاف ما لو فاجأ القادم أهل البيت بلا استئذان، فإنه قد يطلع على عوراتهم، أو على شيء من أحوالهم، التي لا يريدون الاطلاع عليها، وربما ظُن به إرادة الشر، كالسرقة، وهتك الأعراض، وغير ذلك. والسلامة لا يعدلها شيء.

٧- أن الله عز وجل شرع الاستئذان والسلام عند دخول بيوت الغير لأجل التذكر والاتعاظ، والتأدب بآداب الشرع، واحترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على عوراتهم وأسرارهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٨- عدم جواز دخول بيوت الغير إذا لم يكن فيها أحد منهم، حتى يأذنوا بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٩- إذا لم يؤذن للمستأذِن من قبل أهل البيت، أو قيل له ارجع وجب عليه الرجوع والانصراف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

١٠- كما أن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شاؤوا، فلهم أن يردوا من شاؤوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

مع وجوب مراعاة حقوق القادم وحاجته ومشاعره، ما أمكن ذلك، فليس الأمر على إطلاقه.

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٦٢٤٦.

١١- أن رجوع المستأذِن إذا لم يؤذن له، وقيل له ارجع هو أطهر للمستأذِن، ولأهل البيت، لقلوبهم وأعمالهم، وأعظم لثوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

١٢- علم الله عز وجل التام المحيط بكل شيء من أعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء.

١٣- جواز دخول البيوت التي لا ساكن فيها، والتي فيها متاع للداخل بلا استئذان؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

١٤- أن دخول البيوت حتى غير المسكونة ينبغي أن يكون لحاجة، كوجود متاع للداخل فيها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

١٥- علم الله عز وجل المحيط بما يظهره العباد، وما يخفونه ويبطنونه، وأنه عز وجل سيحاسبهم على ذلك ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

١٦- فيما شرعه الله عز وجل من أحكام الاستئذان وآدابه دليل على حرص الشرع المطهر، والدين الإسلامي الحنيف على حماية بيوت الآخرين وحقوقهم، وحفظ الأسرار والأحوال الخاصة بهم، وحرصه على أن تسود المحبة والألفة بين المسلمين، وعلى كل ما يقوي الروابط بين أفراد المجتمع، وصيانته عن كل ما يسبب التفكك بين أفراده، ويوجد العداوة والبغضاء بينهم، والقضاء على تلك الأسباب في مهدها، بل قبل وجودها بما شرعه من أحكام وآداب، فيها لمن أخذ بها السعادة في الدنيا والآخرة. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن دخول بيوت الغير دون استئذان، وذلك لئلا تقع أبصارهم وأسماعهم على ما لا يحب أهل البيت الاطلاع عليه، أو سماعه من أسرارهم وأحوالهم الخاصة وعوراتهم، وفي الحديث: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»[(١)].

ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين والمؤمنات عمومًا بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأمر المؤمنات خاصة بعدم إبداء زينتهن وبالحجاب والتستر وذلك من أعظم الأسباب للبعد عن الفاحشة والسلامة منها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: قل يا محمد للمؤمنين المصدقين المنقادين بقلوبهم وجوارحهم، ظاهرًا وباطنًا.

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الغض: القصر والنقص، وغض البصر بمعنى كفه ومنعه عن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، وذلك بخفضه إلى الأرض، أو صرفه يمينًا وشمالاً. وأصل غض البصر: إرخاء الجفن على الجفن بحيث يضعف النظر قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا[(٢)]

وقال عنترة[(٣)]:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لجرير يهجو الراعي النميري. انظر: «ديوانه» ٢/ ٨٢١ شرح محمد بن حبيب.

(٣) انظر: «شرح ديوان عنترة» للخطيب التبريزي ص٢٥.

وأغـض طـرفي إن بـدت ليَ جـارتي　　حتـى يـواري جـارتي مأواهـا

وغض البصر: كفه عن النظر إلى المحرمات من النساء الأجنبيات، والمرْدَان من الذكور، وغير ذلك من المحرمات، كالنظر إلى ما تبثه القنوات والفضائيات من أفلام الدعارة والعري والفحش، ومن صور فعل الفواحش بين الجنسين أو بين الجنس الواحد، أو بينهما وبين الحيوانات، وغير ذلك مما قد يؤدي إلى الفتنة، حتى ولو كان ذلك في الأصل مباحًا، كنظر المرأة إلى المرأة، والرجل إلى الرجل، والنظر إلى المملوك، ونحو ذلك، فمتى أدى النظر إلى خوف الوقوع في الفتنة وجب غضه.

و«من» للتبعيض، أي: يغضوا أبصارهم عما يحرم، ويقتصروا فيها على ما يحل، مما شرع الله أو أباح النظر إليه، ومن ذلك النظر في آيات الله، ونظر الخاطب إلى مخطوبته، ونحو ذلك[(١)].

عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري»[(٢)].

وفي رواية لبعضهم: «أطرق بصرك»[(٣)] يعني انظر إلى الأرض.

قال ابن كثير[(٤)]: «والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى».

وعن سليمان بن بريدة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[(٥)].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٣٦، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في الآداب- نظر الفجاءة ٢١٥٩، وأبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر ٢١٤٨، والترمذي في الاستئذان- ما جاء في نظر الفجاءة ٢٧٧٦، وأحمد ٤/ ٣٦١.

(٣) ذكرها ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٣.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٤٣.

(٥) أخرجه أبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر ٢١٤٩، والترمذي في الباب السابق ٢٧٧٧، وقال: «غريب» وحسنه الألباني.

البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر»[١].

وعن أبي أمامة الباهلي- رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»[٢].

وإنما أمر الله عز وجل بالغض من الأبصار، بل وقدم ذلك على الأمر بحفظ الفروج؛ لأن غض البصر من أعظم الوسائل لحفظ الفروج؛ ولأن النظر داعية إلى فساد القلب، وفي الأثر: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم»[٣].

فالنظر وإطلاق البصر هو أول وأعظم أسباب الفتنة والوقوع في المحرم، كما قيل:

ألم تر أن العين للقلب رائد ... فما تألف العينانِ فالقلب آلف[٤]

وكما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر[٥]

ولهذا يحرم أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد إذا كان ذلك يسبب الافتتان به[٦].

وما لهث لاهث وراء الفحش والجريمة إلا بسبب سعار النظر إلى الأجنبيات، أو متابعة ما تبثه القنوات والمواقع من الفحش والعري، وهابط المسلسلات.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه

(١) أخرجه البخاري في المظالم- باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات ٢٤٦٥، ومسلم في اللباس- النهي عن الجلوس في الطرقات ٢١٢١، وأبو داود في الأدب ٤٨١٥.

(٢) أخرجه أبو القاسم البغوي فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٤.

(٣) سيأتي بتمامه وتخريجه قريبًا.

(٤) البيت ينسب لمضرس الربعي. انظر: «الحماسة البصرية» ٢/ ٢٠٣٣. وينسب لعبد الله أو عبيد الله بن طاهر. انظر: «الدر الفريد» ٥/ ٦٥، ٦/ ١٧٧.

(٥) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٢٤- ٦٢٩.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٥.

من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[(١)].

وقد ذكر ابن تيمية- رحمه الله- أن حفظ البصر عن الصور التي نهي عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ثلاث فوائد جليلة: حلاوة الإيمان التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وثانيها: نور القلب وفراسته، وثالثها: قوة القلب وثباته وشجاعته[(٢)].

﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، أي: ويحفظوا فروجهم مطلقًا، من الفواحش كالزنا واللواط، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥- ١٦٦].

ويحفظوا فروجهم أيضًا من الاستمناء باليد ونحو ذلك، ومن مسها باليد لغير حاجة، ومن كشفها ينظر إليها بلا حاجة.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك». فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «فإن استطعت ألا يراها أحد فافعل». قلت: الرجل يكون خاليًا؟ قال: «فالله أحق أن يستحيا منه»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان- زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر- قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ما يؤمر به من غض البصر ٢١٥٢، وأحمد ٢/ ٢٧٦، ٣٤٣.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٦٦- ٤٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الحمام- ما جاء في التعري ٤٠١٧، والترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح- التستر عند الجماع ١٩٢٠، وأحمد ٥/ ٣، ٤ وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «تفسير ابن

وأمر هنا بحفظ الفروج مطلقًا، بينما أمر بالغض من الأبصار؛ لأن أمر النظر أوسع، وأما أمر الفروج فمضيق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للأمرين السابقين وهما غض الأبصار، وحفظ الفروج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، أي: أطهر لهم. و«أزكى» أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وهو طهارتهم، إذ ليس في عدم غض الأبصار وعدم حفظ الفروج شيء من الفضل البتة.

والمعنى: أن غض الأبصار وحفظ الفروج أطهر لقلوبهم وأعمالهم، وأنقى لدينهم من رجس ونجاسة الذنوب، فإن في البعد عن المنهيات، مع فعل الطاعات زكاة القلوب والنفوس وطهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩- ١٠].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوفًا من الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»(١).

وقد قيل: «من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته أي: في قلبه»(٢).

قال السعدي(٣): «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره أنار الله بصيرته».

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل واطلاعه على كل شيء؛ لأن الخبير هو المطلع على دقائق الأمور وبواطنها وخفياتها، وإذا كان مطلعًا على الدقائق والبواطن والخفيات فاطلاعه على الجلائل والظواهر والجليات من باب أولى.

«بما»: الباء حرف جر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله خبير بالذي يصنعون، أو بصنعهم.

أي: إن الله عز وجل خبير بعملهم وقولهم، مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية،

كثير» ٦/ ٤٤ وحسنه الألباني.

(١) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٥. وروي أيضًا من حديث حذيفة- رضي الله عنه- انظر: «كشف الخفاء» ٢/ ٤٥٥.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٤.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٩.

من غض الأبصار، وحفظ الفروج وعدمه، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قال الشاعر[١]:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

وفي الآية وعد لمن امتثلوا أمر الله عز وجل، فغضوا أبصارهم، وحفظوا فروجهم، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾.

قال ابن كثير[٢]: «هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية، وفعال المشركات».

قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، والأمر للنبي ﷺ.

و«المؤمنات»: المصدقات المنقادات لأمر الله. أي: وقل للنساء المؤمنات المصدقات المنقادات لشرع الله باطنًا وظاهرًا.

وقدم قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ الآية على قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، إشارة إلى فضل الذكور على الإناث، وأفرد النساء بخطاب خاص، فلم يقل: «قل للمؤمنين والمؤمنات» عناية بغض الأبصار، وحفظ الفروج، وتأكيدًا لوجوب ذلك.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٦.

وأفرد النساء بخطاب خاص أيضًا مع أنهن يدخلن في الخطاب العام للمؤمنين- غالبًا- للتوكيد على وجوب ذلك في حقهن، والإشارة إلى أهمية الأمر وخطورته بالنسبة لهن.

و«من» في قوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ للتبعيض كسابقتها، أي: يغضضن أبصارهن من النظر المحرم كالنظر إلى الرجال الأجانب، والنظر إلى صور الفجور والفحش والعري، مما يفعله من لا خلاق لهم من الرجال والنساء، وما يبثه دعاة الرذيلة والفساد في القنوات الفضائية وعبر الشاشات المدمرة.

فلا يجوز للنساء المؤمنات النظر إلى الرجال الأجانب، وتكرار النظر إليهم، وتحديد البصر فيهم، فإن ذلك من أعظم أسباب افتتانهن بالرجال.

فإن كان النظر من المرأة بشهوة، فهذا محرم بدليل الآية والإجماع، وإن كان نظر المرأة إلى الرجال بغير شهوة فقد اختلف أهل العلم في هذا: فذهب الأكثرون منهم إلى أنه لا يجوز أن تنظر المرأة إلى الرجال الأجانب، حتى ولو كان بغير شهوة مستدلين بقوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾

وبما روت أم سلمة- رضي الله عنها- أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى، لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه»[(١)].

وذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز نظر النساء إلى الرجال الأجانب إذا كان بغير شهوة لما ثبت في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني، وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد»[(٢)].

وهذا هو الراجح- والله أعلم- ما لم يترتب على ذلك فتنة.

والحقيقة أن نظر النساء إلى الرجال، ونظر الرجال إلى النساء غالبًا قد يكون سببًا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس- باب قول الله- عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ ٤١١٢ والترمذي في الأدب ٢٧٧٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٨٨ ومسلم في صلاة العيدين- الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ٨٩٢، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٩٥.

لافتتان كل منهما بالآخر، ولهذا فإن الفيصل في هذا كله- والله أعلم- في حكم نظر كل من الجنسين إلى الآخر هو قوله ﷺ: لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»(١).

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش من الزنا والسحاق، وعن مسها، وكشفها لغير أزواجهن، وبلا حاجة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة:١٢].

وفي الحديث: «إذا صلت المرأة خمسها، وحجت فرضها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي مع أي أبواب الجنة شئت»(٢).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، أي: ولا يظهرن زينتهن للأجانب، والزينة في الأصل كل ما يتزين به، من الزينة الخلقية، كالوجه ونحوه، مما هو من نفس البدن، والزينة المكتسبة، من الثياب والحلي كالسوار في المعصم والخاتم في الأصبع والقرط في الأذن والخلخال في الساق، والكحل والخضاب(٣)، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، أي: أومن ينشأ في الزينة، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

والمعنى: ولا يظهرن زينتهن سواء كانت خلقية أو مكتسبة.

ويخصص بعضهم الزينة بما كان مكتسباً، والحقيقة أن أصل الزينة وأهمها الزينة الخلقية، وأهمها زينة الوجه؛ لأنه يجمع المحاسن، إضافة إلى الزينة المكتسبة.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، وهو الثياب الظاهرة، كالرداء والعباءة، وغير ذلك من الملابس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٩١- من حديث عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/ ٣٠٦، وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح» ورجح أحمد شاكر أن في إسناد أحمد انقطاعًا.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٦، «الكشاف» ٣/ ٦١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢٩.

الظاهرة، وما ظهر منها من غير قصد[١]. ويدل على إطلاق الزينة على الثياب الظاهرة قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١].

وقال بعضهم: المراد بـ«ما ظهر منها»: الوجه والكفان، وسيأتي تفصيل هذا في الفوائد والأحكام.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، ومعناه الوجوب.

و«الخُمُر» جمع خمار، وهو ما يُخمّر به، أي: يغطى به الرأس والوجه، كما في قول عائشة- رضي الله عنها- : «فخمرت وجهي بجلبابي وكان رآني قبل الحجاب»[٢].

﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «جِيوبهن» بكسر الجيم، وقرأ الباقون بضمها[٣].

والجيوب: جمع جيب، وهو شق في طول القميص من جهة الصدر يسمى طوق القميص[٤].

والمعنى: وليلقين بخمرهن ويسدلنها ويرخينها على جيوبهن؛ لستر وجوههن وأعناقهن ونحورهن وصدورهن، وعبر بالضرب مبالغة في الأمر بالتستر.

وهذا يؤكد وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار إذا كان على الرأس، وسدل على الجيب ستر الوجه، فدل هذا على أن الخمار يجب أن يستر الرأس والجيب وما بينهما وهو الوجه.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها».

وفي رواية عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها»[٥].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» ٤/ ١٧٨، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٢) تعني صفوان بن المعطل- رضي الله عنه- وقد سبق تخريج هذا.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٢٢٦.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٨، «لسان العرب» مادة «جوب».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٩، وأبو داود في اللباس باب قوله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ٤١٠٢، والطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٩٤.

وفي رواية عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «إن لنساء قريش لفضلاً- وإني- والله- ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، وأشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به،[١] تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[٢].

وقال السعدي[٣]: «﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن».

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرر النهي عن إبداء الزينة للتوكيد، ونظراً لتنوع الاستثناء، فنهى أولاً عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، ثم كرر النهي عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك بعض الأشخاص الذين يجوز إبداء الزينة لهم وهم المحارم.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: «إلا» أداة استثناء، والبعولة: جمع بعل، وهم الأزواج.

كما قالت سارة امرأة إبراهيم- عليه السلام- : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] أي: وهذا زوجي شيخًا كبيرًا.

والمعنى: ولا يظهرن زينتهن الباطنة إلا لأزواجهن، وغيرهم ممن ذكروا في الآية.

أما الزوج فله النظر إلى جميع بدن زوجته بلا استثناء؛ ولهذا قدم «بعولتهن»، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه، فيبادرني، حتى أقول: دع لي، دع لي: وهما جنبان»[٤].

---

(١) المرط: كساء من صوف، ومرحل: نقش عليه تصاوير الرحال، واعتجرت به، أي: شدته على رأسها، والمعجر: الثوب الذي يشد على الرأس انظر: «لسان العرب» مادة «مرط» و«رحل» و«عجر».

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس- باب ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] ٤١٠٠، ٤١٠١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٨- ٤٩ وصححه الألباني.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

(٤) أخرجه مسلم في الحيض ٣٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤١٤.

ومثله السيد؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن البعل يطلق على السيد واستدل بما رُوي في حديث جبريل- عليه السلام- في أمارات الساعة: «إذا ولدت الأمة بعلها»[١].

ويستأنس لهذا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥- ٦]، [المعارج:٢٩- ٣٠].

أما غير الزوج من المحارم المذكورين في الآية فليس له النظر إلا إلى ما ليس بعورة.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ «أو» عاطفة، في هذا وما بعده و«آبائهن» يشمل الآباء، والأجداد وإن علوا، سواء كانوا من جهة الأب، أو من جهة الأم.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي: أو آباء أزواجهن، سواء كانوا آباءهم الأدنين أو أجدادهم، من جهة الآباء، أو من جهة الأمهات، وإن علوا.

﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يشمل أبناءهن، وأبناء أولادهن، وإن نزلوا.

﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي: أو أبناء أزواجهن، ويشمل أبناء الأزواج، وأبناء أولادهم، وإن نزلوا، شريطة دخول أبيهم بهذه المرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣].

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾، أي: أو بني إخوانهن، وبني أولادهم، وإن نزلوا، سواء كان الإخوة أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، أي: أو بني أخواتهن، وبني أولادهن، وإن نزلوا، سواء كانت الأخوات شقيقات، أو لأب، أو لأم.

فهؤلاء المذكورون كلهم محارم للمرأة يجوز لها إبداء الزينة وإظهارها لهم من غير تبرج.

قال ابن كثير[٢]: «كل هؤلاء محارم المرأة يجوز أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج».

ويختلف الأزواج عن غيرهم من هؤلاء المحارم- كما سبق بيانه- فإن للمرأة أن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٩.

تبدي لزوجها من زينتها ما ظهر منها وما خفي، وجميع محاسن جسمها.

وليس بين الزوجين عورة يجب أن يسترها أحدهما عن الآخر، فلهما أن يجتمعا في لحاف وثوب واحد، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

كما أن المحارم غير الأزواج يختلفون فيما بينهم في درجة المحرمية، فالأب والابن والأخ أقوى محرمية من ابن الزوج وأبيه.

قال القرطبي[١]: «وتختلف مراتب ما يبدى لهم، فيبدى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج».

ولم يذكر في هذه الآية، ولا في آية سورة الأحزاب وهي قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الآية:٥٥] العم والخال، مع أن العم والخال من المحارم، كما دل على ذلك حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «جاء عمي من الرضاعة فاستأذن عليَّ فأبيت أن آذن له، حتى أسأل رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فقال: «إنه عمك فأذني له» قالت: فقلت: يا رسول الله، وإنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «إنه عمك فليلج عليك».

وعمها المذكور هو أفلح أخو أبي القعيس، كما جاء في بعض روايات الحديث[٢].

قيل: وإنما لم يذكر العم والخال اكتفاء بقوله: ﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فبنو إخوانهن هن عماتهم، وبنو أخواتهن هن خالاتهم.

فإذا ثبتت المحرمية للمرأة في حق من هي عمته وخالته، فثبوتها في حق من هو عمها أو خالها من باب أولى.

وأيضًا فإن العم بحكم الأب، لهذا قال ﷺ لعمر: «أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه»[٣].

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح- ما يحل من الدخول والنظر إلى النساء من الرضاع ٥٢٣٩، ومسلم في الرضاع- يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ١٤٤٥، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٧، والنسائي في النكاح ٣٣١٥ والترمذي في الرضاع ١١٤٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة ـ٩٨٣، وأبو داود في الزكاة- تعجيل الزكاة ١٦٢٣، والنسائي في الزكاة ٢٤٦٦،

وقد سُمي إسماعيل- عليه السلام- في القرآن أبًا ليعقوب- عليه السلام- وهو عمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

فإسماعيل عم يعقوب؛ لأن إسماعيل وإسحاق من أبناء إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، المراد بهذا: ما يشمل جميع النساء مؤمنات أو غير مؤمنات؛ لأن للمرأة مطلقًا أن تنظر من المرأة ما ليس بعورة. كما أن للرجل أن ينظر من الرجل ما ليس بعورة، وهذا القول أظهر.

قال ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»(١).

وقيل: المراد: أو نسائهن المؤمنات فيجوز للمرأة أن تظهر زينتها عند غيرها من النساء المؤمنات، دون نساء المشركين والكفار، ونساء أهل الكتاب؛ لأنهن قد يصفنهن لرجالهن؛ لأنهن لا يرين في ذلك مانعًا. بخلاف النساء المؤمنات فلا يفعلن ذلك لعلمهن بحرمته في الإسلام(٢).

واستدل بعضهم على هذا بما رواه الحارث بن قيس، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي: «أما بعد، فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانْهَ من قبلك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها»(٣).

فإن خيف افتتان النساء بعضهن ببعض، أو خيف أن تصف بعضهن صفات الأخريات للرجال، وجب عدم إظهار الزينة عندهن، حتى ولو كن مسلمات.

وأحمد ٢/ ٣٢٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠- من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٩- ٥٠.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها»(١).

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ أيمانهن: جمع يمين، واليمين في الأصل اليد اليمنى، والمراد: أو ما ملكن بأنفسهن؛ لأن اليمين وحدها لا تملك، وإنما أضيف الملك إلى اليمين تشريفًا لها؛ لأنها هي المنفقة، وهي المعطية الآخذة، كما في الحديث: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(٢).

والمعنى: أو ما ملكن من الرقيق، من الرجال والنساء فيجوز لهن إظهار زينتهن أمامهم، كما يظهرنها لمحارمهن ونسائهن، وعلى هذا دلت السنة.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»(٣).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»(٤).

ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن له ما يؤدي فلا تحتجب منه؛ لأنه باق على أصل الرق، ومن باب أولى إذا كان مملوكًا لم يكاتب.

وعلى هذا القول دل ظاهر الآية، وهذه الأحاديث، وهو قول أكثر السلف وأهل العلم(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح- لا تباشر المرأة المرأة ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس- في العبد ينظر إلى شعر مولاته ٤١٠٦ وصحح إسناده الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في العتق، في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت ٣٩٢٨، والترمذي في البيوع ١٢٦١، وابن ماجه في الأحكام ٢٥٢٠، وأحمد ٦/ ٢٨٩. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٦٥- ٢٦٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣- ٢٣٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

وقيل المراد بقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء خاصة دون الرجال المملوكين، فكأنه تبع؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ فيكون المعنى: «أو نسائهن» من الحرائر ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء.

والأظهر القول الأول لكن لو خيفت الفتنة، من إظهار الزينة عند المملوك وجب سترها، بل لو خيفت الفتنة عند إظهار الزينة حتى عند المملوكة وجب سترها، كما هو الحال بالنسبة للمحارم ونساء المرأة الحرائر.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، أي: أو التابعين لهن، أو لأهل بيوتهن من الأُجراء، أو البله وخفاف العقول، الذين لا يتنبهون لمحاسن النساء، وكالشيخ الكبير ونحوهم.

﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بنصب الراء من «غيرَ» على الاستثناء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿غَيۡرِ﴾، على أنها صفة لـ«التابعين»[1].

﴿أُوْلِي﴾، أي: أصحاب، ﴿ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ هي في الأصل: الحاجة إلى الشيء، أَيَّ شيء كان[2]، وجمعها: إِرَب، ومنها: المَأْرُبَة، وجمعها: مآرب؛ كما في قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه:١٨] أي: حاجات أخرى.

والمراد بـ«الإربة» في الآية: الحاجة إلى النساء، ومنه قول عائشة- رضي الله عنها- : «كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه»[3]، وفي رواية عنها: «فأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه»[4].

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أي: البالغين.

وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أي: غير أصحاب الحاجة إلى

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٩، «النشر» ٢/ ٣٣٢.
(٢) انظر مادة «أرب» في «النهاية»، «لسان العرب».
(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٢٧، ومسلم في الصيام ١١٠٦، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٢، والترمذي في الصوم ٧٢٨، وابن ماجه في الصوم ١٦٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في الحيض ٣٠٢.

النساء من الرجال، وهو الرجل الذي لا شهوة له، وليس لديه الداعي إلى النساء[١].

وعن أم سلمة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية، والمخنث يقول لعبد الله: يا عبدالله بن أبي أمية إن فتح الله عليكم الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخل هذا عليك»[٢].

ويؤخذ من قوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أنه إذا خيفت الفتنة من إبداء الزينة لأي من المحارم المذكورين عدا الأزواج وجب سترها، حتى ولو كان ذلك عند بعض النساء[٣].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل: هو الذكر الصغير دون التمييز، وهو هنا اسم جنس يراد به الجمع، أي: الأطفال، بدليل وصفه بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧].

والعورات: جمع عورة، وهي في الأصل: كل ما يستحيا من إظهاره، ويسوء الإنسان اطلاع الآخرين عليه.

قال السعدي[٤]: «أو الطفل: الأطفال دون التمييز، دل على أن المميز يستتر عنه؛ لأنه يظهر على عورات النساء».

ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: لم يطلعوا بعد لصغرهم وعدم إدراكهم على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال وسماعهم منهن، فيجوز لهن إظهار

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٢٤، ومسلم في السلام- منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ٢١٨٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٢٩ وابن ماجه في النكاح ١٩٠٢، وأحمد ٦/ ٢٩٠. وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عائشة- رضي الله عنها- ٢١٨١، وأبو داود في اللباس، قوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾٤١٠٧، ٤١٠٩، وأحمد ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٠٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٢.

الزينة لهم، ومفهوم قوله: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أنهم لو ظهروا على عورات النساء لم يجز إبداء الزينة لهم.

قال ابن كثير[(١)]: «يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء» ثم ذكر ابن كثير قوله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمو[(٢)]؟ قال: «الحمو الموت»[(٣)].

قوله: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

نهى الله عز وجل المؤمنات في أول الآية عن إظهار زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا تستطيع المرأة إخفاءه، وأن لا يبدين زينتهن إلا لمن ذكروا في الآية من المحارم، أو نسائهن وما ملكت أيمانهن، ومن لا حاجة لهم في النساء، أو الأطفال الصغار الذين لم يظهروا على عورات النساء. بعد هذا نهى النساء المؤمنات أن يعمدن إلى إظهار الزينة الخفية بالأرجل تحت الثياب ونحو ذلك فقال:

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾، أي: ولا يضربن بأرجلهن عند المشي على الأرض بشدة وقوة، وليكن مشيهن مشيًا طبيعيًّا ومعتدلًا.

﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يعلم ﴿مَا يُخۡفِينَ﴾ «ما» موصولة، أي الذي يخفين من زينتهن من خلخال ونحو ذلك كما كانت تفعل ذلك نساء أهل الجاهلية، قال الشاعر:

تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرقٌ زُجل[(٤)]

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٢.

(٢) أي: قريب الزوج كأخيه، وعمه ونحو ذلك.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح- لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة ٥٢٣٢، ومسلم في السلام- تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ٢١٧٢ والترمذي في الرضاع ١١٧١- من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص ١٤٥.

والمراد هنا: لا يضربن بأرجلهن وأقدامهن ضربًا بشدة وقوة لأجل أن يعلم الذي يخفينه من زينتهن الخفية المستورة تحت الثياب، لما في ذلك من أسباب الفتنة، وإظهار ما يجب ستره أصلاً، وسواء كان ذلك عند المحارم ومن ذكر معهم في الآية، أو عند غيرهم؛ لأن النهي في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ مطلق.

لكن من المعلوم أن حصول ذلك منهن عند الرجال الأجانب أشد حرمة ونهيًا.

ويؤخذ من هذا أنه يجب على المرأة ستر زينتها ومحاسن جسمها التي الأصل فيها الستر، فلا يجوز لها لبس الثياب الرقيقة الشفافة التي تصف محاسن جسمها، ولا الثياب الضيقة التي تحدد أحجام جسمها، كثدييها، وإليتيها ونحو ذلك، وذلك كالبنطلون وغيره.

ولا الثياب القصيرة، التي تبدو منها بعض أعضاء المرأة، كالذراعين والعضدين والساقين والفخذين وغير ذلك.

وكذلك لا يجوز لها أن تتعطر وتتطيب عند خروجها من بيتها، سواء للمسجد، أو للمستشفى، أو لمناسبة، أو للسوق، أو لغير ذلك، لأن الضرب بالأرجل يحدث الفتنة بالسماع، والطيب يحرك الشهوة بالشم.

عن أبي موسى- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس، فهي كذا وكذا- يعني زانية»[1].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار[2]، فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»[3].

وعن أبي أسيد الأنصاري- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو

---

(١) أخرجه أبو داود في الترجل- ما جاء في المرأة تتطيب للخروج ٤١٧٣، والترمذي في الاستئذان- ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة ٢٧٨٦، وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث «حسن صحيح»، وحسنه الألباني.

(٢) إعصار أي غبار.

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل ٤١٧٤، وابن ماجه في الفتن- فتنة النساء ٤٠٠٢ وصححه الألباني.

خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق- فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكنَّ أن تَحْقُقْنَ الطريق، عليكن بحافات الطريق، فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به»[١].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الأحكام، وحث على جملة من الآداب، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين جميعًا بالتوبة، مما فرط منهم، أو قصروا فيه من ذلك وغيره، فقال:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواو عاطفة، والأمر للوجوب. والتوبة: الإنابة والرجوع إلى الله عز وجل، الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى.

﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلاً وإسكانها وقفًا «أيهُ».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَيُّهَ﴾[٢].

أي: توبوا إلى الله كلكم يا أيها المؤمنون، بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك ما أمر الله عز وجل به في هذه الآيات من الصفات والأخلاق الجميلة، وما نهى عنه من الصفات الذميمة والرذيلة.

فالتوبة إلى الله واجبة على جميع المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

ويتأكد وجوب التوبة في حق من ارتكب ذنبًا، وكلما كان الذنب أشد كالشرك والكفر، والكبائر، كان وجوب التوبة آكد.

ومن الذنوب التي تجب التوبة منها، بل وتتأكد عدم غض البصر عن المحرمات، وعدم حفظ الفروج، وإبداء النساء زينتهن لغير المحارم، ومن ذكر معهم ممن يجوز لهن إبداء الزينة لهم، وضربهن بأرجلهن لإبداء ما خفي من زينتهن، وإبداء محاسنهن وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق ٥٢٧٢ وحسنه الألباني.

(٢) انظر: «الغاية في القراءات» ص ٣٣٩، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

فالتوبة واجبة على جميع المؤمنين، بشروطها، وهي:

الأول: الإقلاع عن المعصية، ومن لازم ذلك رد حقوق المخلوقين إليهم، والثاني: الندم على فعلها، والثالث: العزم على عدم العودة إليها، والرابع: أن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- : أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١).

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

والشرط الخامس: أن تكون خالصة لله عز وجل لا خوفًا أو رجاءً من مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر:٥٣- ٥٤].

وفي إيجاب التوبة إلى الله على جميع المؤمنين دلالة واضحة على أن الإنسان، لا يسلم من نقص وتقصير مهما قوي إيمانه ويقينه، ومهما احترز من الذنوب والمعاصي، ولهذا قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»، وفي رواية: «سددوا وقاربوا»(٣).

وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٥، وأحمد ٢/ ١٣٢، والحاكم ٢/ ٢٤٩، وصححه ووافقه الذهبي وصححه أحمد شاكر، والألباني.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧، ٢٨٢- من حديث ثوبان- رضي الله عنه- وصححه الألباني في «إرواء الغليل» حديث ٤١٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تفلحوا[١]، أو رجاء أن تفلحوا. والفلاح: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، وذلك بدخول الجنة والنجاة من النار، نسأل الله تعالى من فضله.

أي: توبوا وارجعوا إلى الله كلكم أيها المؤمنون، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والاستغفار والإنابة عما فرط منكم، لأجل أن تفلحوا وتفوزوا وتظفروا بالمطلوب وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من الشقاء في الدنيا والآخرة ومن دخول النار.

قال ابن كثير[٢]: «أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله».

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ لتصدير الخطاب في هذا بقوله تعالى: ﴿قُل﴾، زيادة على الأمر العام له ﷺ بالبلاغ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧].

٢- تكريم المؤمنين والمؤمنات وتشريفهم بوصفهم باسم الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأن امتثال الطلب بعده من مقتضيات الإيمان، وعدمه يعد نقصًا في الإيمان.

٣- وجوب غض البصر عن النظر إلى المحرمات؛ لقوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وهذا مطلق يشمل: غض الرجال والنساء أبصارهم عن كل ما لا يجوز النظر إليه، مما يثير الفتنة.

٤- في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ إشارة إلى معنى قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»[٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٩، «أضواء البيان» ٦/ ٢٠٣- ٢٠٤.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

فإذا وقع البصر على ما لا يجوز النظر إليه فجأة وجب غضه.

٥- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

٦- أن غض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله أطهر للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ويفهم من ذلك أن عدم غض الأبصار، وعدم حفظ الفروج سبب للرجس والنجس وعدم الطهارة.

٧- حرص الدين الإسلامي على تزكية النفوس وتطهيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

٨- أن الله عز وجل خبير بكل ما يفعله العباد من الأمور الظاهرة والباطنة، والدقيقة والجليلة، والخفية والجلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وفي هذا وعد ووعيد، فهو عز وجل بخبرته وعلمه واطلاعه على أعمالهم سيجازيهم بها، ففيه وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

٩- إثبات صفة الخبرة والعلم الواسع لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

١٠- في تقديم الرجال على النساء في الذكر إشارة لفضل الذكور على الإناث من حيث العموم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، فالرجال من حيث العموم أفضل من النساء كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

لكن قد تكون بعض النساء خيرًا من بعض الرجال، دينًا وخلقًا وأدبًا وعلمًا، بل وشجاعة وقوة، وهذا أمر مشاهد معلوم.

١١- عناية الشرع المطهر بغض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله تعالى وتأكيده وجوب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

فأفرد كلاً من الجنسين بخطاب، عناية بذلك وتأكيدًا له، ولم يقل: قل للمؤمنين والمؤمنات يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم.

١٢- في إفراد النساء بخطاب بالأمر بغض أبصارهن وحفظ فروجهن زيادة تأكيد عليهن، في وجوب غض أبصارهن، وحفظ فروجهن، وإشارة إلى خطورة النظر والفروج بالنسبة لهن، إذ الغالب في خطابات القرآن الكريم الاكتفاء بخطاب الذكور، ويدخل معهم الإناث تبعًا تغليبًا للذكور على الإناث، لكن أفردهن هنا لهذا الغرض.

١٣- تحريم إبداء النساء المؤمنات زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، فلا حرج عليهن في ظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وهي الثياب الظاهرة ونحو ذلك، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وبهذا قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وجمع من التابعين وغيرهم[١]، وكثير من الفقهاء والمحققين من أهل العلم.

قال ابن تيمية[٢]: «فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة، فهذا لا جناح عليها في إبدائها، إذا لم يكن في ذلك محذور آخر، فإن هذه لابد من إبدائها، وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن أحمد».

ويدل على هذا القول قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾؛ لأن هذا يدل على وجوب إسدال الخمار على الرأس والوجه والصدر، وسترها، وأن الوجه ليس من الزينة الظاهرة كما قيل. ودلالة هذا على وجوب ستر الوجه أظهر من دلالة قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على جواز كشف الوجه واليدين.

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: «وجهها وكفيها»[٣].

وروي هذا عن ابن عمر- رضي الله عنهما- وبعض التابعين والفقهاء[٤].

ويحتمل أن مراد ابن عباس بقوله: «وجهها وكفيها»، أي: هذه الزينة التي نهى الله عز وجل عن إبدائها بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، وليس ذلك تفسيرًا؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٦- ٢٥٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٨-٢٦٠، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٨- ٢٦١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وعلى هذا فيبقى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على أن المراد به- كما سبق- الثياب الظاهرة(١).

ويحتمل أن مراد ابن عباس- رضي الله عنهما- تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين.

قال ابن كثير(٢): «وهذا هو المشهور عند الجمهور» يعني حمل قول ابن عباس على هذا المعنى.

لكن هذا يعارضه ما ثبت عن ابن عباس نفسه في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الآية قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة»(٣).

وأيضًا هو معارض بقول صحابي آخر هو عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- كما سبق ذكره.

وأيضًا فإن الوجه والكفين من أعظم الزينة عند المرأة، فإن أول وأهم وأعظم ما ينظر إليه الرجل من المرأة وجهها وكفاها، وبخاصة الوجه فإنه أصل الزينة وموضع الجمال.

قال الشنقيطي(٤): بعد ما ذكر قول ابن مسعود- رضي الله عنه- أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة، قال: «وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها عن الريبة، وأسباب الفتنة».

وقال أيضًا بعد أن ضعف قول من قال المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الوجه

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ١٨١.

(٤) في «أضواء البيان» ٦/ ١٩٧، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢٨- ٢٢٩.

والكفان، وبيَّن أنه خلاف ظاهر معنى لفظ الآية؛ لأن أصل الزينة في لغة العرب ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقها قال: «أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود- رضي الله عنه- : أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا: إن هذا القول هو الأظهر لأنه أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم»[١].

وقال أيضًا في «تفسير سورة النور»[٢]: «والأقوى ما ذهب إليه ابن مسعود ومن تبعه: أن المراد به الملاءة التي تتغطى بها المرأة فوق ثيابها، ويدل على هذا ظاهر اللغة، واستقراء الشرع. فظاهر اللغة أن الزينة تطلق على ما تتزين به المرأة خارجًا عن بدنها، فإن إطلاقها على نفس البدن يحتاج إلى قرينة. وأما استقراء الشرع، فالمعروف منه الأمر بالتباعد عن أسباب الفتنة، والوجه محل الجمال، والافتتان من المرأة فالواجب ستره».

وقد قال الله تعالى في شأن أزواج النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وإذا كان هذا خطابًا لمن سأل نساء النبي ﷺ، وهن من أطهر نساء العالمين، فغيرهن يجب عليهن الحجاب من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة بهن وعليهن أشد، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبهذا نعلم أن الراجح وجوب ستر المرأة وجهها وعدم كشفه أمام الرجال الأجانب، كما دل عليه قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وقوله قبل ذلك: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وقوله في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الآية:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة، الدالة على وجوب الحجاب، والتي سيأتي ذكرها

---

(١) «أضواء البيان» ٦/ ١٩٨.

(٢) ص ٩٩- ١٠٠.

مستوفاة بإذن الله عز وجل في تفسير سورة الأحزاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية.

وهذا القول هو الذي يقتضيه العقل الصحيح، وهو أبعد عن الفتنة وأسبابها، إذ لا خلاف أن الوجه هو أصل الزينة وأعظمها، وموضع الجمال من المرأة والافتتان بها. والله المستعان.

١٤- أن الشرع لا يكلف بما لا يستطاع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: مما لا يستطعن ستره وإخفاءه فلا حرج عليهن في ذلك.

١٥- وجوب ستر المؤمنة نحرها وصدرها، مع رأسها ووجهها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

قال ابن تيمية[1]: «وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب والقفازين، وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يُحرمن وذلك يقتضي ستر وجوههن».

وقال أيضًا: «وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه إن أرخى عليها الحجاب، فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه، فضرب عليها الحجاب».

وقال أيضًا: «إنما ضُرب الحجاب على النساء لئلا ترى وجوههن وأيديهن، والحجاب خاص بالحرائر دون الإماء، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه أن الحرة تحتجب والأمة تبرز، وكان عمر- رضي الله عنه- إذا رأى أمة متخمرة ضربها، وقال: «أتتشبهين بالحرائر يا لكاع». فيظهر من الأمة رأسها ويداها ووجهها» لكن إن كانت الأمة يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من جلبابها وتحتجب ووجب غض البصر عنها ومنها».

١٦- جواز إظهار الزينة لمن ذُكروا في الآية من المحارم وغيرهم، وهم الأزواج، والآباء والأجداد وإن علوا، وآباء الأزواج وأجدادهم وإن علوا، وأبناؤهن وأبناء

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٩، ٤٣٠.

أولادهن وإن نزلوا، وأبناء أزواجهن وأبناء أولادهم وإن نزلوا، وإخوانهن من أي جهة كانوا، وبنو إخوانهن، وبنو أولادهم وإن نزلوا، وبنو أخواتهن من أي جهة كانت الأخوات، وبنو أولادهن وإن نزلوا. وكذا نساؤهن، وما ملكته أيمانهن من الرقيق ذكورًا وإناثًا، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، والأطفال الصغار الذين لم يطلعوا بعد على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال منهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

١٧- عدم وجوب الحجاب عمن ذكروا في الآية من المحارم، والنساء، وملك اليمين، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، وكذا الأطفال؛ لأن الله أباح إظهار الزينة أمامهم، وأهم الزينة في المرأة وجهها.

١٨- إثبات الملكية الفردية؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

١٩- إثبات الرِّق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، أي: من الرقيق ذكورًا وإناثًا، والرِّق سببه الكفر. وإنما يحصل بطريق السبي في القتال بين المسلمين والكفار؛ لإعلاء كلمة الله عز وجل فمن سبي من الكفار من الذكور والإناث فهو رقيق، حتى يمن عليه المسلمون بالعتق.

وليس من الرق في شيء اختطاف الأحرار واسترقاقهم وبيعهم، ولا ما يفعله بعض الناس من بيع أطفالهم بسبب الحاجة، كما يحصل في بعض الدول الإفريقية وغيرها؛ لأن السبب الوحيد للرق هو الكفر، ويحصل بطريق السبي فقط.

وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه حقه»[1].

٢٠- تحريم إبداء الزينة الخفية من الخلخال وغيره، بالضرب بالأرجل على الأرض ونحو ذلك، وكذا غيره من محاسن المرأة، كشعرها ووجهها وذراعيها وعضديها

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٧٠، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢- من حديث أبي هريرة ﷺ.

وساقيها وفخذيها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وسواء كان ذلك من طريق الإسماع، أو الكشف أو غير ذلك.

٢١- وجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل على جميع المؤمنين، ويتأكد ذلك في حق من ارتكب معصية كعدم غض البصر، وعدم حفظ الفرج، أو إبداء المرأة زينتها عند غير محارمها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أنه قلّ من يسلم من المعصية والذنب، فمن مستقل ومستكثر.

كما في حديث أبي ذر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة»[٢].

٢٢- تنبيه المؤمنين إلى عظم التوبة وفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. بالنداء لهم.

٢٣- أن التوبة من مقتضيات الإيمان وعدمها نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٤- أن الفلاح والنجاح والفوز بالمطلوب والسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، والنجاة من المرهوب والسلامة من النار كل ذلك مترتب على التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فهي سبب لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ذم الله عز وجل في هذه السورة الزنا، وبين حرمته وما يترتب عليه من الحد والعقوبة في الدنيا والآخرة، وأمر بعد ذلك بغض الأبصار وحفظ الفروج، كل ذلك حفاظًا على الأعراض وصيانة لها، ثم أتبع ذلك بالأمر بالنكاح والترغيب فيه؛ لأنه أعظم سبب للوقاية من الزنا، وأعظم معين على غض الأبصار وحفظ الفروج.

قال ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

فلما ذم الزنا وبين حكمه وأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج عن الحرام، أمر بإشباع هذه الغريزة بالطريق الحلال، ورغب في ذلك، بل وأوجب ذلك. فسبحان العليم الحكيم.

قال ابن كثير[2]: «اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة».

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الواو: استئنافية، والخطاب للأحرار من المسلمين، وبخاصة الأولياء والسادة منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣.

والنكاح لغة: الضم والجمع، ومنه يقال: تناكحت الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض.

والنكاح يطلق على الوطء، وعلى العقد[١] وهو المراد هنا فالمراد بالآية هنا العقد والتزويج أي: زوجوا الأيامى منكم.

و«الأَيَامَى »: جمع «أيم»، وهو من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة.

يقال: رجل أَيِّم، وامرأة أيمة وأيم، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج[٢]. ويكثر استعمال «أيم» في المرأة وبخاصة من فقدت زوجها.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»[٣].

وفي حديث عمر- رضي الله عنه- قال: «لما تأيَّمت حفصة»[٤]، أي: أصبحت غير ذات زوج.

﴿مِنكُمْ﴾: أيها المسلمون، أي: زوجوا أيها المسلمون من لم يكن ذا زوج من رجالكم ونسائكم الأحرار، فابحثوا للرجل عن زوجة وأعينوه على تكاليف الزواج، وخفضوا عنه المهر وغيره من أعباء الزواج.

وعلى هذا فإذا تقدم لنا خاطبان لامرأة أحدهما ليس معه زوجة والآخر معه زوجة، وهما في الدين والخلق والأمانة والكفاءة سواء فالأولى تقديم من لا زوجة معه؛ لأنه أحوج إلى الزواج لتحصينه وإعفافه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وليس في ذلك ما يدل على عدم تزويج من معه زوجة أو أكثر، وإنما نص على الأيامى؛ لأنهم أحوج من غيرهم.

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «نكح».

(٢) انظر مادة: «أيم» في «الصحاح»، «لسان العرب» وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في النكاح ١٤٢١، وأبو داود في النكاح ٢٠٩٨، والنسائي في النكاح ٣٢٦٠، والترمذي في النكاح ١١٠٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه.

وزوجوا الأيامى من النساء بمن جاء يخطبهن إذا كان ممن ترضون دينه وأمانته وخلقه، كما قال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)].

بل وابحثوا للمرأة عن رجل، بعرضها على من ترضون دينه وأمانته كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عمر رضي الله عنه قال: «تأيَّمت حفصة بنت عمر من خنيس- يعني: ابن حذافة- وكان من أصحاب النبي ﷺ، ممن شهد بدرًا، فتوفي بالمدينة، فلقيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر في ذلك، فلبثت ليالي فلقيته، فقال: ما أريد أن أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان رضي الله عنه، فلبثت ليالي، فخطبها إليّ رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا، قلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعني حين عرضت عليَّ أن أرجع إليك شيئًا إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها نكحتها»[(٢)].

ويفهم من هذا عدم تزويج الكفار رجالهم ونسائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

و«الصالحين»: جمع صالح وصالحة، غلب فيه الذكور على الإناث أي: الصالحين في دينهم ودنياهم. والصلاح في الدين: الإخلاص لله عز وجل مع متابعة الرسول ﷺ،

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ١٠٨٥- من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن» وأخرجه ابن ماجه في النكاح- باب الأكفاء ١٩٦٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح- عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ٥١٢٢، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨، وأحمد ١/ ١٢.

والصلاح في الدنيا: كونهم يحسنون التصرف في أمور دنياهم، وبخاصة ما يتعلق بأمور الزواج وأحواله، وحقوق الأزواج ونحو ذلك. وخص العباد والإماء باشتراط الصلاح؛ لكثرة الفساد فيهم[١].

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ «عباد»: جمع عبد، يقال في جمعه: عباد، وعبيد، وأعبد، وغير ذلك[٢]، وهم المماليك الذكور.

﴿وَإِمَائِكُمْ﴾ «إماء»: جمع أمة، وهي المملوكة، وتطلق الأمة على المرأة مطلقًا، كما في قوله ﷺ: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك»، [٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٤].

وما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»[٥] لا يعارض قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾؛ لأن النهي في الحديث عن قول السيد: عبدي وأمتي، وهو أن يضيف السيد العبودية والأُمُوَّةَ إلى نفسه بضمير المتكلم، ومثل هذا في النهي- والله أعلم- لو قال: عبدنا وأمتنا؛ وذلك لما فيه من التعاظم والعلو والتكبر على مملوكه، وإشعار المملوك بالذل والإهانة.

أما ما عدا ذلك فيجوز، كأن يقال: هذا عبد فلان، وهذه أمة فلان، كما قال تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

وخص الصالحين؛ لأنهم هم الذين ينبغي أن يحفظ عليهم صلاحهم؛ لأن

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٤.

(٢) انظر: «الصحاح» مادة «عبد».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، ٤٥٢ من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وصحح إسناده أحمد شاكر ٣٧١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بتزويجهم حفظًا لشطر دينهم، وأيضًا فإن صلاحهم يوجب على أوليائهم وسادتهم العطف عليهم والعناية بهم. وهذا من حفظ الله عز وجل وقد قال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما- : «احفظ الله يحفظك»[١].

وإنما سُمِّي المماليك عبادًا وإماءً لمالكيهم وأسيادهم؛ لأنهم ذليلون لأسيادهم شرعًا وقدْرًا، فهم ذليلون شرعًا؛ لأنهم ملك لأسيادهم لهم التصرف في أمرهم ونهيهم، وبيعهم وشرائهم، ولهم جميع منافعهم، وهم ذليلون لأسيادهم قدرًا؛ لأنهم أقل قدرًا من أسيادهم.

والأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ للوجوب- عند بعض أهل العلم؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب فيجب على الأولياء تزويج الأيامى ممن تحت ولايتهم، ويجب على السادة تزويج الصالحين من مماليكهم[٢]، وينبغي للمسلمين عمومًا التعاون في ذلك.

وقال بعض أهل العلم: هو محمول على الندب[٣].

ولا شك أن النكاح في الأصل مستحب وسنة من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد يجب إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة، وبعض أهل العلم يوجبه مطلقًا على كل من قدر عليه.

ويؤكد مشروعية النكاح ما جاء في حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/ ٣٠٣، ٢٩٣- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه أحمد شاكر.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٢.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم- الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ١٩٠٥، وفي النكاح ٥٠٦٥، ومسلم في النكاح ١٤٠٠، وأبو داود في النكاح ٢٠٤٦، والنسائي في الصيام ٢٢٣٩، والترمذي في النكاح ١٠٨١، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٥.

وقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[١].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٢].

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء، وأن تزويج العبيد والإماء إلى أسيادهم[٣].

ويؤخذ من الآية أن العبد إذا طلب التزويج ليعف نفسه، أنه ليس للسيد أن يمنعه، بل يجب عليه أن يأذن له بذلك.

وقال بعض العلماء: بل له أن يمنعه.

وهذا مخالف للأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟﴾ يعود إلى من سبق ذكرهم جميعًا، وهم: الأيامى والصالحون من عبادهم وإمائهم، فيشمل الأحرار والمماليك، وخصه بعضهم بالأحرار؛ لأنهم هم الذين يَملِكون. والأولى حمله على الجميع.

وقد ثبت أن سيرين، وكان مملوكًا لأنس بن مالك- رضي الله عنه- سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى فانطلق إلى عمر- رضي الله عنه- فقال: «كاتِبه، فأبى، فضربه بالدرة ويتلو عمر: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتَبَه»[٤].

والمعنى: إن يكن هؤلاء الأيامى والصالحون من عبادكم وإمائكم فقراء حين تزويجهم. و«فقراء»: جمع فقير، وهو من لا يجد إلا بعض الكفاية، وقد يكون معدمًا لا

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح- النهي عن تزوج من لم يلد من النساء ٢٠٥٠، ٢٠٥٤ والنسائي في النكاح- كراهية تزويج العقيم ٣٢٢٧،- من حديث معقل بن يسار- رضي الله عنه وقال الألباني: «حسن صحيح». وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٨، ٣٤٥- من حديث أنس- رضي الله عنه- وصححه ابن حبان ١٢٢٨، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٨١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة- بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ١٠٠٦.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم- المكاتب ونجومه في كل سنة نجم. انظر: «فتح الباري» ٥/ ١٨٤.

يجد شيئًا، وهو مأخوذ من انفصام فقار الظهر؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، أو من «القفر» وهي الأرض الخالية.

﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يغنهم جواب الشرط في قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ﴾، وهو مجزوم بحذف حرف العلة وأصله: «يغنيهم».

والمعنى: أن الله يعطيهم ويمنحهم ما يستغنون به، ويندفع به فقرهم من فضله عز وجل وما عنده من الزيادة والخير الكثير فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم.

وهذا خلاف ما يعتقده الكثير من الناس من أن الزواج قد يُحمِّل الزوج مسؤوليات وتكاليف، يصعب عليه تحمُّلها والقيام بها، حتى إن بعض الناس يحجم عن الزواج لعلل واهية قائلاً: لا أتزوج حتى أؤمن مستقبلي، يعني بأن يحصل على شهادة عليا ووظيفة، وسيارة، وسكن، وغير ذلك.

وهذه كلها تبريرات لا حقيقة لها. وتأمين المستقبل أمره إلى الله عز وجل، والرزق على الله، وكل قادم من زوجة أو ولد يولد فرزقه يأتي معه بإذن الله عز وجل، وكم من أناس بارك الله لهم ورزقهم الشيء الكثير بسبب ما عندهم من أولاد وزوجات. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»[١].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم»[٢].

وروي عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز ما وعدكم من الغنى. قال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾»[٣].

وقال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- : «التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح- معونة الله الناكح الذي يريد العفاف ٣٢١٨، وفي الجهاد ٣١٢٠، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ١٦٥٥، وابن ماجه في العتق- باب المكاتب ٢٥١٨، وأحمد ٢/ ٢٥١. وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨١- الأثر ١٤٤٤٥، وذكره ابن كثير ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٢- الأثر ١٤٤٤٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤.

تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»[١].

وروي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح والله عز وجل يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢]».

فلا ينبغي أن يؤخر الشاب الزواج انتظارًا لمزيد من الغنى، أو لأجل الحصول على شهادة عليا وسيارة وسكن ونحو ذلك، بل يكتفي بما تيسر ويتوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ولا ينبغي أن يُرد الخاطب لأجل فقره، فقد قال النبي ﷺ لرجل: «التمس ولو خاتمًا من حديد» فلما لم يجد قال له: «زوجتكها بما معك من القرآن»[٣].

فمن كرم الله عز وجل ولطفه وسعة فضله أن يرزق من تزوج يريد العفاف، والمقاصد الشريفة للنكاح، ويغنيه من فضله، وييسر له أمره[٤].

وهذا وعد من الله عز وجل لكنه مربوط بمشيئة الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٢٨].

وقد يتخلف ذلك لسبب من الأسباب

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: إنه عز وجل واسع الغنى، عظيم الفضل، واسع الرحمة والمغفرة والإحسان وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء. ومن سعته عز وجل وسعة غناه وسعة رزقه وفضله، وسعة علمه، يغني من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٥.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤٢، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٢١، ومسلم في النكاح ١٤٢٥، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٢٨٠، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٥.

ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، و«يستعفف»، أي: يطلب العفة والكف عن الحرام، و«استعفف» أبلغ من «عفّ»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والعفاف: صون النفس وإكرامها ورفعها عما لا ينبغي، من الوقوع في الفواحش، كالزنا، ومقدماته، كالنظر المحرم، والسماع المحرم، والخلوة المحرمة، ونحو ذلك.

كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور:٣٠]، وقال عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

ومن العفة والعفاف: الاستغناء عما في أيدي الناس.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، أي: الذين لا يجدون تزويجًا، بمعنى: لا يجدون من المال ما يتزوجون به؛ لشدة فقرهم، أو يخطب أحدُهم لكن لا يُقبل، أو لا يجدون نساءً يتزوجونهن- وإن كان هذا نادرًا- أو لا يستطيعون النكاح لامتناع أسيادهم من تزويجهم.

والمعنى: وليطلب العفاف من لا يجد ما يتزوج به من المال بأسباب العفاف المقدورة له، كالصيام، كما قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(١)].

وأيضًا بالاحتراز من النظر إلى النساء، وحمل النفس على الصبر، وانتظار اليسر من الله، فإنه لن يغلب عسر يسرين، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله.

قال ابن كثير[(٢)]: «وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي

---

(١) سبق تخريجه

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥]. أي: صبركم عن تزوج الإماء خير لكم؛ لأن الولد يجيء رقيقًا».

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى يرزقهم الله ما يستغنون به، ويقدرون به على الزواج من المال، وتيسر الزوجات الصالحات وغير ذلك، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾، أي: مما عنده عز وجل من الزيادة والخير الكثير والرزق الواسع.

قال السعدي(١): «وعد من الله عز وجل للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج؛ لئلا يشق عليه ما هو فيه».

والعفاف أمر واجب وفرض على الدوام وفي كل وقت، ولا مفهوم للغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إذ ليس المراد أن الله إذا أغناهم من فضله فلا حاجة لهم إلى العفة، وإنما المعنى أن من أغناه الله من فضله، ووجد النكاح الشرعي، فقد أعفه الله بالحلال عن الحرام، بخلاف من لم يغنه الله، ولم يجد النكاح فهو الذي يحتاج إلى المجاهدة لإعفاف نفسه عن الحرام، حتى يرزقه الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:٣٤]، فليس المراد أنه إذا بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن؛ بل المعنى حتى يبلغ أشده فتعطوه ماله.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إشارة إلى أن الاستعفاف كالنكاح سبب للغنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢- ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

فمن استعف واتقى الله وأطاعه، يسر الله له أمره، ورزقه من حيث لا يحتسب.

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٦.

[طه:١٣٢].

وقال هود- عليه السلام- لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣]، وقال عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال نوح- عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠- ١٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ذكر الواحدي: «أن هذه الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى، يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية، وكاتبه حويطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا، فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب»[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: عاطفة و«الذين» مبتدأ، وخبره قوله: «فكاتبوهم»، أي: والذين يطلبون ويريدون الكتاب من مماليككم، و«الكتاب» والكتابة والمكاتبة: هي بيع السيد مملوكه على نفسه، أي بيع السيد نفس المملوك على المملوك، وهي عقد عتاقة على مال يدفعه المملوك نجومًا، أودفعة واحدة.

وسُمي كتابًا ومكاتبة؛ لأنه غالبًا يكتب؛ لأن المال فيه مؤجل. وفي هذا ترغيب بكتابته تفاديًا للاختلاف والنسيان والموت والفوت، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: من الذي ملكتموه من الأرقاء ذكورًا كانوا أو إناثًا،

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٤٦- ٢٤٧، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١١٥- ١١٦.

و«من» بيانية فيها بيان الموصول «الذين».

وأضيف الملك إلى اليمين مع أن الذي يملك الشخص نفسه تشريفًا لها؛ لأنها هي الآخذة المعطية.

وفي الآية إثبات الملك للبشر، وهو ملك إضافي نسبي، وإثبات الرق وملك اليمين، أما الملك المطلق فهو لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١] فحصر الملك لنفسه- عز وجل.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت عليه الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: فأجيبوا طلبهم وكاتبوهم.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾، أي: إن علمتم في هؤلاء المملوكين الذين يريدون الكتابة ﴿خَيْرًا﴾، أي: صلاحًا في دينهم ودنياهم، من الصدق والأمانة والقدرة على الكسب، وأداء ما كاتبتموهم عليه من المال، والإنفاق على أنفسهم، وتحمل المسؤولية بأنفسهم.

قال ابن كثير[1]: «هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه».

وقال السعدي[2]: «لأن في الكتاب تحصيل المصلحتين مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل عليه في رقه».

ويفهم من الآية أنه إذا لم يتوفر هذا الشرط وهو قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فلا يؤمر بمكاتبتهم، سواء حمل الأمر على الوجوب، أو على الاستحباب، بل لا تنبغي مكاتبتهم، وذلك لئلا يضيع حق المالك، ويكون المملوك عالة على الغير، لكن إن علمنا فيهم شرًا لم تجز مكاتبتهم، وإن لم نعلم فيهم لا خيرًا ولا شرًا فقيل تجوز مكاتبتهم، وقيل: لا تجوز.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: وأعطوهم أيها الأسياد من مال الله الذي أعطاكم، وذلك بالتخفيف عنهم في الكتابة، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم، وأن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٥.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٦.

يوضع عنهم شيء مما كوتبوا عليه، ويعينوهم على ذلك.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل، فقال: «يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك» ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. قال عكرمة: «كان أول نجم أدي في الإسلام»[1].

وهكذا ثبت عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يعني: «ضعوا عنهم من مكاتبتهم»[2].

وكان ابن عمر- رضي الله عنهما- إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه، مخافة أن يعجز، فيرجع إليه صدقته، لكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب»[3].

والأمر في قوله: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ عام يشمل جميع المؤمنين بأن يعينوا المكاتبين على أداء ما عليهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ [التوبة:٦٠][4].

ويدخل في عموم الأمر ولاة أمر الأمة، بأن يعتنوا بتخليص المكاتبين من الرق، ويساعدوهم على ذلك من بيت مال المسلمين؛ لأن الإسلام ندب إلى إعتاق الرقيق.

وفي إضافة المال إلى الله عز وجل في قوله: ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ تنبيه إلى أن المال الذي بأيدي الناس كله لله عز وجل ومنه استخلفتم فيه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

وقد أحسن القائل:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٧- الأثر ١٤٥١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧، والسيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٤٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق والبيهقي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٧- الأثر ١٤٥١١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٨٦، والبيهقي في «سننه» ١٠/ ٣٣٠ من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥١- ٢٥٢، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٧.

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع[(١)]

وفي قوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ إشارة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمنة والفضل لله سبحانه وتعالى؛ لأن المال مال الله قدرًا، فهو الذي أعطاكم المال، أو قدرًا وشرعًا إذا كان المراد بمال الله الزكاة.

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾.

سبب نزول الآية:

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مسيكة، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[(٢)]».

وعن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما: «أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولادًا من الزنا، فقال لها: مالك لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني، فضربها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾[(٣)]».

قال ابن كثير[(٤)]: «كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك».

قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية. والإكراه: حمل الإنسان على فعل الشيء، أو قوله بالقوة، وهو له كاره، وهو ضد الطواعية.

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص١٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ ٣٠٢٩، وأبو داود في الطلاق ٢٣١١، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٠- ٢٩١، والحافظ أبو بكر البزار- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨. وانظر: «أسد الغابة» ٥/ ٥٤٦، «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩- ٢٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٩- الأثر ١٤٥٢٣، وانظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢- ٢٩٣.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٥٧.

و﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾: جمع فتاة، وتطلق على الشابة، وعلى الأمة.

قال ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»(١).

والمراد: بالفتيات هنا الإماء، كما دل عليه سبب النزول.

﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾، أي: على الزنا. والمرأة البغيّ: هي المرأة الزانية.

عن أبي مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغيّ، وحلوان الكاهن»(٢).

والبغيّ هي الزانية، ومهرها هو أجرة زناها.

وسُمي الزنا بالبغاء، ومعناه الطلب: لأن الزنا يُطلب ويُبتغى، يبتغيه ويطلبه الزناة والفساق(٣).

﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ هذا الشرط خرج مخرج الغالب، وحكايةً للواقع فالغالب والواقع أنهم يكرهونهنّ على الزنا وهن يردن التحصن، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا الشرط(٤).

فلا يفهم منه أنهن إذا لم يردن التحصن يجوز إكراههن، وهذا بالإجماع. وإنما فيه زيادة التشنيع على السادة الذين يكرهون إماءهم على الفاحشة بدلاً من كونهم يحصنونهن، ويمنعونهن من الفساد، وفي هذا من الدياثة ما فيه.

والمراد بالتحصن: التعفف عن الفاحشة، والامتناع عنها، كما قال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ [النساء:٢٥] وقال تعالى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ [المائدة:٥]

قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٧، وأبو داود في البيوع ٣٤٢٨، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٢٩٢، والترمذي في النكاح ١١٣٣، وابن ماجه في التجارات ٢١٥٩.

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «بغى».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٩.

فــلا تــأمننَّ الحــيّ قيسًــا فــإنهم بنـو مُحْصَـنَات لم تـدنس حجورهـا[١]

﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ اللام لام التعليل، أي: لتطلبوا بإكراههن على الزنا.

﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ العرض: ما يعرض ثم يزول، والمراد به هنا المال. والحياة الدنيا: هي الدار التي نحن فيها.

وفي تسميتها «الدنيا» إشارة إلى أن هناك حياة أخرى، وسميت دنيا؛ لأنها متقدمة في الزمن على الدار الآخرة؛ ولأنها دنيئة لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي متاع غرور، ومتاع قليل، كما وصفها الله في كتابه، وكما قال عز وجل: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦- ١٧].

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

فهي وما فيها من المتاع ظل حائل، وعرض زائل، إما تزول عنك أو تزول أنت عنها.

قال الشاعر:

نصـــيبك ممـــا تجمـــع الـــدهر كلـــه رداءان تلـــوى فـــيهما وحنـــوط[٣]

وقال الآخر:

لا شيءَ ممـــا تـــرى تبقـــى بشاشـــته يبقــى الإلــهُ ويفنــى المــالُ والولــدُ[٤]

ومعنى الآية: لتطلبوا عرضًا دنيويًّا من المال مقابل ذلك، وهو أجرة الزنا وفداء أولاد الزنا[٥].

وفي هذا ذم لهم، وإشارة إلى انحطاط منزلتهم، حيث جعلوا من أنفسهم دعاة إلى الدعارة والفجور، وأكرهوا إماءهم على الزنا؛ لأجل العرض الدنيوي التافه الحقير.

وعن رافع بن خديج- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شر

---

(١) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» ص٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» ٢٧٩٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الدر المصون» ٦/ ٥٣٥.

(٤) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» ص٣٤٧.

(٥) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٨٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥٥.

الكسب مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام»[(١)]

وقال ﷺ: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[(٢)].

وقوله: ﴿لِتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ لبيان الواقع وأنهم يكرهونهن على البغاء؛ لأجل العرض الدنيوي، ولا مفهوم له، فلو لم يريدوا العرض الدنيوي بإكراههن ما جاز لهم ذلك.

﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية تفيد العموم، «يكرههن»، أي: يلزمهن بقوة بفعل الفاحشة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. جملة جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وهنا عاد جواب الشرط إلى غير ما يعود إليه فعل الشرط، ففعل الشرط يعود إلى الأسياد الذين يُكرِهون إماءهم على الزنا، وجواب الشرط يعود على الإماء، اللاتي يُكرهن على الزنا، فعاد جواب الشرط على ملابس وملازم لفعل الشرط؛ لأنه لا مُكرِه إلا بمكرَه.

والمعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن، رحيم بهن، إذا كان ارتكابهن لها بسبب الإكراه المحض، دون أن يكون لهن أي ميل إلى الفاحشة؛ لأن المكرَه معفو عنه، كما في حديث أبي ذر الغفاري وابن عباس- رضي الله عنهم- أن رسول الله ﷺ قال: «عُفي لأُمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».[(٣)]

قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «فإن فعلتم- أي: أكرهتموهن- (فإن الله) لهن (غفور رحيم) وإثمهن على من أكرههن».[(٤)]

وفي قراءةٍ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة ١٥٦٨، وأبو داود في البيوع- كسب الحجام ٣٤٢١، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٢٩٤، والترمذي في البيوع- ما جاء في ثمن الكلب ١٢٧٥، وأحمد ٣/ ٤٦٤- ٤٦٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢١، ٣٩٩- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- طلاق المكره والناسي ٢٠٤٣، ٢٠٤٥. وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

(٥) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩١- الأثر ١٤٥٣٦، وذكرها «ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

وكذا قال الحسن البصري- رحمه الله: «فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» لهن والله، لهن والله»[١]. وروي نحوه عن مجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد[٢].

ففي الآية دليل على أن المكره لا مؤاخذة عليه، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

فبمغفرة الله لهن زوال المرهوب والعقوبة الدنيوية والأخروية، وبالرحمة حصول المطلوب لهن من الفرج في الدنيا، والأجر في الآخرة.

ومع هذا فلا يمتنع أن يشمل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من تاب ممن أكرهوهن إذا صدقوا بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا توكيد لقوله أول السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١]، إلا أن هذه الآية أعم من الآية أول السورة، فيدخل في عمومها ما ذكر الله عز وجل أول السورة وما بعده، وغير ذلك مما أنزله الله عز وجل من الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ الواو استئنافية، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لقد أنزلنا. و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكدات، هي: القسم، واللام، و«قد».

والإنزال: هو إنزال الشيء من علو إلى أسفل.

﴿إِلَيْكُمْ﴾ فيه تشريف وتكريم لأمة محمد ﷺ أمة الإجابة، وهم المؤمنون، فمن أجلهم أنزل الله الكتاب، وأرسل الرسول ﷺ.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ هي آيات القرآن الكريم، الآيات الشرعية، فهي علامات على عظمة من أنزلها، وصدق من جاء بها، لما فيها من الأحكام العادلة، والأنباء الصادقة،

(١) أخرجه أبو عبيد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢- ٢٩٤.

وصلاحيتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم «مبيِّنات» اسم فاعل من «بيَّن» اللازم، بمعنى «تبيَّن»، أي: أنهن بيِّنات واضحات ظاهرات، لا خفاء فيهن.

أو من «بيَّن» المتعدي، أي: أنهن موضحات ومظهرات للأحكام الشرعية، وللحق من الباطل، والهدى من الضلال.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم «مبيَّنات» اسم مفعول، أي: أن الله عز وجل بينهن وأوضحهن وأظهرهنّ لعباده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

فكلام الله عز وجل واضح بيِّن، لا إشكال فيه، ولا خفاء- ولله الحمد- وكذا عموم نصوص الشريعة، وأحكامها، لكن قد يقع الإشكال في بعض المسائل الشرعية بسبب سوء الفهم، أو التقصير في طلب العلم، أما مع العلم والفهم الصحيح التامين فلا يوجد إشكال في الشريعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في العقيدة الواسطية: «من تدبر القرآن طالبًا للهدى منه تبين له طريق الحق»[1].

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: وذكرنا لكم صفة، وأمثلة وقصصًا عجيبة غريبة[2]، من أخبار الذين مضوا من قبلكم، مما حصل لرسل الله عز وجل وأوليائه من الابتلاء، ثم كانت العاقبة والتمكين والنصر لهم على أعدائهم.

فما حصل لأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- ليس بدعًا في التاريخ، فقد قيل لمريم- عليها السلام- لما جاءت تحمل ابنها عيسى- عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧- ٢٨]. وهذا اتهام لها بالزنا، فبرأها الله عز وجل على لسان وليدها الصغير، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩- ٣٠].

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ١٣٧.

(٢) انظر: «الكشاف» ٣/ ٧٦.

وقالت امرأة العزيز متهمة يوسف- عليه السلام: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥]. وسجن- عليه السلام- من أجل ذلك، حتى برأه الله عز وجل على ألسنة النسوة اللاتي جمعتهن، وعلى لسانها هي، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

كما ذكر الله عز وجل أمثلة من أخبار المكذبين للرسل، وما أحل بهم من العقوبات والنكال، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

ولما ذكر الله عز وجل قصة إهلاك قوم لوط- عليه السلام- بقلبها عليهم وإتباعها بالحجارة قال: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

فسنة الله عز وجل واحدة في إهلاك المكذبين.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾، أي: عظة وعبرة وزاجرًا عن التكذيب والمخالفة لأمر الله عز وجل، وعن ارتكاب المحرمات.

والموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، بذكر الجنة ونعيمها وصفات أهلها، والنار وعذابها وصفات أهلها، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

وقال عز وجل في سورة البقرة بعد أن ذكر كثيرًا من الأحكام في الطلاق والرجعة والنكاح: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢]، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨].

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وخصهم بالذكر؛ لأنهم هم المتعظون المنتفعون بمواعظ القرآن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:١٠- ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥].

قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- في صفة القرآن الكريم: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله»[١].

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية النكاح والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء:٣].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» الحديث[٢].

وأجمع المسلمون على مشروعية النكاح، وأنه سنة من سنن المرسلين- عليهم الصلاة والسلام- رغبت فيه الشرائع والديانات كلها؛ لأنه سبب بقاء الإنسان، وعمران هذا الكون، وهو أفضل من نوافل العبادة على الصحيح.

ولهذا رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، ونفر من الصحابة رضي الله عنهم، بل وعدّ ذلك ﷺ رغبةً عن سنته.

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا»[٣].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح- ما يكره من التبتل والخصاء ٥٠٧٤، ومسلم في النكاح- استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ١٤٠٢، والنسائي في النكاح ٣٢١٢، والترمذي في النكاح ١٠٨٣، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٨.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: «لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ ذلك، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)].

وجمهور أهل العلم على أن النكاح سنة ومندوب إليه، ومن أهل العلم من يرى وجوبه، ويتأكد الوجوب فيما إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة رجلاً كان أو امرأة[(٢)].

٢- يجب على الأولياء تزويج من تحت ولايتهم من الأيامى من الذكور والإناث؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، والأمر للوجوب.

٣- ظاهر قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أنه يجب على السادة تزويج مماليكهم. وذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك ليس بواجب.

٤- فضل الصلاح؛ لأن الله خص الصالحين من العبيد والإماء بالأمر بتزويجهم فقال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وذلك تكريمًا لهم، وتشجيعًا وحفاظًا على صلاحهم، فيزوجون مماليك مثلهم.

٥- أن الذي يتولى تزويج الأيامى من الأحرار من النساء والرجال القصار هم أولياؤهم، وأن الذي يتولى تزويج العبيد والإماء هم سادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فلا تزوج المرأة نفسها، ولا يزوج المملوك نفسه.

٦- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

٧- أن النكاح سبب للغنى بإذن الله عز وجل وتوفيقه، ووعده الذي لا يخلف؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣١٩- ٣٢٠، «المغني» ٩/ ٣٤٠- ٣٤٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٩.

٨- لا ينبغي أن يكون الفقر مانعًا من الزواج، وينبغي أن يكون الإنسان أوثق بوعد الله، وبما عنده سبحانه مما في يده.

بل قد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ على أنه لا يفرق بين الزوجين من أجل إعسار الزوج، وأن الزوجة لا تخير في البقاء مع الزوج المعسر وعدمه، لأنه إذا لم يكن الفقر مانعًا في ابتداء النكاح، فلا يكون مانعًا في استدامته من باب أولى، والعلماء في هذا على قولين[1].

٩- إثبات سعته عز وجل وكرمه وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٠- وجوب الاستعفاف على الذين لا يجدون نكاحًا حتى يغنيهم الله من فضله، وأن الاستعفاف من أسباب الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

١١- الأمر بمكاتبة من يبتغي الكتابة من الأرقاء إذا علم أن فيهم خيرًا وقدرة على الكسب الوفاء، وصلاحًا لهم في ذلك، في أمر دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

وظاهر الآية أنه يجب على السادة إذا طلب منهم مماليكهم المكاتبة أن يكاتبوهم إن علموا فيهم خيرًا وبهذا قال جمع من أهل العلم.

قال ابن جريح: قلت لعطاء: «أواجب عليّ إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. قال عمروا بن دينار: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: «كاتبه» فأبى، فضربه بالدرة، ويتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه»[2].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه فقال له عمر: «لتكاتبنه»[3].

---

(١) انظر: «المغني» ١١/ ٣٦٠- ٣٦٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٦، وعبد الرزاق في «المصنف» ٨/ ٣٧١- ٣٧٢، والبيهقي في

قالوا: فكما يجب على الإنسان إخراج الزكاة والكفارات والنفقات الواجبة من ماله لأمر الله بذلك، كذلك يجب عليه مكاتبة مملوكه لأمر الله بذلك.

وأيضًا فإن الشرع متطلع إلى العتق؛ لأن الأصل في بني آدم الحرية، والرق وارد عليه؛ ولهذا رغب الشرع المطهر في العتق.

وقال ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إربًا منه من النار»[١].

وأوجب عز وجل في عدد من الكفارات عتق رقبة مثل كفارة القتل والظهار واليمين.

واختار هذا القول ابن جرير الطبري[٢].

وجمهور أهل العلم على أن هذا الأمر للإرشاد والاستحباب والندب، فالسيد يندب إذا طلب منه عبده الكتابة أن يكاتبه، ولا يلزمه ذلك[٣].

وذلك أن ملك اليمين من مال السيد، وقد دل الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، كما قال ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»[٤].

فكما لا يُلزم السيد بإعتاق مملوكه أو بيعه، كذلك لا يُلزم بمكاتبته؛ لأن حقيقة المكاتبة لا تتعدى العتق أو البيع، فهي من حيث تخليص الرقبة من الرق عتق، ومن حيث أخذ العوض بيع.

وأيضًا فإن قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يؤيد القول بأن الأمر فيه للندب والاستحباب؛ لأن علم الخيرية فيهم أمر قد يُختلف فيه، ولا يكاد يُتفق عليه، لا فيما بين

«سننه» ١٠/ ٣٠٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٦. «إسناده صحيح».

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥١٧، ومسلم في العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٨.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٤٥، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٥.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٧٢- عن أبي حرة الرقاشي عن عمه رضي الله عنه، و٥/ ١٧٢- من حديث عمرو بن يثربي رضي الله عنه.

الناس، ولا فيما بين السيد ومملوكه، ولو كان الأمر للوجوب لما وكل العلم إلى السادة[١].

١٢- إذا لم يُعلم بالمملوك خيرٌ بل خيف ألا يفي بها عليه، أو يكون عالة على الغير، ويتضرر في دينه فلا ينبغي أن يكاتب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

١٣- الترغيب في مساعدة المكاتبين، من قبل أسيادهم بحيث لا يثقلون عليهم في المكاتبة، وأن يضعوا عنهم شيئًا منها ويعينوهم على الأداء ما استطاعوا.

وهكذا ينبغي لولاة الأمر مساعدتهم من بيت مال المسلمين، وعلى غيرهم من المؤمنين أن يعينوهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠].

بل ويتصدقون عليهم من الصدقة غير الواجبة. فإن عتق الرقاب من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١- ١٣].

١٤- عناية الإسلام بتحرير الأرقاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

ولهذا شرع في كثير من الكفارات عتق الرقيق، ككفارة القتل، والظهار، والجماع في نهار رمضان، واليمين وغير ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ أعتق ثلاثًا وستين رقبة، وأعتقت عائشة سبعًا وستين رقبة، وأعتق العباس سبعين رقبة، وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة، وأعتق ابن عمر ألف رقبة، وأعتق ذو الكلاع الحميري ثمانية آلاف رقبة، وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف رقبة[٢].

١٥- أن ما بأيدينا من المال هو من مال الله عز وجل، منحنا الله إياه، فلا ينبغي أن نبخل في أداء حق الله فيه، والإنفاق منه في طرق الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

١٦- تحريم جعل الإماء سلعة للكسب الحرام بالزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٦، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٨٨.

(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص ١٨٨- ١٨٩.

ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وسواء أردن التحصن أو لم يردنه فكل ذلك محرم لا يجوز؛ لأن الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لبيان الواقع، وهو أنهم كانوا يكرهونهن مع أنهن يردن التحصن والعفاف، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا الشرط.

١٧- ينبغي أن يقول السيد لمملوكاته: «فتياتي» ولا يقول: «إمائي»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾، وفي الحديث: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي»[1].

١٨- لا ينبغي أن يكون العرض الدنيوي الزائف الزائل حاملاً على الوقوع في الفواحش وما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٩- التعريض بحقارة الدنيا كلها، وأنها بما فيها عرض زائل؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وسميت دنيا لدناءتها وحقارتها وقلة قيمتها بالنسبة للآخرة.

٢٠- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٢١- أن المكرَه على فعل المعصية أيًا كانت لا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: غفور لهن، رحيم بهن.

كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

٢٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه ولما أنزل من الآيات البينات، فأقسم سبحانه بنفسه على أنه أنزل آيات بينات؛ إقامة للحجة على الخلق، وإعذارًا وإنذارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾، وقد أكدت هذه الجملة بالقسم، واللام، و«قد».

٢٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والإنزال يكون من

---

(١) سبق تخريجه.

علو. فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات.

٢٤- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- في تسمية الله عز وجل لما أنزله بالآيات الإشارة إلى دلالة هذه الآيات على أنها من عند الله لأنها تدل بعظمتها، وإعجازها بألفاظها ومعانيها وأحكامها وأخبارها وصلاحيتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، على أنها من عند الله، الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، وعلى صدق من جاء بها.

٢٦- بيان الله عز وجل لما أنزله من الآيات بيانًا تامًا شافيًا كافيًا، فهي بينة في نفسها ومبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل هو الهادي الموفق لمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢٨- إثبات المشيئة لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢٩- أن صراط الله عز وجل وطريقه هو أعدل الطرق وأقومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

﴿ٱللَّهُ﴾ علَم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وأصل أسماء الله عز وجل، وتأتي أسماء الله عز وجل كلها تابعة له، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر:٢٣]، وغيرها.

وقد يأتي تابعاً؛ كما في قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [إبراهيم:١، ٢].

لكنه لا يعرب صفة وإنما يعرب عطف بيان.

ومعناه: المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيماً.

﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خبر لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: نور السموات والأرض بذاته وصفاته وآياته، قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، وذلك إذا جاء عز وجل لفصل القضاء.

وقال ﷺ: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»(١).

ولما سئل ﷺ: هل رأيت ربك ؟ قال: « نور، أنى أراه»(٢).

وهو نور يليق بجلاله وعظمته، لا يكيف ولا يمثل.

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٠، ومسلم في صلاة المسافرين- الدعاء في صلاة الليل ٧٦٩، وأبو داود في الصلاة ٧٧١، والنسائي في قيام الليل ١٦١٩، والترمذي في الدعوات ٣٤١٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٥، وأحمد ١/ ٣٥٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: « نور أنى أراه» وأخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٨٢.

من خلقه »[١]، أي: كل شيء.

وقال عز وجل عن القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] وقال عز وجل: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨].

فالقرآن روح به تحيا القلوب والأبدان وبدونه تموت، وهو نور في دياجير ظلمات الجهل والشك والكفر.

وأيضاً: هو سبحانه هادي أهل السموات والأرض، ومنوّر السموات والأرض، أي: موجد النور، وخالقه فيهما، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً فهو عز وجل نور السموات والأرض، بذاته وصفاته وآياته، وهو هادي أهل السموات والأرض، ومنورهما، وخالق النور فيهما[٢].

فما في السموات والأرض والكون كله من نور، حسيًّا كان أو معنويًّا فهو منه عز وجل، ومن نوره.

ولا يجوز حمل الآية على المعنى الثاني وحده؛ لأن الله عز وجل وصف نفسه أنه نور السموات والأرض، وأن آياته نور، وصفاته نور، كما دلت على ذلك السنة، فوجب إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

وقصر الآية على المعنى الثاني تحريف للآية عن ظاهرها. وهذا منهج أهل البدع فرارا من وصفه عز وجل بالنور.

وينبغي أن يُعلم أن النور نوعان:

أ- نور ذاته عز وجل وصفاته وآياته. وهو صفة من صفاته عز وجل، وهذا غير مخلوق، قال ابن القيم[٣]: « فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات رؤية الله- سبحانه وتعالى ١٧٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: « دقائق التفسير » ٤/ ٤٧٠، « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٧

(٣) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٦. وهكذا ذكر ابن تيمية- رحمه الله- أن مذهب السلف أن النور من

النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى ».

ب- ونور آخر مخلوق منفصل بائن عن الله عز وجل وهو أيضاً نوعان:

١- حسي كنور الشمس والقمر والكواكب والمصابيح كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥]، ومنه النور الأخروي، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢] وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨].

٢- ومعنوي وهو ما يلقيه الله في قلب المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية، وقوله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وذلك هو معرفة الله والعلم والإيمان[(١)].

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، أي: شبهه ونظيره وصفته.

والمعنى: مثل نوره عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن من نور الفطرة والإيمان والهدى والقرآن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله»[(٢)].

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ قال: «فهو

أسماء الله وحجتهم هذه الآية؛ لأن النور صفة كمال، خلافاً للجهمية. انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦.

(١) انظر: «المفردات» مادة «نور».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٦ مطولاً وصححه أحمد شاكر ٦٦٤٤، وأخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٦٤٢ وقال: «حديث حسن»، والحاكم في « المستدرك » ١/ ٣٠ وصححه وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) ٧/ ١٩٣- ١٩٤: « رواه أحمد بإسناد ين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات »، وصححه الألباني في « الصحيحة » ٣/ ٦٤ حديث ١٠٧٦.

المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره»[١].

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما- : «مثل هداه في قلب المؤمن»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: « وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه، من معرفته ومحبته، والإيمان به، وذكره، وهو النور الذي أنزله إليهم، فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصّله في قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم، وجوارحهم، وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ».

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢]، وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨].

ولا يصح أن نقول مثل « نور الله » نور ذاته وصفاته وآياته كمشكاة؛ لأن الله لا مثل له لا في ذاته ولا في صفاته قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤].

فالدليل الشرعي وكذا العقل يمنع أن تشبّه صفاته عز وجل بصفات المخلوقين.

والمشكاة: هي الكوة في الحائط، وهي الطاقة غير النافذة، تجعل النور ينعكس ويجتمع ولا يتبدد.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أي: في المشكاة مصباح، والمصباح هو النور الذي في الفتيلة (السراج)[٤].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، أي: المصباح في زجاجة، تصفي نوره وتحميه وتقيه من الاضطراب وتزيده تألقاً، والزجاجة جرم شفاف.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٢، «وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩٥- ٢٥٩٧.

(٢) ذكره ابن كثير «في تفسيره » ٦/ ٦١

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٣- ٢٥٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٧، «المعرب» للجواليقي ٣٥١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

قوله ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾، الكاف للتشبيه، أي: كأنها في صفائها وإضاءتها.

﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قرأ الجمهور: (دُرِّيٌّ) بضم الدال وتشديد الياء، نسبة إلى الدُّر، وهو (اللؤلؤ والياقوت).

أي: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، أي: شديد الإضاءة كالدر والياقوت، واللؤلؤ في الصفاء واللمعان. ومنه سميت الكواكب الدراري الخمسة: المشتري وزحل والمريخ وعطارد والزهرة.

وقرأ الكسائي وأبو عمرو: (دِرِّئٌ) بكسر الدال مع المد والهمز.

وقرأ حمزة: (دُرِّيء) بضم الدال مع المد والهمز.[1]

والمعنى على القراءتين الأخيرتين مأخوذ من الدرء بمعنى الدفع؟[2].

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ [النور:٨]، أي: ويدفع عنها العذاب.

أي: كأنها كوكب دفع ورُمي به، والكوكب أشد ما يكون استنارة إذا رمي به، فهو يدفع الظلمة بشدة وقوة، لقوة نوره وشدة إضاءته، كما يدرأ ويدفع الشياطين.

والمعنى: أن الزجاجة في صفائها وإنارتها كالكوكب الدري، في شدة صفائه وقوة بياضه وإضاءته ولمعانه، والذي يدفع الظلمة بشدة وقوة، لأن قوله: «دُرِّيءٌ» على وزن (فُعِيَّل) صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة تدل على التعظيم.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بتاء مفتوحة، مع فتح الواو والدال وتشديد القاف، فعلاً ماضياً: «تَوقَّدَ»، أي: تَوقَّدَ المصباحُ.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص بياء مضمومة، مع إسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال على التذكير، فعلاً مضارعاً مبنياً للمجهول: ﴿يُوقَدُ﴾، أي: المصباح.

وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بالتاء على التأنيث: «تُوقَدُ»، أي: الزجاجة[3].

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، «من» لابتداء الغاية، أي: يستمد وقوده من زيت شجرة

---

(١) انظر: «العناية في القراءات العشر» ص ٣، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٦١، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

(٣) انظر: «الغاية» ص ٣٣٩، «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

مباركة[١]. ولابد من تقدير « زيت »، أي: من زيت شجرة، لأن الشجرة ليست هي الوقود، وإنما الوقود زيتها المعتَصر من ثمرها.

﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾، أي: ذات بركة كثيرة، وخير كثير، لأن الله بارك فيها. والبركة: الخير الكثير الثابت، ومنه سميت بركة الماء (بِركة) لكثرة مائها وثبوته.

ومنه قوله تعالى عن نفسه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١]، وقوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص:٢٩]، وقوله تعالى فيما حكاه عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، وقوله عن البيت: ﴿مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، وقوله- تعالى عن ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣].

﴿زَيۡتُونَةٖ﴾: بدل، أو عطف بيان من «شجرة»، أي: زيتونة من شجر الزيتون المعروف الذي يتخذ زيته وقوداً، وإنما خص شجرة الزيتون، لأن زيتها هو أشد أنواع الوقود صفاء، وأعلاها وأقواها إضاءة ونورا.

﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: وصف للزيتونة أي: إنها في أعدل الأماكن وأوسطها وأسلمها من الآفات.

أي: في مكان مرتفع من الأرض (ربوة)، أو (جبل)، فلا هي شرقية في منخفض من جهة الشرق، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية في منخفض من جهة الغرب، فلا تصيبها الشمس أول النهار، ولا هي في طرف من الأرض فتصيبها الآفات، كما يقال «الأطراف أتلاف».

بل هي شرقية وغربية في ربوة أو جبل تصيبها الشمس من شروقها إلى غروبها، أو عند شروقها وعند غروبها، فهي في أكمل الأجواء، لا يعرض لها حر ولا برد مُضِرين، تأخذ نصيبها كاملاً من منافع الشمس ودفئها، وتأخذ من كونها مرتفعة في ربوة أو جبل ما في ذلك من منافع، من التعرض للهواء، وطيب الأرض، وغير ذلك، فيجيء زيتها صافياً مشرقاً جيداً[٢].

وهذا أمر مشاهد معلوم، فكلما كانت الأشجار من النخيل وغيرها تصيبها

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥٨.

(٢) انظر: « جامع البيان » ١٧/ ٣١١- ٣١٣، « تفسير ابن كثير » ٦/ ٦٢- ٦٤

الشمس عند غروبها وعند شروقها كان ثمرها أطيب وأجود.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، «يكاد»، أي: يقارب زيتها يضيء، أي: يحدث إضاءة، وإنارة من شدة حسنه، وجودته وصفائه.

﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، أي: ولو لم يوقد هذا الزيت بنار، فكيف إذا أوقد بنار، فلا تسأل عن قوة إضاءته وإنارته.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، أي: نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاجة، على نور الزيت الذي يكاد يضيء دون إيقاد النار فيه، وكذلك نور القرآن، والوحي، والإيمان، على نور الفطرة الصحيحة، فهي أنوار متضاعفة يزيد بعضها بعضاً، مما ذكر، وغيره، مما لا يعلمه إلا الله.

قال ابن القيم[1]: «نور الوحي، ونور العقل، ونور الشريعة، ونور الفطرة، ونور الأدلة السمعية، ونور الأدلة العقلية».

وقال أيضًا: «فنور المصباح مستمد من نور هذا الزيت وتضاعفه المشكاة والزجاجة، ونور الإيمان في قلب المؤمن مستمد من القرآن والسنة ويضاعفه العلم النافع، والعمل الصالح.

فقد شبه الله عز وجل في هذه الآية : الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، كأنها في قوة إضاءتها وصفائها كوكب من الدر، وهو اللؤلؤ، يدفع الظلمة بشدة، من قوة إضاءته وبياضه وصفائه، هذا المصباح أو الكوكب الدري يوقد من زيت شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية، ولا غربية، يكاد زيتها من شدة صفائه يضيء دون إيقاد.

وهذا يسمى تشبيه تمثيل، وهو التشبيه المركب من عدة أشياء، فالمشكاة يقابلها الصدر، فكل منهما يحيط بالنور؛ المشكاة تحيط بالنور الحسي، والصدر يحيط بالنور المعنوي، والزجاجة يقابلها القلب في صفاء كل منهما ورقته وصلابته، والمصباح يقابله نور الإيمان في كون كل منهما يحصل به الاهتداء ومعرفة الطريق، فبالمصباح يعرف الطريق الحسي، وبنور الإيمان يعرف الطريق المعنوي.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

ومادة نور المصباح زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن، زيتها في غاية الصفاء، ومادة نور الإيمان في قلب المؤمن من شجرة الوحي المباركة المتضمنة للهدى ودين الحق»[١].

وهذا المثل للتقريب فقط؛ لأن تشبيه المعقول بالمحسوس يراد به تقريب المعنى المعقول للأذهان، لا أن وجه الشبه في المشبه به أقوى، إذ لا إشكال في أن نور الإيمان والعلم في قلب المؤمن أشد وأبلغ وأقوى من نور المشكاة، وقد روي أن أبا تمام الشاعر المعروف أنشد الأمير أحمد بن المعتصم قصيدة يمتدحه فيها[٢]،قال فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي وزير الأمير وخادمه: ما زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب، والأمير فوق ما وصفت، فأجابه أبو تمام على الفور:

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس[٣]

فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين، فقال الفيلسوف: هذا لا يعيش بل

---

(١) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٠.

(٢) أبوتمام اسمه حبيب بن أوس الطائي عاش (٤٣) سنة من ١٨٨- ٢٣١هـ. انظر: «ديوان أبي تمام» ص ١١٣- ١١٤، وانظر: «ديوانه بشرح التبريزي» ٢/ ٢٤٩- ٢٥٠، «وفيات الأعيان» ٢/ ١٥، «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٦٣- ٦٩، «البداية والنهاية» ١٠/ ٣٠٠، «شذرات الذهب» ٢/ ٧٤.

ومعنى قوله: «إقدام عمرو... الخ البيت: تشبيه الأمير أحمد بن المعتصم بالشجاعة بعمرو بن معد يكرب من فرسان العرب، وشجعانهم، قدم على النبي ﷺ وأسلم، ثم ارتد مع الأسود العنسي فاستتابه أبو بكر رضي الله عنه، فتاب، وحسن إسلامه، مات سنة ٢١هـ، انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥- ١٤٦.

ومعنى قوله: «في سماحة حاتم»، أي: في سماحة حاتم الطائي وكرمه. «في حلم أحنف»، أي: في حلم الأحنف بن قيس، الذي يضرب به المثل في الحلم والسؤدد. أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته. «في ذكاء إياس»، أي: في ذكاء القاضي إياس قاضي البصرة. أي: أن هذه الصفات الأربع كلها قد اجتمعت في الأمير.

(٣) أي: لا تنكروا تشبيهي له بمن هو دونه «مثلاً شرودا»، أي: مثلاً فيه بُعد «في الندى والباس»، أي: في الكرم والشجاعة في القتال «فالله قد ضرب الأقل...»الخ أي: أن الله عز وجل مثل نور الإيمان قي قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح مع أن نور الإيمان في القلب أقوى وأعظم ونور المشكاة فيها المصباح أقل.

يأكل عقله جسمه[١].

قال ابن القيم[٢]: «وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير أن تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودا، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الإله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحس ويتحنن ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى.

قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها».

والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتّقد منها.

والنور على النور: هو نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي

---

(١) أي: أن هذين البيتين ليسا من ضمن القصيدة التي أعدها وإنما جاء بهما على البديهة. ولهذا قال الفيلسوف: هذا لا يعيش، بل يأكل عقله جسمه، أي: لفرط ذكائه وبديهته.

(٢) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٩- ٢٦١.

والكتاب، فيضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق، والحكمة قبل أن يسمع ما فيها من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور».

والمقصود بهذا التشبيه: المؤمن الإيمان المطلق، أي: الإيمان الكامل، لا الذي عنده فقط مطلق الإيمان، وهو الذي إيمانه ناقص، فإن النور ينتقص عنده بمقدار ما عنده من نقص في الإيمان، ويزيد هذا النور بقدر زيادة الإيمان، فإذا كمل إيمان الشخص ظهر له الحق من الباطل والغث من السمين، وصار له بصيرة نافذة في الأمور وعواقبها لأنه ينظر بنور الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر في أمور الدين والدنيا.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها » الحديث[(١)].

ولهذا كان ﷺ يقول: « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، واجعل لي نوراً »[(٢)].

وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مستقيم»[١].

فنور الإيمان يزيد بقدر طلب العبد للهدى ودين الحق الذي أرسل الله به محمداً ﷺ.

كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩] وهو العلم النافع والعمل الصالح.

ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] أي: العلماء العارفون بالله وبشريعته.

وبقدر ما يضعف طلب العبد للعلم النافع والعمل الصالح يضعف نور الإيمان عنده، ولهذا قال الشافعي[٢] رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: الهداية في الأصل تنقسم إلى قسمين:

١- هداية التوفيق والإلهام والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

٢- وهداية البيان والدلالة والإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، وكذلك رسله والدعاة إليه هداة بهذا المعنى.

وهناك هداية قدرية أعم منهما جميعاً وهي هداية كل مخلوق لما قدر وخلق له وهي أيضاً خاصة بالله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣] أي: هدى كل مخلوق لما خلق له.

والمراد بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل.

﴿لِنُورِهِۦ﴾، أي: لنور الإيمان والقرآن.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: «من» موصولة، أي: الذي يشاء، أي: يوفق الله للإيمان الذي يشاء،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٧٦.

أي: الذي يريد كونًا توفيقه، ممن تقتضي حكمته توفيقه، ممن أقبل على الله وصدقت نيته واتقى الله، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]. ولهذا قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل:٥- ١٠] »[1].

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لما ذكر عز وجل مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾.

والأمثال: جمع «مَثَل» وهو الشَبَه، أو جمع «مِثْل» وهو الشِّبْه، والأمثال: الأشباه والنظائر أي: كل شيء يشابه غيره.

والغرض من ضرب الأمثال تقريب الأمر إلى أذهان الناس، فيُمثل الأمر المعنوي لتقريره وتقريبه بأمر حسي، كما في الآية هنا، حيث مثل الله الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن، وهذا أمر معنوي بالمشكاة فيها مصباح.. الخ، وهو شيء حسي.

وهذا كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٨، ١٧]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[البقرة:٢٦١]، وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥].

وقد يمثل الأمر الحسي بأمر حسي آخر؛ لكون الأول غريباً أو منكراً أو مستبعداً، والثاني معلوماً.

وقد يمثل أمر معنوي خفي بأمر معنوي أظهر منه ونحو ذلك.

وضرب الأمثال وهي الأشباه والنظائر من نعم الله على العباد لزيادة الإيضاح والبيان للتذكر والتفكر والتعقل والاتعاظ والاعتبار وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:٣٢] وما بعدها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، قليلها وكثيرها عليم.

ومعنى (عليم)، أي: محيط به علماً، ومن تلك الأشياء علمه بمن يستحق الهداية والنور ممن لا يستحق ذلك.

و(عليم) على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أنه ذو العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم؛ ولهذا لما سُئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً، فمن قال: عدد الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولاً، فهو عالم مدرك يدري ويدري أنه يدري.

وأما من قال: لا أدري، أو قال: عددهم ثلاثون، فكلاهما ليس بعالم ولا مدرك.

فالأول جاهل جهلًا بسيطًا؛ لا يدري ويدري أنه لا يدري، والثاني جاهل جهلا مركبًا؛ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

والأول كحمار «الحكيم توما»، والثاني كالحكيم توما، الذي قال عنه حماره فيما حكاه الشاعر:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصف الناس كنت أرْكَبْ
لأنني جاهل بسيطٌ ... وصاحبي جاهل مُرَكَّبْ

وذلك لأن «الحكيم توما» - فيما يقال عنه تصدق - ببناته على رجال بطريق الحرام، يريد بذلك الجنة؛ كما قال عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ ... يضل عن الصراط المستقيمِ
وتلتبس الأمور عليه حتى ... يصير أضل من «توما الحكيمِ»

تصـــدق بالبنـــات عـــلى رجـــال يريـد بـذاك جنـات النعـيم[1]

ويؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عِلم الله الواسع الشامل لكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمطابقة مورد المثل لمضربه، أي: مطابقة المثل للممثل به، ومطابقة المشبه للمشبه به.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أن الله عز وجل نور السموات والأرض؛ بذاته وصفاته، وآياته، وهو عز وجل منور السموات والأرض، وخالق النور فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات صفة النور لله عز وجل، وأنه نور السموات والأرض، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن «النور» اسم من أسمائه عز وجل، كما سبق بيانه.

٣- قوة نور الهداية في قلب المؤمن كامل الإيمان، ونفوذ بصيرته، ووضوح الطريق أمامه؛ لأنه يسير على نور من الله؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح كامل الإضاءة والنور فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

٤- تشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي لزيادة البيان والإيضاح؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان الذي يلقيه- سبحانه وتعالى- في قلب المؤمن بالمصباح.

٥- جواز تشبيه الشيء بما هو دونه في وجه الشبه، فإن الله عز وجل شبه الإيمان في قلب المؤمن بنور المصباح، مع أن نور الإيمان أقوى وأقوى.

٦- أن كون المصباح في مشكاة وفي زجاجة صافية، ووقوده من زيت شجرة مباركة زيتونة في وسط ربوة كل ذلك مما يزيد في نوره وإضاءته

٧- أن شجرة الزيتون من الأشجار المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾.

٨- أن كون شجرة الزيتون في وسط الربوة تصيبها الشمس عند شروقها وعند غروبها أجود لثمرها وأصفى لزيتها، وهكذا غيرها من الشجر كالنخيل وغيرها؛ لقوله

---

(١) انظر: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ٢/ ٣٣٨، «الآداب» لابن مفلح ٢/ ١٢٦.

تعالى: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾

٩- في اجتماع هذه الأنوار الحسية وهي نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاجة، على نور الزيت الصافي يكون المصباح في أكمل إنارة؛ لقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

١٠- أن في اكتمال هذه الأنوار المعنوية نور القرآن، ونور الهداية والإيمان، ونور الفطرة في قلب المؤمن يكتمل نور الإيمان عنده؛ لقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

فتراه يسير بنور من الله، يتكلم بنور من الله، ويفعل بنور من الله، ويترك بنور من الله نسأل الله التوفيق والهداية. كما قال تعالى في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجل التي يمشي بها...» الحديث[1].

١١- اختصاصه عز وجل بالهداية والتوفيق لهذا النور؛ لقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ فمن أقبل على الله عز وجل وسعى في تحصيل هذا النور، بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه منحه الله عز وجل هذا النور.

١٢- ضرب الأمثال للناس بتشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي تقريباً للأذهان، وزيادة في الإيضاح والبيان؛ لإقامة الحجة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾.

١٣- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل وأنه سبحانه أحاط علماً بكل شيء، لقوله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

١٤- الرد على القدرية الذين ينفون علم الله تعالى بأفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)﴾.

قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب الحضرمي، وورش عن نافع، وحفص عن عاصم «بُيوت» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها في جميع القرآن(١).

وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وقيل: متعلق بما قبله، وهو قوله جل جلاله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. وفيه قوة من حيث المعنى؛ لأن نور الإيمان يستمد من تعظيم الله عز وجل وشرعه، ومن أعظم ذلك الصلاة في المساجد، كما قال ﷺ في الحديث: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك**»(٢).

والمراد بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: بيوت الله: المساجد؛ كما جاء في الحديث: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم**»(٣).

﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: الإذن ينقسم إلى قسمين:

١- إذن كوني: يلزم فيه وقوع ما أذن الله به، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الكوني، والإرادة الكونية، فلا يمكن على هذا تخلف ما أذن الله به، وما أمر به، وما أراده.

ومن الإذن الكوني قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥]، وقوله

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٢٢٦.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٦٩٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٦].

٢- إذن شرعي: لا يلزم فيه وقوع ما أذن به، ويلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الشرعي، والإرادة الشرعية، وقد يتخلف متعلق كل منها.

ومن الإذن الشرعي قوله ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، وقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ [الحج:٣٩].

والمراد بالإذن في قوله هنا: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ الإذن الشرعي، أي: أمر الله شرعاً أن ترفع.

والإذن الشرعي في الأصل يشمل الواجب، والمندوب، والمباح. فالإذن، بمعنى الأمر واجب أو مندوب، وبمعنى الرخصة مباح.

و«أن» وما دخلت عليه في قوله: ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: في أن ترفع، أي: أَذِنَ برفعها.

ومعنى: ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾، أي: تعظَّم ويُعلى شأنها وقدرها رفعاً معنوياً بتعظيمها، وعمارتها بالعبادة فيها، ورفعاً حسيا ببنائها، وعمارتها، وتجهيزها، وتنظيفها، وتطييبها، واحترامها وتوقيرها[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

فتعظَّم المساجد بالعبادة فيها، بأداء الصلوات الخمس جماعة فيها، وبالذكر وقراءة القرآن وأداء الأذكار الواردة عند دخولها، وعند الخروج منها، وأداء تحيتها بصلاة ركعتين عند دخولها.

وبأخذ الزينة عندها، لقوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، وذلك بارتداء الملابس الجميلة والنظيفة عند الحضور إلى المساجد، واستشعار المسلم أنه سيقف في الصلاة أمام ملك الملوك، فلا يليق أن يأتي إليها بأثواب رثة غير نظيفة، أو يأتي إلى الصلاة بقميص النوم، كما يفعله الكثيرون، وبخاصة في الحرم، ممن لا يستشعرون هذه المعاني، ولو أن أحدهم أراد الخروج إلى السوق، أو مقابلة أحد الموظفين، أو الذهاب لأي مناسبة لاستعد بأحسن الملابس، وأي مناسبة تفوق مناسبة الوقوف أمام الخالق العظيم ومناجاته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٦

بل إن الكثيرين يتهاونون في الحرم ما لا يتهاونون في غيره من المساجد في أماكن إقامتهم، لا لشيء، وإنما لأنهم في الحرم لا يُعرفون، بخلاف ما إذا كانوا في مساجدهم.

وترفع المساجد وتعظم حسياً ببنائها وتهيئتها للمصلين، وتنظيفها وتطييبها وتبخيرها وتوقيرها واحترامها ونحو ذلك.

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بنى لله بيتاً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في(الدور)، وأن تنظف وتطيب »(٢).

ومعنى في(الدور) في الأحياء والحارات والديار، فعن سمرة- رضي الله عنه- قال: « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها »(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- : أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء، كان يَقُم المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم آذنتموني به دُلوني على قبره، أو قال على قبرها، فأتى قبرها فصلى عليه»(٤).

فالمساجد بيوت الله، وهي أحب البلاد إلى الله(٥) وهي أشرف البقاع وأرفعها وأعلاها

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤١ من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٨ من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- وأخرجه البخاري في الصلاة- من بنى لله مسجداً ٤٥٠، ومسلم في المساجد- فضل بناء المساجد والحث عليها ٥٣٣، والترمذي في الصلاة ٣١٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٦- من حديث عثمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة».

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٧٩، وأبو داود في الصلاة- اتخاذ المساجد في الدور ٤٥٥، والترمذي في أبواب السفر- ما ذكر في تطييب المساجد ٥٩١، وفي الجمعة ٥٩٤، وابن ماجه في المساجد- تطهير المساجد وتطييبها ٧٥٨، ٧٥٩، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧، وأبو داود في الصلاة- اتخاذ المساجد في الدور ٤٥٦، قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣٩: «أخرجه أحمد بسند صحيح، وكذا رواه غيره بأسانيد جيدة». وصححه الألباني

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٥٨، وفي الجنائز ١٣٣٧، ومسلم في الجنائز ٩٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٢٠٣، وابن ماجه في الجنائز ١٥٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد ٦٧١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدراً[١]، مما يوجب على المسلمين تعظيمها وعمارتها بالعبادة وبالبناء، وتطهيرها مما لا يليق بها وتنظيفها وتطييبها؛ لأن الله عز وجل أذن في رفعها وأمر به، وأمر بذكر اسمه فيها وذكر الله أشرف الأعمال، فشرف المساجد بشرف ذكر الله؛ لأنها مواضع الصلاة وذكر الله.

ومن العناية فيها أن توضع بجانبها وعلى أبوابها دورات المياه للوضوء والتطهر، مع العناية بنظافتها.

ومن رفع المساجد، وتعظيمها، وتوقيرها، واحترامها، ونظافتها، وصيانتها: تطهيرها مما لا يليق بها من النجاسات الحسية، والمعنوية، وغير ذلك، فتطهر من بناء القبور فيها، لما في ذلك من الوسيلة إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩].

فإن كان المسجد بني على قبر هدم المسجد، وإن كان القبر حفر في المسجد نقل خارجه.

ومن ذلك منع الجنب والحائض من دخولها، كما في الحديث: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»[٢].

ومن ذلك منع البيع والشراء وإنشاد الضالة فيها، فعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبي ﷺ: «لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد

---

(١) ذكر في شرح معنى المثل « وافق شن طبقة » أن صاحب «شن» لما وصل إلى بلده وأراد أن يضيفه قال لـ«شن» أين أجدك ؟ لكي يحضره معه إلى بيته ليضيفه، فقال «شن» تجدني في أرفع وأعلى مكان- وبعد أن بحث عنه في جميع الجبال والمرتفعات في البلد ولم يجده قالت له ابنته «طبقة»: اذهب تجده في المسجد فهو أعلى وأرفع مكان فذهب فوجده في المسجد... الخ القصة.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٢، من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ١٧٠- بعد أن ذكر حديث أم سلمة- رضي الله عنها- بهذا المعنى، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة ٦٤٥- : «قال أبو زرعة «الصحيح حديث عائشة».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد- النهي عن نشد الضالة في المسجد. وما يقوله من سمع الناشد ٥٦٩، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٥.

فقولوا: لا ردها الله عليك »[(١)].

ومن ذلك أن لا تتخذ طريقاً، ولا يشهر فيها السلاح، ولا تقام فيها الحدود، ولا القصاص، ولا تتخذ سوقاً، وأن تجنب الصبيان والمجانين، والخصومات، ورفع الأصوات، واستعمال الجوَّالات، التي تسمع منها النغمات الموسيقية، وأصوات الأجراس حتى حال الصلاة، كما يسمع فيها القيل والقال، والكلام الذي لا يليق ببيوت الله.

وما الفرق بين من يتكلم مع جليسه في المسجد وبين من يُكلم بالجوَّال شخصاً خارج المسجد أو داخله إذا كان الكلام كما هو الغالب في أمور الدنيا ويشوش على المصلين وعلى المشتغلين بالذكر وقراءة القرآن، كل هذا لا ينبغي.

بل إن رفع الصوت في المساجد حتى في القراءة والذكر زيادة عن الحاجة لا ينبغي كذلك، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١١].

وقال ﷺ لأصحابه: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[(٢)].

وعلى هذا فلو كانت أصوات المكبرات في الأذان، والإقامة والصلاة بقدر الحاجة لكان أفضل وأسلم.

ولا ينبغي رفعها فوق الحاجة وبخاصة في الصلاة بما يشوش على المساجد الأخرى، ويؤذي جيران المسجد، فقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨].

ولقد بلغ الحال ببعض أئمة المساجد إلى أنه لأجل المبالغة في رفع صوت المكبر يخل

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٦٨، وأبو داود في الصلاة ٤٧٣، والترمذي في أبواب البيوع- النهي عن البيع في المسجد ١٣٢١، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٧.

وكذا روي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: « نهى النبي ﷺ عن البيع والابتياع في المساجد وأن تنشد الأشعار في المساجد» رواه الترمذي في أبواب الصلاة- كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد ٣٢١، وأبو داود في الصلاة ١٠٧٩، وأحمد ٢/ ١٧٩، ٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٤، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بالطمأنينة التي هي ركن من أركان الصلاة فتراه يتحرك يميناً وشمالاً وإلى الأمام والخلف يتتبع اللاقطة ويترك مع ذلك سنة النظر إلى موضع سجوده، فتراه رافعاً نظره أمامه لأجل اللاقطة مع أنها تلتقط الصوت من بعيد ومن قريب، وليس هناك ما يستدعي هذه المخالفات التي تخل بالصلاة؛ لأن صوت المكبر يكاد يصخ الآذان ويسمعه القريب والبعيد.

وأخيراً فإن من تعظيم المساجد حقّاً ألا تكون متقاربة جدّاً، وألا يبنى مسجد بقرب مسجد، سواء كان عن حسن قصد، أو لأجل خلاف بين أهل الحي أو مضارة، أو لأجل رفع قيمة أرض يريد بيعها، أو لأجل تعيين الأبناء في وظائف المسجد، كما يفعله بعض الناس، أو غير ذلك.

والمصيبة أن بعض الناس يبني مسجداً في مثل هذه الأحوال، أو لمثل هذه الأغراض، ومع ذلك يغرر بالمحسنين من أهل الفضل والبذل، وهذا أمر لا يجوز.

كما أن من العناية بالمساجد، وتعظيمها ألا تكون متباعدة جدّاً، بحيث تجد أحياء كاملة ليس فيها مسجد، كما هو الحال بالنسبة لبعض البلدان والمدن، فإن بُعد المسجد عن المصلين مما يحمل على الكسل والتهاون في صلاة الجماعة.

ويجب على الجهات المسؤولة عن المساجد في البلاد الإسلامية وغيرها أن تتولى تنظيم وضع المساجد وأماكنها بدقة.

وليس من رفع المساجد أن تزخرف، فقد قال ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد» قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى»[1].

أي: كما زخرف اليهود البيعَ، وزخرف النصارى الكنائس.

وعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- بناء المساجد ٤٤٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٤٠- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقاً في الصلاة- بنيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وقال في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣٦: «صححه ابن حبان. ورجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤، ١٤٥، و أبو داود في الصلاة ٤٤٩، والنسائي في المساجد- باب المباهاة في المساجد ٦٨٩، وابن ماجه في المساجد- باب تشييد المساجد ٧٣٩، وذكره البخاري معلقاً- في الصلاة-

وأمر عمر- رضي الله عنه- رجلاً ببناء المسجد وقال: «أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس»[(١)].

ومما يؤسف له أن عناية كثير من المسلمين في كثير من بقاع الأرض في المساجد انصبت على تشييدها وزخرفتها، مع ضعف شديد بالعناية بعمارتها بعبادة الله عز وجل، وهي العمارة المعنوية التي هي جل المقصود.

عن علي- رضي الله عنه- أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شر أهل ذلك الزمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود»[(٢)].

أقول: رضي الله عنك يا أبا الحسن، كأنك تنظر لحال الأمة اليوم، فهاهي المساجد يتنافس في بنائها، وتشييدها، وزخرفتها، مع ضعف في عمارتها بالعبادة.

وهاهم بعض المنتسبين إلى العلم كانوا من أسباب فتنة الأمة، واختلافها بجرأتهم على الفتيا، ومخالفة ما عليه سلف الأمة.

﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾، أي: يذكر فيها اسم الله عز وجل، بذكره عز وجل بأسمائه وصفاته، والثناء عليه وتعظيمه وتمجيده بالقلب واللسان، بالقراءة، والصلاة، والتحميد، والتهليل، والتكبير وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ داخل ضمن قوله ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾؛لأن من رفعها رفعها بذكر الله وأسمائه وعبادته فيها، بل هذا أعظم جوانب رفعها، ولهذا عطفه على ما قبله، من باب عطف الخاص على العام، لبيان أن المقصود الأعظم من جوانب رفعها أن ترفع وتعظم ويعظم قدرها وشأنها بذكر الله فيها بالعبادة.

بنيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وصححه ابن خزيمة كما ذكر الحافظ في «بلوغ المرام» ص١٨١، وصححه الألباني. قال أنس: «يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً» ذكره البخاري في الصلاة- بنيان المسجد.

(١) ذكره البخاري- معلقاً- في الصلاة- بنيان المسجد. قال: «وقال أبو سعيد كان سقف المسجد من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد، وقال: «أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس». انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٨٠.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾:

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يُسبَّح» بفتح الباء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة يكون الوقف على قوله: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً[١].

وقرأ الباقون بكسرها بالبناء للفاعل[٢].

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فاجتمع في الآية إثبات الكمال لله عز وجل بقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ونفي النقص عنه بقوله ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾.

والتسبيح كما أنه يدل على نفي النقص، وتنزيه الله عز وجل عن النقائص، والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، فقد يحمل على ما هو أعم من ذلك وهو العبادة كلها كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق:٤٠]، [الطور:٤٩] أي: صلِّ له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ [طه:١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وكقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] فالمراد بالتسبيح هنا العبودية لله والانقياد له، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وإذا حملنا التسبيح على معناه العام من تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعلى الصلاة والذكر وقراءة القرآن وغير ذلك، فقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ الآية تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

﴿لَهُۥ﴾، أي: لله عز وجل. ﴿فِيهَا﴾، أي: في البيوت التي أذن الله أن ترفع، وهي المساجد.

﴿بالْغُدُوِّ﴾: الغدو أول النهار، ما قبل الزوال ﴿والآصال﴾: جمع أصيل، وهو

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣١٩- ٣٢٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧١، ٧٢.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٢.

آخر النهار، ما بعد الزوال.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:٤١]، وقوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، والعشي آخر النهار، والإبكار أول النهار، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، فيدخل في هذا صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، وقوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[١]، والبردان: الفجر والعصر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا»[٢] يعني: الفجر والعصر.

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[٣] يعني: الفجر والعصر.

كما يدخل في ذلك سائر أذكار وتسبيحات الصباح والمساء.

وقد يحتمل قوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ جميع الأوقات، كما في قوله تعالى عن طعام أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] فالمعنى لهم رزقهم فيها على الدوام في جميع الأوقات.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧- من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١- من حديث عُمارة بن رُؤَيْبة عن أبيه رضي الله عنه.

فيدخل في عموم التسبيح الصلوات الخمس المفروضة، وغيرها من النوافل والأذكار، في جميع الأوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لقوله «يُسبِّح» على قراءة من قرأ بكسر الباء الموحدة، وعلى قراءة «يسبَّح» بفتح الباء الموحدة يكون هذا الفعل مبنياً للمفعول، ونائب الفاعل «له»، و«رجال» فاعل لفعل مقدر، دل عليه الفعل المذكور كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: يسبحه رجال.

والرجال: هم الذكور البالغون، وكلمة «رجال» تدل على المدح والثناء، أي: رجال، وأيّ رجال، رجال، ونعم الرجال، لأن قمة الرجولة، وذروتها معرفة حق الخالق سبحانه وتعظيمه، وتعظيم حقوقه وحرماته، وهذا قمة الفخر والعظمة الإنسانية.

قمة الرجولة أنه إذا سمع المؤمن حي على الصلاة، حي على الفلاح قام مسرعاً فرحاً نشيطاً منشرح الصدر لسان حاله يقول: نادى منادي العظيم، نادى منادي المنعم- وهكذا كلما حضر واجب لله من صلاة أو زكاة أو صيام أو بر للوالدين وغير ذلك.

وليست الرجولة بكثرة الأموال والأولاد ولا بالمفاخرة بالأحساب، والأنساب، والمناصب، والجاه ونحو ذلك- مع البرود والتبلد تجاه حقوق الله عز وجل، والتقصير فيها أو التفريط حتى إنه ليقال للرجل: «ما أعقله وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» كما قال ﷺ[1].

وأي رجولة فيمن لم يعرف حق ربه وخالقه والمنعم عليه بسائر النعم، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال ابن كثير[2] رحمه الله: «فقوله (رِجَالٌ) فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٧، ومسلم في الإيمان ١٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٧٩، وابن ماجه ٤٠٥٣- من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٧٢

وعزائمهم العالية، التي صاروا بها عمّاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]».

وفي الآية دلالة على مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، وقد دل القرآن على وجوبها في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:١٠٢]، كما دلت على ذلك السنة في أحاديث متواترة(١).

وإن مما يؤسف له ويندى له جبين كل مسلم غيور على دينه وأمته أن ينادي منادي الله عز وجل: (الله أكبر) وتقام الصلاة وكثير من المسلمين على فرشهم أو في بيوتهم، أو مشغولون هنا وهناك، مما يجعل قلب المؤمن يتفطر وتفيض عيناه دماً لا دمعاً على ما آل إليه حال المسلمين من التفريط في جنب الله، خالقهم ومربيهم بنعمه التي لا تحصى.

كما قال الشاعر:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إسلام وإيمان(٢)

ويُفهم من قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ أن النساء يسبحن ويصلين في بيوتهن، فلا تجب عليهن صلاة الجماعة، بل ولا تسن لهن، لكن إن حضرن إلى المساجد وصلين فيها فلا بأس؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن»(٣).

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢].

(٢) هذا البيت من قصيدة مؤثرة لأبي البقاء الرندي يرثي بها الأندلس وأحوال المسلمين فيها لما ضيعوا أمر الله وسقطت على أيدي النصارى، فكانوا يبيعون ملوك المسلمين وهم يكون كالرقيق، ويستبيحون نساءهم. وما أهون الخلق على الله إذا هم أضاعوا أمره. وكنت أتذكر هذه القصيدة وهذا البيت خصوصاً عندما أخرج إلى الصلاة وأرى شارع الحي يكتظ بالسيارات الواقفة أمام البيوت إضافة إلى ما في داخل البيوت من السيارات، فإذا دخلت المسجد لم أجد فيه إلا رجلاً أو رجلين، وتقام الصلاة على أفراد يعدون بالأصابع لا يتجاوزون الستة، يَصِلون إلى العشرة في نهاية الصلاة. ولو صلى كل أهل الحي لاحتجنا إلى توسعة بعض المساجد، والله المستعان.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، ٥٦٧، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

وفي رواية: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها»[١]، وفي رواية: «لا تمنعوا النساء أن يخرجن إلى المساجد»[٢].

وعلى هذا فيجوز خروجهن إلى المساجد، ولا يجوز للأزواج منعهن إلا إذا خيفت الفتنة بهن أو عليهن، فيجب عليهن ألا يخرجن ويجب على الأزواج منعهن. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لو أدرك النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما مُنعت نساء بني إسرائيل»[٣].

روي أن عاتكة بنت زيد زوجة الزبير بن العوام- رضي الله عنهما- كانت تتردد على المسجد، وكان الزبير لا يحب خروجها إلى المسجد، لكنه لم يمنعها لنهي الرسول ﷺ عن ذلك فاحتال عليها ذات يوم، وكمن لها في الطريق، فلما مرت به ضرب على عجيزتها. فلما رجعت لم تخرج بعد ذلك. فسألها عن ذلك فقالت: كنا نخرج والناس ناس»[٤].

قوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾: هذا وصف لـ(رِجَالٌ) لأن الجمل بعد النكرات صفات.

ومعنى ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ أي: لا تشغلهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] أي: شغلكم عن طاعة الله.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يُطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

وتطلق التجارة على ما هو أغلى وأعلى من تلك الأرباح الدنيوية، وهي الجنة أغلى السلع قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر:٢٩- ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٣٨، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، والنسائي في المساجد ٧٠٦- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٩٠، ١٤٠ من حديث ابن عمر- رضي الله عنه وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٩، ومسلم في الصلاة ٤٤٥، وأبو داود في الصلاة ٥٦٩.

(٤) انظر: «الإصابة» ٤/ ٣٤٦.

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- : « ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[١].

قال ابن القيم[٢] رحمه الله تعالى:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: معطوف على تجارة من باب عطف الخاص على العام؛ لأن البيع والشراء من أهم أنواع التجارة، وأغلبها، وأكثرها ربحاً، بخلاف غيرها من أنواع التجارة كالإجارة ونحوها.

والمراد بالبيع ما يشمل البيع والشراء معاً، فلا تلهيهم التجارة بعقودها المختلفة، من بيع وشراء وإجارة وغير ذلك، ولا تلهيهم بحفظها وصيانتها، ونقلها، وتنظيمها وترتيبها، وعد أرباحها وغير ذلك.

وإذا كانت التجارة والبيع- وهي من أهم المطالب الدنيوية- لم تشغلهم عن طاعة الله فغيرها من أمور الدنيا لا يشغلهم من باب أولى.

وفي الآية ما يدل على جواز الاتجار ما لم يشغل ذلك عن طاعة الله؛ لأن الله ذكر ذلك في موطن الثناء على هؤلاء الرجال.

بل إن الاتجار والبيع إذا كان لطلب الكفاف والاستعانة بالمال على طاعة الله فهو أمر مشروع.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المراد بذكر الله: ما يعم جميع أنواع العبادات القولية، والفعلية، والبدنية، والمالية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ وقال: «حسن غريب».

(٢) انظر: «النونية» ص ٢٤٨.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هذا أيضًا من عطف الخاص على العام؛ لأن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من ذكر الله عز وجل، وإنما خص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والذي يعم كل ما يُتقرب به إلى الله لعِظم منزلة الصلاة والزكاة، فالصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات البدنية وأوجبها، والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم، وهي أفضل العبادات المالية وأوجبها.

وحذفت الهاء من «إقام» تخفيفًا، «وإقام الصلاة» بمعنى إقامتها إقامة كاملة مستقيمة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وهذه هي الحكمة من التعبير في القرآن والسنة النبوية بالأمر بإقامة الصلاة ووصف المؤمنين والمتقين بأنهم يقيمون الصلاة ونحو ذلك دون التعبير بالأمر بالصلاة أو وصف المتقين المؤمنين بأنهم يصلون ونحو ذلك.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

ورُويَ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[1].

والصلاة في الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها جماعة في المساجد، وغيرها من النوافل التي يسن أداؤها في المساجد كتحية المسجد وغيرها.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: إعطاؤها ودفعها لمستحقيها وإخراجها بطيب نفس بلا مَنٍّ ولا أذى.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير، سُميت بذلك لأنها تنمي المال وتزيده وتطهره وتقيه الآفات، وتطهر نفوس الأغنياء من البخل والشح، وتطهر نفوس الفقراء من الضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى السرقة، والبحث عن المال بالطرق المحرمة.

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٤٢، وابن ماجه في الأدب ٢٦٦٤، من حديث مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

مخصوص.

وقد ذكر المفسرون- رحمهم الله- أن هؤلاء الرجال الموصوفين بما ذُكر كان الواحد منهم إذا سمع النداء: حي على الصلاة، حي على الفلاح، والميزان في يده ألقاه وقام إلى الصلاة(١). ولقد أحسن القائل:

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفرَ والإفلاس في الرجل(٢)

فمع كونهم يشتغلون بالتجارة والبيع والشراء، ومع قوة الصارف لم يشغلهم ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لعظمة حق الله في نفوسهم، بخلاف من كان سائباً لا شغل له فإنه قد يأتي إلى المسجد لسد الفراغ فقط، ولو انشغل بأي أمر لرأيت منه تأخرًا وتشاغلاً عن الصلاة وغيرها، بل إن في عموم قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وقوله ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يدل على أن الرجال الموصوفين في الآية سخروا التجارة والبيع والشراء للاستعانة على طاعة الله، فإن قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يدخل تحته ذِكر ما لله عز وجل من الحقوق المالية الواجبة والمستحبة، ومن أهمها الزكاة المذكورة بقوله: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، فهؤلاء سعوا إلى كسب المال والأرباح، وجعلوا ذلك مطية لِلدار الآخرة، فربحوا الصَّفقتين.

أقول: الله المستعان! أين من هؤلاء الرجال الموصوفين بالآية من شغلتهم التجارة والأموال والأولاد عن ذكر الله فخسروا الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

بل أين من هؤلاء الرجال من يفرطون في الذكر، وما يقربهم إلى الله، وفي الصلاة ويؤخرونها عن وقتها، ولا يحضرون إلى المساجد حتى تُقام الصلاة ويفوت أكثرها، ممن لم يشتغلوا بتجارة، ولا بيع، ولا شراء، وإنما باللغو واللهو واللعب، ولقد استفحل هذا الأمر في المسلمين حتى شمل كثيرًا من المنتسبين إلى العلم، بل وبعض الأئمة والمؤذنين- حكمة بالغة- فاجتنب أخي- بارك الله فيك- مسلك هؤلاء ومن قبلهم،

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٧٩، « تفسير ابن كثير » ٦/ ٧٤.

(٢) البيت لأبي دلامة. انظر: «ديوانه» ص٧٧.

ولا تغتر بما عليه أكثر الناس، والزم طريق من وُصفوا بالآية. وفقني الله وإياك وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه!.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ هذا كما تقدم مما وُصف به أولئك الرجال، والخوف: توقع الأمر المكروه لأمارة معلومة أو مظنونة، و«يومًا» منصوب مفعول لـ«يخافون»، ولا يصح أن يكون منصوبًا على الظرفية، فيكون المعنى: يخافون في يوم؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم- كما سيأتي بيانه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧].

أي: يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والعذاب؛ لصدق إيمانهم ويقينهم بذلك اليوم الموعود، ونكّر «يومًا» للتعظيم والتخويف، أي: يومًا عظيمًا مخيفًا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠]، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لشدة أهواله، و«تتقلب»، أي: تتحول وتضطرب. والتقلب: التحول والاضطراب، والانتقال من حال إلى حال.

فالقلوب بين الخوف والرجاء، بين الهلاك والنجاة، قد انخلعت من الصدور وبلغت الحناجر من شدة الخوف، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨].

والأبصار: تتقلب وتضطرب بين اليمين والشمال، وهنا وهناك، ولا تستقر على حال، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٢- ٤٣].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب:١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات:٨- ٩].

وشدة هذا اليوم وأهواله إنما هي على الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦] وقال عز وجل: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠].

ولهذا قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢].

أي: فلا يخافون ذلك اليوم، بل هم في أمن وسعادة في الدنيا والآخرة. نسأل الله من فضله.

فهؤلاء الرجال مع كونهم يسبحون لله عز وجل في بيوت الله المساجد بالغدو والآصال، وكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هم مع ما هم عليه من هذه الصفات التي أثنى الله عز وجل بها عليهم، هم يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال، فجمعوا بين الإحسان والاستعداد بالعمل وبين الخوف، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠- ٦١].

بخلاف من جمعوا بين التفريط والإساءة مع الأمن من مكر الله كما هو حال الكثير من الناس.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أو بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أو بهما معًا. و«اللام» في «ليجزيهم» لام العاقبة أي: يسبحون ويخافون وتكون عاقبتهم أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفًا من الله، فكانت عاقبتهم هكذا.

ويحتمل أن تكون هذه اللام لام التعليل، أي: يسبحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفًا من الله ورجاءً فيما عنده، وهذه أكمل الأحوال، وهي حال الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم، يعبدون الله رجاءً في ثوابه، وخوفًا من عقابه رجاءً في جنته وخوفًا من ناره.

خلافًا لغلاة الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رجاءً في جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما نعبد الله لذاته. وهذا باطل.

ومعنى «يجزيهم»: يثيبهم ويجازيهم، ويكافئهم.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ليجزيهم الله أحسن ثواب الذي

عملوا، أو أحسن ثوابِ عملهم، بمضاعفة أجورهم.

«وأحسن» أفعل تفضيل.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠] وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

وفي الحديث القدسي: « كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »(١).

وإنما جعل الله الحُسن للعمل نفسه في ظاهر اللفظ مع أن المراد بالحُسن الثواب؛ للإشارة إلى أن الجزاء إنما هو على العمل نفسه وأنه من جنس العمل، وأن المرء كما يَدين يُدان. قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ويزيدهم على ثواب ما عملوه (من فضله) الفضل: الزيادة، وكل ما يحصل عليه الإنسان من دون مقابل يسمى فضلاً، أي: يزيدهم مما عنده من الفضل والزيادة في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا: زيادة الرزق وسعته ونحو ذلك، وفي الآخرة: النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى: الجنة والمثوبة الحسنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كما فسرها بذلك المصطفى ﷺ(٢).

وأيضاً الزيادة لهم في الأجور قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧- من حديث صهيب ﷺ. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١٥٨، ١٦٠- ١٦٢ من حديث أبي موسى وكعب بن عجرة وأبي بن كعب رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ﴾: الرزق: هو العطاء، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ «من» موصولة، أي: الذي يشاء ويريد من عباده، وهذا يدل على أنه عز وجل يعطي ويمنع لحكمة؛ لأن مشيئته عز وجل مرتبطة بالحكمة.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾أي: أنه عز وجل يعطي من يشاء العطاء الكثير الجزيل، فلا يحسب عليهم ما أعطاهم، بل يعطيهم أكثر مما يستحقون، ولا حد لعطائه ولا حصر، ولا ينفد ما عنده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر:٤٠].

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدرة، بل الأرزاق والآجال، حتى ذرات المطر والهواء وغير ذلك. كل ذلك مقدر كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد:٨] وسُمي «ميكائيل» وهو أحد الملائكة بهذا الاسم؛ لأنه مُوكل بتقدير المطر والرزق وكيله، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر:٢١].

وقد يؤخذ من الآية أن الإنسان ينبغي أن لا يدقق في تعداد وحساب ما ينفق حتى يبارك الله له في رزقه، ويسلم من البخل والشح، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

وفي الحديث: «أَنفِق يا ابن آدم ينفق عليك»[١]، وفيه: «لا تُوعي فيُوعي الله عليك، ولا تُحصي فيُحصي الله عليك»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تُوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»[٣].

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٣٣، ١٤٣٤- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس ٣٠٩٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم شأن المساجد ورفعة مكانتها عند الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾. وقد أثنى الله عز وجل على عمار المساجد فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

كما توعد عز وجل من منع ذكر الله في المساجد وسعى في خرابها قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

٢- الأمر برفع المساجد، وإعلاء شأنها وتعظيمها، رفعًا معنويًّا بعمارتها بالعبادة فيها بالصلاة، والاعتكاف وقراءة القرآن وذكر الله عز وجل وغير ذلك.

وبتطهيرها عما لا يليق بها من النجاسات الحسية والمعنوية، وما لا يجوز فيها من الأفعال والأقوال ورفعًا حسيًّا ببنائها وتهيئتها للمصلين، وتنظفيها وتبخيرها وتطييبها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

٣- أن الإذن يأتي بمعنى الأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، أي: أمر شرعًا أن ترفع.

كما يأتي بمعنى الأمر الكوني، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

٤- أن المقصود الأهم من رفع المساجد تعظيمها ورفعها بالعبادة، وذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فعَطْفُه على ما سبق من عطف الخاص على العام تنبيهًا على أهمية الخاص؛ ولهذا قال عز وجل للمشركين: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١٩].

وقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧].

٥- الحث والترغيب على تسبيح الله عز وجل، وذكره في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ وفي هذا جمع بين إثبات الكمال له عز وجل بذكره

وعبادته، ونفي النقص عنه بتسبيحه.

٦- أن قمة الرجولة في القيام بحقوق الله عز وجل وعبادته، من الصلاة في المساجد وذكره عز وجل وتسبيحه، لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾، أي: رجال، وأي رجال، رجال بلغوا من الرجولة ذروتها، كما قال عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:٢٣].

٧- الإشارة إلى أوقات الصلوات الخمس في اليوم والليلة، فمنها ما هو بالغدوّ وهو أول النهار، ومنها ما هو بالآصال، آخر النهار، وبالأخص صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، بل إن هذا قد ينتظم جميع الأوقات.

٨- مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، دون النساء لعدم ذكرهن.

٩- الثناء على هؤلاء الرجال المذكورين بعدم انشغالهم عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بتجارة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

١٠- التعريض بذم الذين ينشغلون بالتجارة أو غير ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، ومن باب أولى التعريض بذم من ينشغلون عن الصلاة بلا شغل. والله المستعان.

١١- جواز الاتجار، وأن البيع من أعظم أنواع التجارة ومن أفضلها وأكثرها ربحًا، لهذا عطفه عليها من عطف الخاص على العام فقال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- فضل الصلاة والزكاة؛ لأن الله عطفهما على قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام؛ لبيان فضل الخاص.

١٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لا أن تصلى صلاة صورية فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

١٤- أن الصلاة أهم العبادات البدنية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأن الزكاة أهم العبادات المالية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأنهما القرينتان؛ فقد قرن الله بينهما

في القرآن في أكثر من اثنين وثمانين موضعًا.

١٥- في قوله: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ إشارة إلى أن الواجب على الغني أن يؤديها إلى الفقير وإلى غيره من أهلها، لا أن يأتي الفقير يطلبها هو أو غيره.

١٦- في تسمية الحق الواجب في المال زكاة إشارة إلى أن دفعه يزكي نفس الغني ويزكي المال ويزكي نفس الفقير.

١٧- جمع هؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله في الآية بين تسبيح الله وذكره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الخوف من يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

وهذا غاية الكمال أن يجمع المسلم بين العبادة ورجاء الله عز وجل، وبين الخوف من الله عز وجل وعذابه، فيجمع بين الإحسان والخوف، بخلاف حال كثير من الناس اليوم الذين يجمعون بين التقصير والإساءة والأمن من مكر الله. نسأل الله السلامة.

١٨- عِظم يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ بالتنكير، ولقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، أي: تضطرب فيه القلوب وتزيغ الأبصار من شدة أهواله.

١٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٢٠- وجوب حسن الظن بالله عز وجل ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٢١- وعْد الله للمؤمنين بالجزاء المضاعف والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل يعطي من يشاء العطاء الجزيل من غير أن يحصي عليه ما أعطاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٤- يندب للإنسان في نفقته على نفسه وأهله ومن يعول أن لا يحصي ويعدد ما أنفق، فإن هذا قد يكون من أسباب قلة البركة، ولكن لينفق ويتوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أثنى الله عز وجل في الآيتين السابقتين على رجال بذكر ما هم عليه من جليل الصفات وفضائل الأعمال، وما أعد لهم من جزيل الثواب والزيادة والإفضال.

ثم أتبع ذلك بذكر أعمال أهل الكفر والضلال ونهايتها وبطلانها، كما هي طريقة القرآن، جمعًا بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

وقد ضرب الله عز وجل في هاتين الآيتين مثلين لأعمال الكفار: -

الأول: بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

والثاني: بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: الواو استئنافية.

والكفر معناه لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

أي: أعجب الزُّرَّاع، ومنه سُميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي وعاء طلْع النخل بالكافور أو بالكفر؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع، وسُمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، قال لبيد[1]:

يعلو طريقة متنها متواتراً ... في ليلة كفر النجومَ غمامُها

أي: سترها وغطاها.

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٠٩.

والمراد بالكفر في الآية الكفر الأكبر، المخرج من الملة، الموجب للخلود في النار، وهو قسمان:

١- كفر استكبار وإباء مع التصديق؛ ككفر إبليس- لعنه الله- قال عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

٢- وكفر جحود وتكذيب كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]، ومنه كفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق.

وقد يطلق الكفر على ما لا يُخرج من الملة، كمن حكم بغير ما أنزل الله محاباة لقريب، ونحو ذلك، فهذا يشمله قوله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤] لكنه كفر دون كفر.

كما يطلق الكفر والكفران على جحود النعمة وعدم شكرها[1].

﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۢ﴾، أي: أعمالهم التي يعملونها، سواء ما كان منها موافقًا للشرع وما كان مخالفًا.

«كسراب»، أي: صفتها في اضمحلالها كسراب. والسراب: ما يتراءى للناظر عن بعد في وقت الظهيرة يسرب كأنه ما ء يجري.

﴿بِقِيعَةٖ﴾: جمع قاع، وهي الفلاة المنبسطة من الأرض.

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي يظنه «الظمآن»، أي: العطشان ماءً، و«ظمآن» على وزن «فعلان» من صيغ المبالغة يدل على الشدة، أي: الذي اشتد به العطش.

والسراب يراه الظمآن وغير الظمآن ويحسبه ماءً، لكن خص الظمآن؛ لشدة حاجته وتلهفه إلى الماء ليبل منه صداه، ويُذهب ما به من ظمأ، فهو يركض وراء هذا السراب، ويتبعه وكلما قَرُبَ منه تباعد عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ «حتى» لانتهاء الغاية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، وضمير الهاء في «جاءه» «ولم يجده» يعود إلى قوله: ﴿كَسَرَابِۢ بِقِيعَةٖ﴾، أي: جاء إلى السراب، أي: إلى موضعه الذي كان يشاهده فيه.

---

(١) انظر: «المفردات»، «لسان العرب» مادة: «كفر».

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن إلى مكان ذلك السراب الذي يظنه ماءً لم يجده شيئًا من الأشياء لا ماء ولا غيره؛ لأن السراب مجرد تخيل يتخيله الناظر وليس له حقيقة، بل هو عدم محض، فإذا اقترب الإنسان من مكانه الذي يظنه فيه تباعد عنه السراب، وهكذا حتى يموت عطشًا.

كما قال الشاعر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كلمح سراب في الفلا متألق(1)

ولك- أخي الكريم- أن تتخيل دقة التصوير القرآني لهذا المشهد، وما مدى خيبة أمل هذا العطشان، الذي يظن السراب ماء، ويركض وراءه ثم لا يجده شيئًا، وماذا يعتلج في نفسه من الآهات والحسرات.

وهكذا أعمال الكفار سواء ما كان منها مما يُؤجر عليه المؤمنون، كالصدقات وإكرام الضيف والجار ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:١٩].

أو ما كان منها من أعمال كفرية كالشرك والمعاصي.

وسواء كانت مما يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله كاتخاذ الشركاء، فإنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، أو مما لا يعتقدون فيه ذلك، فإنهم لا يجدونها شيئًا، بل تكون هباءً منثورًا.

كما قال عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧].

ويتبرأ الشيطان وجميع المتبوعين من أتباعهم، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «جامع البيان» ١/ ٣٦٤، «أمالي ابن الشجري» ١/ ٧٧.

دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

بل قد جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن اليهود والنصارى بعدما يشتد عطشهم في الآخرة تمثل لهم النار كأنها سراب فيتساقطون فيها»[١].

ومن عدله عز وجل أن الكفار يجازون في الدنيا على ما يقومون به من أعمال البر كالصدقات، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والجار ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هو:١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

وعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً يعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله، إن عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يقري الضيف ويفك العاني، ويصل الرحم، ويحسن الجوار فأثنيت عليه، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «لا، إنه لم يقل يومًا قط: اللهم اغفر لي يوم الدين»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية ٤٠ من سورة النساء ٤٥٨١، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ١٢٠.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، «الواو»: عاطفة، أي: وجد الله عند عمله، فالضمير يعود إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾.

وقيل: وجد الله عند هذا السراب، على معنى أن مآل هذا الظمآن لمَّا لم يجد الماء مع شدة العطش أن يموت فيلقى الله عز وجل، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»(١)، أي: لقاء الله بعد الموت.

﴿فَوَفَّىٰهُ﴾، أي: أعطاه، ﴿حِسَابَهُۥ﴾ جزاء أعماله، أي: فأعطاه جزاء أعماله وافيًا غير منقوص، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هود:١٠٩].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لأن أجله آتٍ، وكل آتٍ قريب، ولأن العمر قصير والموت قريب. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال ﷺ: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

كما أن من سرعة حسابه عز وجل أن يجد الإنسان في حياته شيئًا من آثار أعماله وجزائها، وهو أيضًا يحاسب الخلائق على وجه السرعة فلا يحتاج لوقت طويل لمحاسبتهم، بل حسابه لهم سريع، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

لأنه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم، فلا يحتاج في محاسبته إلى فكر وروية لكمال علمه إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

وقد أخذ بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦- من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩. وصححه الألباني.

مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، أنه عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم نصف اليوم الآخر يكون أهل الجنة في مقيلهم فيها. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: آية ٤٠].

هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله عز وجل لأعمال الكفار. كما قال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:١٧- ١٩].

قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ «أو» عاطفة، وهي للتقسيم والتنويع، أي: إن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات.

وقيل: إنها للتخيير، أي: إن شئت شبه أعمالهم بالسراب، وإن شئت شبهها بالظلمات.

وقيل: إنها بمعنى الواو تفيد معنى الجمع، أي: إن أعمالهم تشبه السراب والظلمات معًا.

ولا يمكن أن تكون «أو» للشك؛ لأنه عز وجل منزه عن الشك، بخلاف الإنسان المخلوق الضعيف، فهو لضعفه قد يشك في كثير من الأمور.

والكاف في قوله: «كظلمات» للتشبيه، والظلمات جمع ظلمة، وهي المكان الذي تضعف فيه الرؤية وقد تنعدم تمامًا مع شدة الظلمة، وهي ضد النور.

﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ البحر في الأصل: الماء الكثير، والمراد بالبحر هنا ما كان من البحار الكبيرة.

«لجي»، أي: عميق الغور، بعيد القعر، كثير الماء؛ لأنه كلما كان البحر أعمق غورًا، وأبعد قعرًا، وأكثر ماءً كانت ظلمته أشد، وهذا أمر معلوم للغواصين.

وسُمي «لجيًّا» نسبة إلى لُجة البحر، وهي قعره وبعده، وماؤه الكثير.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ يغطيه موج، والموج: ما ارتفع من الماء على الماء بسبب الرياح.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، أي: يعلوه موج آخر من الأمواج المتلاحقة، أو المتلاطمة التي هي أشبه شيء بالجبال يعلو بعضها بعضًا[1].

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «موج».

﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾، أي: من فوق الموج الثاني سحاب، أي: غيم كثيف متراكب، وسُمي سحابًا إما لجرّ الريح له، أو لجره الماء، أو لانجراره وانسحابه في مروره[1]، فلشدة ظلمته كأنه ملاصق لتلك الأمواج، فيكون ما بينه وبين البحر ظلمة كالضباب.

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، وهي: ظلمة البحر العميق، وظلمة الموج الأول الذي يغطي البحر، وظلمة الموج الثاني الذي فوق الموج الأول، وظلمة السحاب والغيم، أربع ظلمات واحدة منها كافية في شدة الظلمة، فكيف إذا اجتمعت؟ وهذه الجملة لتوكيد الأمر وتعظيمه وتهويله.

وقد ضرب الله لأعمال الكفار في هاتين الآيتين مثلين:

أحدهما: بالسراب الذي يُظن أنه الماء مادة الحياة.

والثاني: بالظلمات المتراكمة المضادة للنور، ويحتمل أنهما مثلان لصنف واحد، أي: فأعمال الكفار كلها كالسراب، وكالظلمات المتراكمة، أو أن المراد أن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات في بحر لجي.

ومع اختلاف المثلين فإن الثاني عائد إلى الأول من حيث المعنى، فإن أعمال الكفار كلها باطلة حابطة وهباء منثور.

وقد اختلف في كيفية تنزيل الأعمال على هذين المثلين، فقيل إن الذين شُبهت أعمالهم بالسراب هم أهل الضلال والجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادون أولياءه ويناصرون الباطل ويوالون أهله.

والذين شبهت أعمالهم بالظلمات هم أهل الجهل البسيط.

أو بمعنى آخر أن المثل الأول للمتبوعين وأئمة الكفر والدعاة إليه، والثاني للتابعين المقلدين.

وقيل: العكس إن المثل الأول لأهل الجهل البسيط، والمثل الثاني لأهل الجهل المركب.

وقيل: المثل الأول في أعمال الخير فهي كالسراب، والمثل الثاني في أعمال الشر والمعاصي.

وقيل: المثل الأول لأعمال الكفار في الآخرة فهي كالسراب لا تنفعهم، والمثل

---

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «سحب».

الثاني لأعمالهم في الدنيا فهم يتخبطون في ظلمات الشبه والشكوك والشهوات[١].

وحيث تعددت هذه الأقوال واختلفت ولا دليل على شيء منها فالأولى حمل الآية على الاحتمال الأول، وهو أن أعمال الكفار تشبه السراب وتشبه الظلمات، وهم في ذلك قسمان منهم من كان ضالاً، ومنهم من عرف الحق وتركه.

وقدَّم الله قبل هذا حال من عرف الحق ممن نوَّر الله قلبه بالهدى والإيمان وذلك بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. أي: مثل نوره الذي يلقيه في قلب عبده المؤمن.

ففي هذه الآيات ضرب الله مثل الهدى والإيمان في قلب المؤمن بأنه كالمشكاة، وضرب مثل أعمال الذين كفروا بأنها كالسراب والظلمات. والكفار فيهم المعاند العارف للحق، وفيهم الجاهل، كما ذكر الله أقسام الناس في سورة الفاتحة: منهم منعَمٌ عليهم عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم عرفوا الحق وتركوه، وضالون عبدوا الله على جهل، فهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج الناس عنها.

﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾، أي: إذا أخرج الناظر وسط هذه الظلمات «يده» وهي أقرب شيء إليه.

﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، أي: لم يقرُب من رؤيتها، أو لم يقرُب أن يراها بسبب هذه الظلمات المتراكم بعضها فوق بعض، وإذا كان لم يقارب رؤيتها فرؤيتها أبعد؛ لأنه إذا انتفت المقاربة فانتفاء الرؤية من باب أولى.

وأفعال المقاربة كغيرها من سائر الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات.

فهؤلاء الكفار اجتمعت فيهم ظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والإعراض عن الحق والنور الذي أنزله الله، فشبَّه اجتماع هذه الظلمات وتلاطم أمواج الشبه والباطل في صدورهم بتلاطم أمواج هذا البحر.

وهكذا كل ما خالف الحق- وإن كان دون الكفر من البدع، والمعاصي- فذلك كله سراب وهباء وظلمات في طريق صاحبه، لكن بعضها أهون من بعض، وهو باطل مردود على صاحبه، كما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» ٢٤/ ٨، «البحر المحيط» ٦/ ٤٦١، «بدائع التفسير» ٢٦٢-٢٦٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٦- ٧٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٧.

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ «الواو»: عاطفة، و«من» شرطية، «لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يجعل» مجزوم بها، وحُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين وهو بمعنى يصير، والجعل ينقسم إلى قسمين:

كوني، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة:٩٧].

وقوله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾: يشمل الجعل الكوني والشرعي.

لأن النور في الآية في الموضعين قد يُحمل على النور الحسي الذي هو ضد الظلمة، وهذا يناسب المشبه به في الآية، وهو الظلمات في بحر لجي، يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾، أي: نورًا حسيًّا يبصر به في هذه الظلمات ونحوها، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وعلى هذا فيكون «الجعل» كونيًّا، لأن النور الحسي قد يعطيه الله من يحب ومن لا يحب، وقد يمنعه عمن شاء منهما كغيره من متاع الدنيا، وفي الحديث: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب»(٢).

وقد يُحمل النور في الآية في الموضعين أيضًا على النور المعنوي، وهو الهدى والإيمان، وهو يناسب المشبه، وهي أعمال الكفار فيكون الجعل شرعيًا، وهذا أظهر وأولى، فإن من لم يجعل الله له نورًا من الهدى والإيمان والبصيرة «فما له من نور» قال

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية- نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- ، والحاكم في الإيمان ١/ ٣٣ وصححه، ووافقه الذهبي. وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند: «إسناده ضعيف» ٣٦٧٢.

تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: جاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام و«بمن» المؤكدة، أي: فما له على الدوام أي نور وسط دياجير الجهل والكفر، ومن لم يهده الله ويوفقه إلى الطريق المستقيم فلا أحد يستطيع هدايته، كما قال عز وجل:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال عز وجل: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨، ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، [غافر:٣٦]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ويلاحظ أن القرآن يفرد النور ويجمع الظلمات؛ لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل كثيرة متعددة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، أي: مثل نور الله عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن بالهدى والإيمان كمشكاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتهد في طلب هذا النور بتحري مرضاة الله عز وجل والقيام بحقوقه وسؤاله.

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا ومن أمامي نورًا ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا»[1].

قال ابن تيمية[2]: «النور ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل لصاحبه نورًا، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨١.

ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

وضد النور الظلمة؛ ولهذا عقب ذكر النور لأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال، فإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق، كما روي عن ابن عباس، ويوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكفار بالظلمة.

وفي غير موضع من القرآن قرن الله أهل الهدى والضلال، وأهل الطاعة والمعصية، كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:١٩- ٢٢]، وقوله- تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود:٢٤]».

فمن جعل الله له النور المعنوي، وهو نور الهدى والإيمان والتوفيق، فلا تسأل عن حاله فهو في جميع تصرفاته وتقلباته ويقظته ومنامه، في سفره وإقامته وفي جميع أمور دينه ودنياه يسير على نور من الله، ويمنحه الله عز وجل من التسديد والتيسير وانشراح الصدر ما لا يخطر على البال.

إن حضر واجب لله أو لعباد الله وفقه الله للقيام به، وإن وقع الناس في منهي حفظه الله من الوقوع فيه، يصرِفه الله عز وجل عن مواطن الزلل والخطأ والخطر وإن لم يشعر، يصاب الناس بسبب ذنوبهم ومعاصيهم بالمصائب وينجيه الله منها، وإن أصابه شيء من المصائب- حيث لا يسلم غالبًا منها أحد- لطف الله به وهوَّن عليه مصابه وآجره عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وفي الحديث القدسي قوله عز وجل: «وما تَقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

وما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله، وأعطاه ما سأل، وأعاذه مما

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استعاذ منه، اللهم نسألك من فضلك.

لسان حاله كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء[1]

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فقد ذكر الله عز وجل في الآيات ما أعده لأولئك الرجال المسبحين الذاكرين الله الخائفين من أهوال يوم القيامة من الجزاء الحسن والإفضال، ثم أتبع ذلك بذكر حبوط أعمال الكفار، وما هم فيه من الظلمات والشكوك والشبه والضلال.

٢- تشبيه أعمال الكفار في حبوطها واضمحلالها بالسراب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾.

٣- أن الكفار تضمحل أعمالهم ويفقدونها في ساعة هم أحوج إلى الأعمال مثلهم كمثل الظمآن يركض خلف السراب. وإنما خص الظمآن بالذكر مع أن السراب يراه كل أحد لشدة حاجة الظمآن وتلهفه إلى الماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

٤- تشبيه القرآن للأمر المعنوي بالأمر الحسي، وضرب الأمثال لتقريب المعاني للأذهان.

٥- أن الله عز وجل حاضر وشهيد على أعمال العباد لا يخفى عليه منها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾.

٦- أن الله عز وجل يوفي كل عامل حسابه وجزاء عمله كاملاً، من غير نقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾.

٧- سرعة حساب الله عز وجل ومجازاته لعباده؛ لأن حسابه وأجله آت، وكل آت قريب، ولأنه عز وجل محيط بأعمال العباد كلها، لا تخفى عليه منها خافية، فحسابه

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

لهم على وجه السرعة، لا يحتاج إلى مزيد وقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٨- تشبيه أعمال الكفار في تخبطهم في ظلمات الكفر والشبه والشكوك والشهوات بالظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

٩- أن النور يطلب من الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وهذا يشمل النور الحسي، والنور المعنوي، وهو الأهم للسلامة والنجاة من ظلمات الكفر والشكوك والشبه والشهوات. نسأله تعالى الهداية.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة صفات الرجال المؤمنين الذين يسبحونه في المساجد. ثم ذكر في هذه الآية تسبيح كل من في السموات والأرض والطير صافات وهذا من ذكر العام بعد الخاص. وأيضًا فإنه لما ذكر ضياع أعمال الكفار وحالهم وضلالهم أتبع ذلك ببيان أن جميع المخلوقات تسبح له خاضعة منقادة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، و«لم»حرف نفي وجزم وقلب، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير والإثبات فالمعنى: قد رأيت، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قد شرحنا لك صدرك، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١] أي: قد رأيت كيف فعل ربك بهم.

فمعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: قد رأيت أن الله يسبح له من في السموات والأرض.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والمراد بالرؤية هنا الرؤية العلمية، أي: قد علمت سواء كان ذلك بطريق الوحي، أو عن طريق السماع.

والمصدر المؤول «أن الله يسبح» في محل نصب سد مسد مفعولي «ترى».

﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: «من» موصولة تفيد العموم، أي: جميع الذين في السموات والأرض من جميع المخلوقات من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات.

فكل مَن في السموات والأرض والطير يسبِّح الله- عز وجل- تسبيحاً حقيقيًّا بالقول، ومن ذلك: تسبيح الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، وهذا معلوم لنا.

ومن ذلك: تسبيح الحصى في يده ﷺ، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ؛ كما في حديث

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[1].

ومن ذلك: تسبيح جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات والجمادات، فكل ذلك تسبيح حقيقي وإن كنا لا نفقهه، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة:١، التغابن:١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [سبأ:١٠] أي: سبحي، وقال تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦، الروم:٢٦].

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال عز وجل: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وقد قيل: إن المراد بتسبيح مَن في السموات والأرض والطير وجميع المخلوقات انقيادها لأمر الله الكوني ودلالتها على وجوده عز وجل، وهذا خلاف ما دلَّ عليه ظاهر الكتاب والسُّنَّة.

قال القرطبي[2]: «فالصحيح أن الكل يسبح؛ للأخبار الدالة على ذلك. ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا، وقد دلَّت السُّنَّة على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب- علامات النبوة ٣٥٧٩، والنسائي في الطهارة ٧٧، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣. ومثل هذا حنين الجذع كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح عليه» أخرجه البخاري في الموضع السابق ٣٥٨٣. والترمذي في الجمعة ٥٠٥.

وكما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبْعَث، إني لأعرفه الآن» أخرجه مسلم في الفضائل- فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٢٢٧٧.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٢٣٤.

كل شيء، فالقول به أولى».

وقال ابن تيمية[(١)]: «والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها».

وقد رد ابن القيم القول بأن المراد بالتسبيح دلالتها على صانعها من ثلاثين وجهاً[(٢)].

كما أنه عز وجل يسبح ويعظم نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور:٤٣].

كما أن أهل الجنة يسبحونه، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وجاء التعبير في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بـ«من» التي للعالم تغليبًا للعالم على غيره من سائر المخلوقات؛ لأن التسبيح عند العالم أظهر، ولما ميز الله به الإنسان عن غيره قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

والأولى أن يقال: «مِن» للعالِم، ولا يقال: للعاقل؛ لأن الله عز وجل أطلقها على نفسه قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي: ءأمنتم الله الذي في السماء سبحانه[(٣)].

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾، «الواو»: عاطفة، و«الطير» معطوف على «مَنْ»، أي: وتسبحه الطير، من عطف الخاص على العام.

و«الطير»: جمع طائر، كالركب: جمع راكب.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، أي: حال كونهن صافات، أي: باسطات أجنحتهن بالطيران بين السماء والأرض. والطيران: صف وبسط للأجنحة، وقبض وضم لها.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١/ ٤٧.

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٢٦.

(٣) انظر: «أوضح المسالك» ١/ ١٣٤، «ضياء السالك» ١/ ٤٢، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٧٦.

وإنما خص الطير- والله أعلم- مع أنها تدخل في عموم قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتنبيه على عظم قدرة الله عز وجل في تمكين هذا الطائر من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض، وصموده أمام الرياح الشديدة والباردة، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩].

كما أنه عز وجل يذكر في كتابه الأنبياء بأسمائهم غير منسوبين، محمداً، وموسى، وإبراهيم، ونوحاً عليهم السلام وغيرهم، لكنه يذكر عيسى عليه السلام غالبًا منسوبًا لأمه «عيسى ابن مريم» للتنبيه على القدرة العظيمة في خلقه من أنثى بلا ذكر.

كما أن في ذكر الطير وهن صافات أجنحتهن بالطيران دلالة على أن ما بين السماء والأرض يسبحه أيضا.

وتسبيح الطير بالمنطق والحال، أي بأنواع التسبيح كلها قال سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، أو كل من هذه المخلوقات قد علم صلاته وتسبيحه حسب حاله اللائقة به، وذلك بتعليم الله له إما بطريق الرسل والوحي كالإنس والجن والملائكة، أو بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

وهذا الاحتمال أرجح؛ لأن علم الله بأعمالهم مذكور في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وكما أننا لا نفقه تسبيح هذه المخلوقات فكذلك لا نفقه صلاتها، المهم أنها قد علمها الله وألهمها صلاتها وتسبيحها، وقد يراد بصلاتها هنا الدعاء أو غيره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله عليم بالذي يفعلون، أو والله عليم بفعلهم. أي: عليم بفعلهم وقولهم.

والواو في «يفعلون» للعالِم غُلِّب على غير العالم؛ لأن الصلاة والتسبيح في العالم أظهر، ولأن العالم هو المحاسب والمجازى على عمله خيره وشره.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٨.

والآية فيها وعد ووعيد، وعد لمن فعل الخير، ووعيد لمن فعل الشر. أي: إن الله لا تخفى عليه خافية من أفعال الخلق وأعمالهم وسيجازيهم عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «الواو» استئنافية، و«لله» جار ومجرور خبر مقدم، و«ملك» مبتدأ مؤخر، وإنما قدم الخبر مع أن حقه التأخير؛ لإفادة الحصر، أي: ولله وحده ملك السموات والأرض، فهو الخالق المالك لذلك، المدبر له سبحانه، وهو الذي منح الملوك ممالكهم، وهو المالك لهم ولممالكهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا أيضًا فيه تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر.

أي: وإلى الله وحده المرجع والمآل والمآب، فمنه الابتداء فهو الخالق المالك المدبر، وإليه الانتهاء، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

وإذا كان عز وجل هو الخالق المالك المدبر منه البداية وإليه النهاية كان الواجب على الإنسان طاعته عز وجل وترك معصيته؛ إذ كيف يعصي الله من يرتع في ملكه، ويتقلب في نعمه، وإليه مصيره، ولهذا فإن في قوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وعدًا لمن أطاعه ووعيدًا لمن عصاه.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير عظمة الله عز وجل، وأن كل من في السموات والأرض من المخلوقات يسبح له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- الإشارة إلى عظيم قدرة الله عز وجل في تمكين الطير من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾.

٣- إلهام الله عز وجل وتعليمه لكل مخلوق صلاته وتسبيحه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي: كل مخلوق قد علم كيف يصلي وكيف يسبح لله بتعليم الله عز وجل له فعلَّمهم سبحانه، وعلم ما يعملون.

٤- علم الله عز وجل بما يفعله الخلق سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وفي

هذا إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

٥- أن لله عز وجل وحده ملك السموات والأرض ملكًا وخلقًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

٦- أن المرجع والمآب ومرد الخلائق كلهم إلى الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وإذا كان مصيرهم إليه فسيحاسبهم على أعمالهم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحدًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ الاستفهام للتقرير، لاقترانه بالنفي، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والمعنى: قد رأيت. والرؤية كسابقتها.

وجملة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ في محل نصب في تأويل مصدر سد مسد مفعولي «ترى».

ومعنى ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾، أي: يسوقه، أو يسوقه برفق، ومنه قوله تعالى: ﴿بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ [يوسف:٨٨] أي: قليلة. والسحاب أحيانًا يسير بسرعة، وأحياناً رويدًا رويدًا. فالمثقل بالماء يسير ببطء، والذي لا ماء فيه يسير بسرعة، قال المتنبي[(١)]:

ومن الخير بُطء سَيْبِك عني أسرعُ السُّحْب في المسير الجَهَامُ

أي: الذي ليس فيه ماء.

وقال الآخر نثرًا: «وأثقل السحاب مشيًا أحفلها»، أي: المليئة بالماء.

﴿سَحَابًا﴾ جمع سحابة، وتجمع أيضاً على «سحب»، والسحاب: وعاء المطر.

قال ابن كثير[(٢)] في معنى قوله: ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾: «يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء».

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٦٧.

(٢) في (تفسيره) ٦/ ٧٨، وانظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «زجا» وكذا في «لسان العرب».

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر:٩][١].

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر وورش عن نافع «يُوَلف» بالتسهيل دون همز، وقرأ الباقون: «يُؤَلِّف»[٢].

ومعنى ﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمع بينه، فيجمع بعضه إلى بعض، ويجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة، وهذا أمر مشاهد، ترى القطع من السحاب تنشأ في السماء ثم ينضم بعضها إلى بعض وتتوسع حتى تسد الأفق.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ الركام والمركوم: ما جعل بعضه على بعض، أي: فيجعل هذا السحاب متراكمًا متراكبًا بعضه على بعض كالجبال، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

وتراكم السحب يبدو ويظهر للناظر إليه من خلال منظر السحب الذي يشبه الجبال يعلو بعضها بعضًا، ومن كون بعض السحاب يسير بسرعة وبعضه يسير ببطء، ومن خلال حجب بعض السحب للكواكب دون بعض، ويظهر ذلك بجلاء لمن كان في الطائرة في الجو، يرى بعض السحاب تحته وبعضه فوقه.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾، أي: فتشاهد الودق يخرج من خلاله، وتعلم ذلك.

والودق: المطر، قال الشاعر:

فـــلا مزنـــة ودقـــت ودقهـــا ولا أرض أبقـــل إبقالهـــا[٣]

---

(١) ذكر الله عز وجل للرياح عدة منافع فيما يتعلق بالسحاب والمطر، منها التبشير به، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦]. ومنها تلقيح السحاب، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

قال عبيد بن عمير: «الرياح أربع: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب» أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٣٣٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٦١٧.

(٢) انظر: «المهذب» ٢/ ٧٦.

(٣) البيت لعامر بن جوين الطائي. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٤٦، «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، أي: من خلال السحاب، و«خلال»: جمع خلل أي: من خلله وشقوقه وفتوقه، التي هي مخارج القطر من السحاب.

وقال الشاعر:

أثــرن عجاجــة فخــرجن منهـــا   خـروج الـودق مـن خلـل السـحاب[1]

وهذه المخارج هي أشبه شيء بالغرابيل ينزل منها المطر، والتي جعلها الله لينزل منها المطر على هذه الكيفية قطرات متفرقات، فينفع ولا يضر؛ لأنه لو انصب انصبابًا بكميات كبيرة لأحدث ضررًا فيما ينزل عليه ولهذا سمى الله عز وجل السحاب بالمعصرات، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ «من» في قوله «من السماء» لابتداء الغاية.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ «من» أيضاً لابتداء الغاية، فهي بدل اشتمال من الأولى، أي: إن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ بدل من قوله ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وقيل: إنها تبعيضية.

والمعنى- والله أعلم- وينزل من السحب التي في السماء، والتي تشبه الجبال كما يشاهد ذلك عند تراكم المزن بعضه على بعض للناظر من الأرض، أو في الطائرة.

وقيل: إنها جبال حقيقية خلقها الله كجبال الحجارة.

«مِنۢ بَرَدٍ»: «من» صلة، أي: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى أي: وينزل من السماء من جبال فيها بردًا.

وقيل «من» تبعيضية أي: وينزل من السماء من جبال فيها بعضًا من برد.

وقيل «من» لبيان الجنس، أي: إن الجبال نفسها من برد.

وعلى هذا يكون مفعول ينزل محذوفًا، تقديره: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ بَرَدًا.

والبرد: هو الذي ينزل جامدًا، وسمي بردًا لبرودته، أو لأنه يبرد الأرض أي يزيل

٨/ ٢١٩.

(١) البيت لبشر بن أبي حازم الأسدي. انظر: «ديوانه» ص١٣٠، ورواية عجزه في «الديوان»: «كما خرجت من الغرض السهام». وانظر: «ديوان زيد الخيل» ص٧٤، «باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» ٢/ ١٠٠٧، «النكت والعيون» ٤/ ١١٣.

ما عليها، ولهذا جاء في الحديث: «و اغسلني بالماء والثلج والبرد »[(١)].

فهو عز وجل ينزل من السماء من جبال فيها، أي: في السماء بردًا، وهذا البرد أحيانًا يكون كثيرًا، وأحيانًا يكون قليلاً، أحيانًا يكون صغيرًا، وأحيانًا يكون كبيرًا، إلا أنه من رحمة الله عز وجل- غالبًا- لا يكون كبيرًا جدًا بحيث يهدم البناء، ويقتل الإنسان والحيوان، وقد يوجد هذا لكنه- ولله الحمد- قليل، وأحيانًا يكون هذا القليل على الجبال، أو على أرضٍ ليس فيها بناء ولا إنسان، وهذا أيضًا من رحمة الله عز وجل.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ «الفاء» عاطفة، أي: فيصيب بهذا البرد؛ لأنه أقرب مذكور، الذي يشاء من عباده، فيتضررون بهذا البرد في حرثهم وممتلكاتهم وغير ذلك، ويصرفه بحكمه القدري وحكمته عن الذي يشاء من عباده، فيسلمون من ضرره.

فالآية سِيقت لبيان العقوبة لمن يصيبهم هذا البرد فيتضررون به والامتنان على من يصرفه عنهم فيسلمون من ضرره، وهذا ظاهر الآية، ويقويه قوله: ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾ فإن هذه المادة غالبًا تستعمل لصرف الشر وما يضر، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٥٠].

وقال تعالى في عذاب يوم القيامة: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

ويحتمل أن المعنى: فيصيب بهذا المطر والبرد من يشاء رحمة لهم، ويصرفه عمن يشاء حرمانًا لهم[(٢)].

وعلى كلٍ قد يكون المصاب بالبرد أو بالمطر والبرد معًا معاقبًا من جهة وممتنًا عليه من جهة أخرى، فيضره ذلك من جهة بعض المحاصيل، وينتفع به من جهة ارتواء الأرض ونباتها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٨، وأبو داود في الصلاة ٧٨١، والنسائي في الافتتاح ٨٩٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٠٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٩، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٩.

وقد يكون من صرف عنه معاقبًا بصرفه عنه بحيث تجدب أرضه، وممتنًّا عليه من جهة سلامة الزروع والمحاصيل، فهو في آن واحد قد يكون نعمة ونقمة، والمهم:

أن نعلم أولًا: أن العقوبات والمصائب كلها بسبب الذنوب والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وهذا كله مما يوجب علينا أخذ العظة والعبرة من هذه المصائب بالرجوع إلى الله عز وجل.

وأن نعلم ثانيًا: أن الله عز وجل يختار لعباده ما يختار، فتارة يبتليهم بالنعم وتارة يبتليهم بالنقم؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر، ومن يجزع، وليكون المؤمن دائمًا بين الخوف والرجاء، فلا تطغيه النعم، ولا يقنط ولا ييأس من روح الله، ولا يجزع لما يصيبه من النقم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥- ١٦].

وقال ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب»(١).

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تُفَيِّئُهُ، ولا يزال المؤمن يُصيبه بلاء، ومثل المنافق مثل شجرةِ الأَرْزِ لا تهتزُّ حتى تُحصد»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٠- من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه رضي الله عنه.

وقال ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط »[(١)].

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[(٢)]

﴿يَكَادُ﴾: يقارب، ﴿سَنَابَرْقِهِۦ﴾، أي: ضوء برق هذا السحاب.

والبرق: هو ما يظهر من السحاب من بريق وإضاءة خاطفة، بين حين وآخر، وقد يكون متواليًا أحيانًا.

وقد يكون سببه- والله أعلم- ضرب المَلَكِ الذي يسوق السحاب، كما جاء في بعض الآثار، وذلك لا يتنافى أن يكون أيضا بسبب اجتماع سالب وموجب وحصول شحنة كهربائية.

قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وكسر الهاء: «يُذهِب بالأبصار»، والباء على هذه القراءة صلة؛ كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠]، أي: تنبت الدهن. وقيل: بمعنى «من» والمفعول محذوف، والتقدير: يُذهِب النورَ من الأبصار؛ كقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨]، أي: منها.

وقرأ الباقون بفتحهما: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[(٣)]، والباء على هذه القراءة للتعدية.

والمعنى: يكاد ضوء برقه من شدة إضاءته ولمعانه وبريقه يخطف الأبصار ويزيلها، كما قال تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [البقرة:٢٠].

والأبصار: جمع بصر، وهي: حاسة البصر.

وهذا أمر مشاهد أن السحاب الذي فيه برد يكون برقه أشد إضاءة ولمعانًا غالبًا.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ التقليب: تغيير الشيء من جهة إلى جهة.

وتقليب الليل والنهار منه ما هو حسي، ومنه ما هو معنوي.

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٩٦، و ابن ماجه في الفتن ٤٠٣١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «المحرر الوجيز» ٢/ ٤٣١.

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

فالتقليب الحسي: بالمعاقبة بينهما وإبدال أحدهما مكان الآخر، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل، وبالزيادة في أحدهما والنقص من الآخر، أو جعلهما متساويين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

والتقليب المعنوي: بتغيير الأحوال التي تقع فيهما، فمن حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن أمن إلى خوف، ومن خوف إلى أمن، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى سقم، ومن سقم إلى صحة، كما قال عز وجل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦- ٢٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: إن في إزجاء السحاب، والتأليف بينه، وجعله متراكمًا، وإخراج الودق من خلاله، والإصابة به من يشاء، وصرفه عمن يشاء، وكون برقه يكاد يخطف الأبصار، وتقليب الليل والنهار «لعبرة»، أي: لدلالة وعظة، دلالة على قدرة الله تعالى التامة وعظمته، وعظة تبين أن دوام الحال من المحال، وأن كل شيء للزوال إلا الحي القيوم، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦- ٢٧]، وقال عز وجل: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

ففي تعاقب الليل والنهار عبرة وعظة ونعمة ومنة قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١- ٧٣].

﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، أي: لأصحاب البصائر والعقول السليمة، الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

وبين «الأبصار» في قوله «يذهب بالأبصار» وقوله هنا «لأولي الأبصار» جناس تام؛ لاتفاق الحروف واختلاف المعنى، كقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم:٥٥].

وإنما خص أولي الأبصار؛ لأنهم هم الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية. وأما من عداهم فإنهم لعدم انتفاعهم بعقولهم أشبه شيء بالأنعام، بل هم أضل منها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٠٤]

الفوائد والأحكام:

١- تقرير قدرة الله عز وجل العظيمة على سوق السحاب والتأليف بينه، وجعله متراكمًا بعضه فوق بعض، وإخراج المطر وإنزاله من خلاله، وإنزال البرد من جبال في السماء على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، وما يخرج منه من نور البرق الذي يكاد لقوته يزيل الأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

٢- لله عز وجل الحكمة التامة في إنزال المطر والبرد على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، ابتلاءً واختبارًا، وإنعامًا وانتقامًا، ورحمة وعذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

٣- قدرة الله عز وجل التامة وحكمته البالغة في تقليب الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٤- وجوب التأمل في عظيم قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وتأليفه وتراكمه وإنزال المطر والبرد، وفي البرق، وفي تقليب الله الليل والنهار، وأخذ العبرة والعظة من ذلك، وأن كل شيء إلى الزوال إلا من له البقاء سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

فدوام الحال من المحال، وهذه الأيام والليالي إنما هي مطايا للارتحال، وخزائن للأعمال، وتُذَكِّر بتقليبها بأن مآل هذه الدنيا إلى الزوال. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

٥- أن الذين يعتبرون ويتعظون ويتأملون في آيات الله الكونية والشرعية هم أصحاب العقول السليمة الذين دلتهم عقولهم إلى معرفة الله عز وجل والقيام بحقوقه؛ لهذا خصهم بالذكر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾.

ذكر الله عز وجل آياته في العالم العلوي في الآيتين السابقتين، ثم أتبع ذلك بذكر آياته في العالم السفلي، وفي ذلك كله تنبيه وتذكير ودلالة على عظيم قدرته وكمالها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف: «خالق كل دابة».

وقرأ الباقون: «خلق كل دابة»[(١)].

أي: أوجد كل دابة، والدابة: تشمل كل ما يدب على الأرض من الحيوانات، وأصلها: « داب »، والهاء للمبالغة. وقيل: الهاء للواحدة، كبقرة وشاة.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿مِّن مَّآءٖۖ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

أي: وخلقنا من الماء كل شيء حي. وإن كانت هذه الآية تشمل النبات أيضًا.

فما يتوالد من الدواب والحيوانات فمادته ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات:٢٠].

وأما ما لا يتوالد، وإنما يتولّد فماؤه رطوبة؛ لأنه يتولّد من العفونات والرطوبات المائية كالحشرات والديدان ونحو ذلك[(٢)].

فكل ما يدب على الأرض من الحيوانات مخلوق من ماء، وأصل حياته من الماء على أي صفة كان خلقه.

وقد يكون هذا من باب التغليب فيخرج الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣١.

مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]، وكذلك الملائكة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: « خلقت الملائكة من نور»(١).

﴿فَمِنْهُم﴾ بضمير العقلاء و«مَنْ» الموصولة التي تستعمل للعالم يدل على دخول «البشر» في عموم قوله (كل دابة) وجاء التعبير بضميرهم تغليبًا لهم على غيرهم من غير العقلاء ولو لم يدخل العقلاء لقال: (فَمِنْهُا ما يَمْشِي...الخ).

﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ «من» موصولة، وهي في الأصل للعالم فجيء بها دون «ما» التي لغير العالم، إما تغليبًا للعالم على غيره، أو على سبيل التبادل بينهما، ومجيء إحداهما مكان الأخرى.

والذي يمشي على بطنه من الدواب كالحيات والحيتان والديدان والزواحف. والمشي على البطن كما يسمى مشيًا يسمى أيضًا زحفًا وحبوًا(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾: كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والماعز، وكالخيل والبغال والحمير والسباع ونحو ذلك.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يخلق الله الذي يشاء خلقه من المخلوقات مما يمشي على ما ذكر، ومما يختلف عنه، مما يمشي على أكثر مما ذكر أو أقل منه.

وهذا يدل على أن ما جاء في الآية من ذكر الأنواع الثلاثة إنما هو على سبيل التمثيل فقط، وليس على سبيل الحصر، فهناك من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، وهذا أمر مشاهد معلوم.

وقدم في الذكر من يمشي على بطنه؛ لأنه أدل على كمال القدرة وأعجب ممن يمشي على رجلين، ومن يمشي على رجلين أدل على ذلك وأعجب ممن يمشي على أربع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعدما ذكر عز وجل بعضًا من دلائل قدرته العلوية والسفلية، أكد عز وجل قدرته على كل شيء.

وأكد ذلك بـ«إن»، وهي حرف توكيد ونصب، وبكون الجملة اسمية، وبتقديم

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٩، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣١، وانظر: «لسان العرب» مادة «زحف».

المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به، وهو ﴿قَدِيرٌ﴾ إذ الأصل قدير على كل شيء.

و«القدير» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على كمال قدرته عز وجل على كل شيء، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾[المرسلات:٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

الفوائد والأحكام:

١. أن الله خلق كل دابة مما يدب على الأرض من ماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾.

فأصل خلقة كل الدواب من الماء، فمنها ما هو من ماء النطفة، ومنها ما هو من الرطوبات والعفونات؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

فمعنى الآية: أن كل شيء خلق من الماء، وليس معناها أن الماء ضروري لبقاء الحياة، كما يفهمه كثير من الناس.

٢. قدرة الله عز وجل الباهرة، وحكمته الظاهرة في اختلاف مشية هذه الدواب فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾.

٣. إثبات المشيئة لله تعالى وأنه عز وجل يخلق ما يشاء من المخلوقات من غير ما ذكر، ومما يمشي على غير ما ذكر، وما ذكره في هذه الآية إنما هو أمثلة لبعض ما خلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

٤. إثبات قدرة الله عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الآيات الكونية العلوية والسفلية في السموات والأرض والدواب أتبع ذلك ببيان أنه أنزل أعظم من ذلك، وهي الآيات الشرعية التي فيها الهداية للطريق المستقيم رحمة منه وامتناناً.

قوله: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: «اللام» واقعة في جواب القسم، و«قد» للتحقيق، والتقدير: والله لقد أنزلنا. والإنزال يكون من علو إلى أسفل، وضمير «نا» يعود إلى الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى عالٍ فوق خلقه مستوٍ على عرشه.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والدلالة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، وهي: القرآن الكريم. وهي المرادة هنا، وسُميت آيات لأنها علامة على وجود الله وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته وعلامة على صدق من جاء بها من عند الله ولما اشتملت عليه من الهدى الصالح لكل زمان ومكان، ولكل أمة، الدال على أنها من عند الله، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

كما أن الآية علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها.

والآية في الشرع: « القطعة من كلام الله عز وجل ذات بداية ونهاية منفصلة عما قبلها وعما بعدها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن الكريم ».

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وخلف وحفص عن عاصم: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء مع التشديد اسم فاعل أي: بيّنات بأنفسهن، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد:٩]، ومبينات للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخير من الشر، ولكل ما يحتاجه الخلق في أمور دينهم ودنياهم، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ونافع وأبو جعفر وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: «مبيَّنات» بفتح الياء وتشديدها[1]، اسم مفعول، أي: أن الله وضحها وبينها وفصلها،

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٢٤٨- ٢٤٩.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، كقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

المراد بالهداية هنا هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل، كما في قوله- تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: من يشاء الله هدايتهم، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

وقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يدل على أنه عز وجل يفعل لحكمة، فيهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وكل ذلك لحكمة؛ لأنه قيد الهداية بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

فعلى الإنسان أن يبحث عن أسباب الهداية فيوفق لها بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥- ٧].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى طريق مستقيم، و«المستقيم» في الأصل هو أقصر خط يصل بين نقطتين، أي: يهدي إلى طريق لا عوج فيه ولا التواء، ويؤدي إلى السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة بأخصر طريق، وأقرب وقت، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمدًا ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

ولهذا أمرنا الله بالدعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلاة في سورة الفاتحة، وهو صراط الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل على عظم ما أنزل من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، أي: والله لقد أنزلنا.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- أن آيات القرآن الكريم في غاية الوضوح والبيان بينات بأنفسهن، موضحات للحق من الباطل، والحلال من الحرام وغير ذلك لقوله: (مُّبَيِّنَاتٍ).

٥- أن هداية التوفيق إلى الصراط المستقيم خاصة بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٦- الترغيب في سؤال الهداية من الله عز وجل وحده؛ لأن الهداية بيده وحده.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٨- أن أقوم الطرق وأعدلها وأقربها للسعادة والنجاة هو طريق الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل صفات الرجال المؤمنين بقوله ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ الآية، ثم ذكر الله الكافرين وأعمالهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ الآيتين.

ثم أتبع ذلك بذكر حال الصنف الثالث المذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهم المنافقون.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ «الواو» استئنافية، أي: ويقول المنافقون، ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان[1]، أي: ويقولون بألسنتهم. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾، أي: صدقنا بالله وبالرسول.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه.

والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجرَ، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

وأعاد حرف الجر في قوله «وبالرسول»؛ لبيان أنه يجب الإيمان بالرسول ﷺ إيمانًا مستقلاً، فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله فليس بمؤمن.

و«ال» في قوله «وبالرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان، وهو محمد ﷺ.

﴿وَأَطَعۡنَا﴾، أي: انقدنا بجوارحنا لله ورسوله، بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن معنى الطاعة: الامتثال وموافقة الطلب بفعله إن كان مأمورًا، أو تركه إن كان منهيًا.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٣.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، أي: ثم يعرض فريق وطائفة منهم عن الإيمان بالله والرسول فتُخالف أعمالهم أقوالهم، ويقولون ما لا يفعلون.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

ويفهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أن من القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ فريقًا لا يتولى، بل يَصْدق بتلك المقالة.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ «الواو» حالية، و«ما» نافية والإشارة للفريق المتولي عن الإيمان، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الباء حرف جر زائد من حيث الإعراب مؤكد من حيث المعنى للنفي في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: توكيد نفي الإيمان عنهم.

أي: وما أولئك الذين يتولون عن الإيمان بالله والرسول، وعن طاعة الله والرسول بالمؤمنين حقًا؛ لأنهم يقولون مالا يفعلون، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ويحتمل أن المراد نفي أصل الإيمان عنهم، وهذا إذا كان إعراضهم إعراضًا مطلقًا، أو مما يُكفَّر به المعرض.

ويحتمل أن المراد نفي كمال الإيمان الذي ادعوه، وهذا إذا كان إعراضهم بترك ما لا يخرجون بتركه عن أصل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

رُوي أن رجلاً من المنافقين يقال له بشر كانت بينه وبين يهودي خصومة، فقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودي نتحاكم إلى محمد، فاتفقوا على التحاكم إلى عمر، ورُوي أن عمر- رضي الله عنه- قتل ذلك المنافق، وقيل غير ذلك[(١)].

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ «الواو» عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة. «دعوا» الضمير الواو يعود إلى الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: إذا دعوا إلى كتاب الله تعالى وإلى حكمه عز وجل.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨١، «لباب النقول» ص ١٦٠.

«ورسوله»، أي: إليه ﷺ بنفسه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته.

وعطف بالواو في قوله «ورسوله»؛ لأن المقام مقام الطاعة والحكم والتشريع، وهذا لا مانع فيه من عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ وحكمه وشرعه من شرع الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه العطف بالواو؛ لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت »، «أو ما شاء الله وشاء محمد».

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت: فقال ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»[(١)].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت. ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت[(٢)].

وعن قَتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: « ورب الكعبة؛ وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»[(٣)].

وعن حذيفة- رضي الله عنه- : أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال: «أما والله إن كنت لأعْرِفها لكم. قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»[(٤)].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قرأ أبوجعفر بضم الياء وفتح الكاف: «ليُحكَم».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمَ﴾.

و«اللام» في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ لام التعليل، أي: دعوا لأجل أن يحكم بينهم والضمير في

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند ١٨٣٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٧. وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور ٣٧٧٣، وأحمد ٦/ ٣٧١- ٣٧٢. وصححه الألباني.

(٤) اخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٨. وصححه الألباني.

قوله: «ليحكم» يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المباشر للحكم بينهم، وهو المبلغ عن الله عز وجل فحكمه ﷺ بينهم هو حكم الله، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣- ٤].

ولهذا قال ﷺ لسعد بن معاذ- رضي الله عنه- لما حكم ببني قريظة أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، أو من فوق سبع سموات»(١).

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ هذه الجملة جملة جواب الشرط المتقدم، وصدرت بإذا الفجائية؛ لأنها جملة اسمية، وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فلا بد أن يصدر بالفاء أو بإذا الفجائية.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ يفهم منه أن منهم فريقًا يقبل حكم الله ورسوله.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾، أي: عن حكم الله ورسوله، لا يلتفتون إليه، فهم متولون بأجسامهم، معرضون بقلوبهم، لا ينظرون لما تولوا عنه، فالمتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، بخلاف المعرض، فإنه لا يلوي إلى ما أعرض عنه، ولا يلتفت إليه(٢).

وفي تصدير الجملة بإذا الفجائية التي تدل على المفاجأة دليل على استكبار هؤلاء وعنادهم، وأنهم يفاجئون من دعاهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بالإعراض من أول وهلة دون تروٍ وتفكر في الأمر، فكأنهم بيّتوا في أنفسهم من ذي قبل رد حكم الله ورسوله والإعراض عنه؛ لأنهم مبطلون في دعواهم وظالمون، ويعلمون أنه ﷺ لا يحكم إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦٠- ٦١]، إلى أن قال عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٣.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: وإن يكن لهم الحق في حكم الله ورسوله لم يعرضوا ولم يتولوا بل ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾، أي: إلى رسول الله ﷺ، أو إلى حكم الله ورسوله.

﴿مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين منقادين طائعين ذليلين، والإذعان: سهولة الانقياد(١).

فهم إن كان الحق ليس لهم- فيما حكم الله به ورسوله أعرضوا عنه سواء كان الحق عليهم أو لا عليهم ولا لهم، وإن كان لهم الحق في ذلك الحكم جاؤوا إليه مسرعين منقادين طائعين، ليس من باب الطاعة لحكم الله ورسوله والإيمان بذلك، وإنما لأن ذلك وافق أهواءهم حيث كان الحق فيه لهم، وهذا ليس من باب الانقياد لحكم الله ورسوله، وإنما من باب اتباع الهوى(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

وقال تعالى في المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾.

قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

والمرض قسمان: مرض حسي يصيب الجسم كله، ومرض معنوي يصيب القلوب والعقول، كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

---

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب» مادة «ذعن».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠.

وهو أخطر الأمراض قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

والمرض المعنوي قد يكون:

مرض شهوة، وهو ثلاثة أنواع: مرض شهوة فرج، ومرض شهوة بطن، ومرض شهوة اتباع الهوى، وهو أشد أنواع مرض الشهوة، وهو المراد بقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

وقد يكون مرض شبهة وشك؛ وهو المراد بقوله: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾، وهو أشد من مرض الشهوة بجميع أنواعه.

و«أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي من كلام إلى كلام آخر دون إبطال الأول مع همزة الاستفهام الإنكاري.

والتقدير: بل أَرْتابوا، أي: أشكوا في صحة نبوة محمد ﷺ، وفيما جاءهم به من عند الله، وفي صحة حكمه.

﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾، أي: بل أيخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله يعني في الحكم، والحيف: الجور والظلم.

والمعنى: لماذا يعرضون عن حكم الله ورسوله إذا لم يكن الحق، لهم ويأتون إليه مسرعين منقادين طائعين إذا كان الحق لهم ؟ أفي قلوبهم مرض اتباع الشهوة والهوى، أم شكّوا في صحة نبوته ﷺ وفيما جاءهم به من عند الله، واشتبه الأمر عليهم، ولم يتبين لهم الحق، أم يخافون من الجور في حكم الله ورسوله عليهم(٢).

﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ «بل» عاطفة، وهي للإضراب الانتقالي.

والمعنى: ليس الحيف في حكم الله ورسوله ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لإعراضهم عن حكم الله ورسوله، بسبب مرض قلوبهم بالشهوة واتباع الهوى والريب والشك واتهام حكم الله ورسوله بالجور والظلم، فهم بهذه الأعمال هم الذين بلغوا الغاية في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٤.

الظلم[(١)].

ولهذا أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة جملة اسمية، معرّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

والظلم لغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي وهو نوعان:

١- ظلم الإنسان لنفسه بالمعاصي والذنوب وأعظمها الشرك بالله، وهو أظلم الظلم؛ لأن حق الله أوضح الحقوق وأبينها، قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٢- وظلم الغير، وهو أيضًا داخل في ظلم النفس؛ لأن ظلم الغير من المعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- فضح المنافقين ومرضى القلوب وذمهم وبيان ترددهم وتذبذبهم فهم يدّعون الإيمان بالله وبرسوله وطاعتهما ثم يتولى فريق منهم فتخالف أفعالُهم أقوالَهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٢- أن من ادعى الإيمان والطاعة بقوله وخالف ذلك بفعله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالإيمان قول وعمل واعتقاد، وليس مجرد قول باللسان، مع الإعراض بالقلوب والتولي بالأبدان[(٢)].

٣- إعراض المنافقين ومرضى القلوب عن حكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

٤- وجوب الانقياد لحكم الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٤.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٥].

٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل في مقام الطاعة والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

٦- قبول المنافقين لحكم الله ورسوله إذا كان الحق فيه لهم، ورده إذا كان الحق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

٧- جمع المنافقين بين مرض القلوب والريب والشك، وعدم الاطمئنان إلى حكم الله ورسوله والظلم؛ لقوله ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾.

لما ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة المعرضين عن حكم الله ورسوله ما لم يكن الحق لهم، بيّن حال المؤمنين السامعين المطيعين لحكم الله ورسوله فيما لهم وفيما عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إنما: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة.

ونُصب «قولَ» على أنه خبر «كان» مقدم، واسمها «أن يقولوا»، أي: المصدر المقدر من «أن» والفعل بعدها، والتقدير: ما كان قولهم إلا هذا القول، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:١٤٧].

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين كاملي الإيمان الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم وأقوالهم بأفعالهم، وهو قولهم: سمعنا وأطعنا[(١)].

﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: كالجملة السابقة «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «دعوا إلى الله»، أي: إلى كتاب الله عز وجل وحكمه، «ورسوله»، أي: إليه ﷺ بشخصه في حياته، وإلى حكمه وسنته بعد وفاته ﷺ.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف: «لِيُحكَم».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمَ﴾. و«اللام» للتعليل أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في قوله «ليحكم» كما سبق يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المبلغ عن الله عز وجل والمباشر للحكم بينهم، وحكمه بينهم هو حكم الله عز وجل.

أي: ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الخصومات، وفي الأحكام وغير ذلك، كما

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥

قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

ومما يؤيد أن الضمير في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ قوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾.

﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أي: سمعنا بآذاننا، «وأطعنا»، أي: انقدنا بجوارحنا، بفعل ما نؤمر به وترك ما نُنهى عنه سواء كان الحكم لنا أو علينا.

وهذا بخلاف من قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، [البقرة:٩٣]، [النساء:٤٦]، وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

فالواجب على المؤمن إذا سمع حكم الله ورسوله أن يسمع ويطيع ويرضى ويسلم، فإن الآية وإن كان ظاهرها الخبر، فإن معناها الأمر وإيجاب التحاكم إلى الله ورسوله، وإلى من حكم بحكم الله ورسوله من حكام المسلمين وقضاتهم، والرضا بذلك.

والله المستعان، قلَّ أن تجد خصمًا يخرج من المحكمة الشرعية راضيًا إذا كان الحكم عليه، لاعن الحكم، ولاعن القاضي إلا من رحم ربك.

كما قال ابن الوردي(١):

إن نصف الناس أعداء لمن ... ولي الحكم وهذا إن عدل

وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

كما أنه أيضًا يجب التسليم والصبر والرضى لأحكام الله القدرية حتى يَسْلَمَ الإنسان من الجزع والقلق والاعتراض على قضاء الله وقدره.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٨٠.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الإشارة للمؤمنين القائلين سمعنا وأطعنا، وأشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم، وأكد الفلاح وحصره فيهم بضمير الفصل وبالجملة الاسمية معرّفة الطرفين.

والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب[1]، والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن من سمع لحكم الله ورسوله، وأطاع ورضي بذلك وسلَّم انشرح صدره واستنار قلبه لقبول الحق، واطمأن وسعد وأفلح في حياته، بخلاف من لم يسمع لحكم الله ورسوله، ولم يطع فإنه يضيق صدره ويظلم قلبه ويعيش في حيرة من أمره.

وهكذا الشأن بالنسبة لأحكام الله القدرية فمن رضي بها وصبر هان عليه أمرها واطمأن وسعد في حياته، ومن لم يرض بها وجزع كان نصيبه الجزع والقلق.

أما السعادة في الآخرة فبالنجاة من النار والفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار قال تعالى ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾.

قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

لما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصًا ذكر فضلها عمومًا في جميع الأحوال فقال:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، «الواو» عاطفة أو استئنافية و«من» شرطية جازمة «يطع» فعل الشرط مجزوم بها وعلامة جزمه السكون، وحذفت منه الياء لالتقاء الساكنين.

والطاعة: موافقة الطلب بفعله إن كان أمرًا، وتركه إن كان نهيًا، أي: فعل المأمور، وترك المنهي، أي: فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

ويحسن في مثل هذا المقام أن نحمل الطاعة على فعل الأوامر؛ لذكر التقوى بعدها.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله بالواو؛ لأن هذا في مقام الطاعة والأمر والنهي، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨١

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾: معطوف على «يطع». و«يخش» مجزوم بحذف حرف العلة الألف فأصله «يخشى»، و«يتقه» مجزوم بحذف حرف العلة الياء فأصله «يتقيه».

قرأ حفص عن عاصم: «ويتّقْهِ» بسكون القاف وكسر الهاء.

وقرأ قالون ويعقوب الحضرمي: «ويتّقِهِ» بكسر القاف والهاء.

وقرأ ورش وابن كثير وخلف عن حمزة، والكسائي وخلف: «ويتَّقِهِي» بكسر القاف والهاء مع إشباع كسرة الهاء.

وقرأ أبو عمرو وشعبة: «ويتّقِهْ» بكسر القاف وسكون الهاء[1].

والخشية: بمعنى الخوف، بل أخص منه فهي خوف مع هيبة وتعظيم وإجلال؛ لأن من شرطها- كما يقول بعض أهل العلم- عِظَم المخشي وعلم الخاشي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] أي: يخافونه خوفًا مقرونًا بتعظيمهم له مع علم ومعرفة. وقيل: الخشية من مُنَزِّل المكروه، والخوف يكون من نفس المكروه.

والتقوى لغة: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الأمر المخوف وقاية، تتقي البرد والحر والشوك ونحو ذلك.

وكلمة «تقوى» أصلها «وقوى» فقلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، فقيل «تقوى».

وأجمع ما قيل في معناها: « أ ن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه».

وعطف «ويتقه» على قوله «ويخش الله» لأن التقوى نتيجة خشية الله، فعطفها على التقوى من باب التوكيد.

قال ابن كثير[2]: «(وَيَخْشَ الله) فيما مضى (وَيَتَّقْهِ) فيما يستقبل».

وحيث ذكرت الطاعة قبل هذا ثم عطف عليها التقوى فيحسن في مثل هذا المقام أن تحمل التقوى على ترك النواهي[3]؛ لأن الطاعة والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت كالفقير والمسكين، والإسلام والإيمان ونحو

---

(١) انظر: « التبصرة » ص ٦١١، «المهذب في القراءات العشر» ٢/ ٧٧.

(٢) في « تفسيره » ٦/ ٨١.

(٣) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٦

ذلك، وذلك لئلا يقال بالترادف، وتضيع فائدة العطف الذي هو في الأصل يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، سواء كانت المغايرة بين الذوات، أو بين الصفات، ولأن تأسيس معنى جديد أولى من التوكيد.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ جملة جواب الشرط، واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية. والإشارة لمن جمعوا بين طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه، وأكد الفوز لهم وحصره فيهم بضمير الفصل «هم» وبكون الجواب جملة اسمية معرّفة الطرفين.

وقوله: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ كقوله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فالفوز والفلاح: النجاة من المرهوب والحصول على المطلوب.

والفائزون: الذين ظفروا بالسعادة في الدنيا بالحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة ورؤية العزيز الجبار. نسأل الله الكريم من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- امتداح المؤمنين والثناء عليهم في سرعة الانقياد والاستجابة والقبول والسمع والطاعة لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

٢- وجوب السمع والطاعة لله وللرسول ﷺ في الحكم وفي جميع الأحوال، وخشية الله عز وجل وتقواه.

٣- أن الفلاح والفوز وحصول المطلوب والنجاة من المرهوب ودخول الجنة والنجاة من النار بالسمع والطاعة لحكم الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله في جميع الأحوال وخشية الله وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

٤- الترغيب والإغراء في طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه لحصر الفوز فيمن اتصف بهذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ «الواو» استئنافية، «أقسموا بالله» حلفوا به.

والمراد المتخلفون عن الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان(١).

كما قال الله عز وجل عن الكفار: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩، ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢].

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ جهد منصوب على الحالية أو المصدرية، أي: غاية أيمانهم.

أي: أقسموا بالله أوكد الأيمان وأغلظها، وطاقة ما في وسعهم وما يقدرون عليه.

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب القسم، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن أمرتهم في المستقبل بالجهاد في سبيل الله، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم الثاني وهو قوله: (لئن أمرتهم)، أي: والله لئن أمرتهم بالجهاد ليخرجنَّ إليه.

أي: إن هؤلاء حلفوا بالله الأيمان المؤكدة والمغلظة لئن أمرهم الرسول ﷺ بالجهاد ليخرجن إليه، كما قال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢].

وهذا ديدنهم اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٦]، [المنافقون:٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٢، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٧٣٧.

[التوبة:٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة:٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، ويُبعثون وهم على هذا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

والقسم إذا تضمن التزامًا من الإنسان لله كان جامعًا بين القسم والنذر.

وأما إذا قصد بالقسم مجرد تحقيق شيء دون الالتزام فليس بنذر، كأن يقول: والله لأخرجن إلى السوق، ونحو ذلك.

﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾، أي: قل لهم يا محمد: لا حاجة أن تقسموا، أولا داعي للقسم ولا مبرر له، ويؤخذ من هذا كراهة القسم إذا لم تدعُ الحاجة إليه.

وفي الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»(١).

كما يؤخذ من هذه الآية كراهة النذر مطلقًا، بل ظاهر الآية تحريم ذلك.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تحريم النذر، وقد قال ﷺ في ذم النذر «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»(٢)، والعقل والمعنى يقتضي ذلك؛ لأن العافية لا يعدلها شيء، فكيف يلزم الإنسان نفسه في أمر لم يلزمه الله به، بل بأمر قد يعجز عنه، وقد يندم عليه، كما هو حال كثير ممن ينذرون، ولا شك أن في هذا تكليفًا للنفس، بل وظلمًا لها، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي هريرة وسلمان رضي الله عنهما بسند صحيح- فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد. انظر: «فتح المجيد» صـ٤١٦- ٤١٨.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٦٠٨، ومسلم في النذور ١٦٣٩، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠١، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ طاعة: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: طاعتكم طاعة معروفة.

والمعنى: عليكم إذا أُمرتم «طاعة معروفة»، أي: أن تطيعوا إذا أُمرتم، ولا حاجة أن تقسموا أنكم إن أُمرتم ستمتثلون، بل امتثلوا ما أُمرتم به لأمر الله لكم بذلك ولا حاجة للقسم.

وأيضًا «طاعة معروفة» بأن تكون الطاعة بما عرف من الشرع من غير زيادة أو نقصان، وفي الحديث: «إنما الطاعة بالمعروف»[1].

وقيل معناه طاعتكم معروفة، أي: قد علمت طاعتكم، إنما هي طاعة نفاق قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:٢].

فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر:١١، ١٢].

ولهذا قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «خبير» على وزن «فعيل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل.

والخبرة أخص من العلم، وهي: معرفة بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فالخبير

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٥، ومسلم في الإمارة ١٨٤٠، وأبو داود في الجهاد ٢٦٢٥، والنسائي في البيعة ٤٢٠٥- من حديث علي رضي الله عنه.

المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان عز وجل مطلعًا على البواطن والدقائق والخفيات، فاطلاعه على الظواهر وجلائل الأمور وجلياتها من باب أولى. ومن علمه بالبواطن علمه بما تخفيه صدور هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرهم الرسول ﷺ بالخروج للجهاد ليخرجن.

وقوله: «بما تعملون»، «ما» موصولة، أو مصدرية، والتقدير بالذي تعملون، أو بعملكم، أي: بأعمال القلب واللسان والجوارح.

وفي هذا ترغيب في عمل الخير وترهيب من عمل الشر، ووعد ووعيد، وأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، أي: ير عمله وجزاءه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ سبق بيان معنى الطاعة، وأنها امتثال الطلب بفعله إن كان مأمورًا، وتركه إن كان محظورًا، أي: أطيعوا الله والرسول بفعل ما أمركم الله به ورسوله وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وقوله: «وأطيعوا الرسول» بإعادة العامل، كما في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] يدل على أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة بحيث تجب طاعته ﷺ فيما جاء في سنته وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

وطاعة الرسول ﷺ فيما جاء به من الكتاب أو السنة كل ذلك من طاعة الله عز وجل، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ أي: إن كل ما جاء به حق من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣- ٤].

وعن المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن

ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[١].

وفي هذا رد على الخوارج وبعض المعتزلة ومن سلك مسلكهم ممن يدعون إلى الاقتصار على القرآن دون السنة.

و «ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود المعروف بينكم، وهو محمد ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ «الفاء» استئنافية، «تولوا» أصلها «تتولوا» وحذفت منه إحدى التاءين تخفيفًا[٢].

والمعنى: فإن تعرضوا عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، وضمير الهاء يعود إلى الرسول ﷺ و«ما» في الموضعين موصولة، أي: فإنما عليه الذي حمل وعليكم الذي حملتم، أو مصدرية أي: فإنما عليه حمله وعليكم حملكم.

وفي الآية مع بيان المطلوب منه ومنهم وعد لمن وفى بما عليه، ووعيد لمن خالف ولم يف بما عليه.

والذي حمله ﷺ هو تبليغ الرسالة، وبيان ما أُنزل إليه من ربه والدعوة إلى الله عز وجل كما قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

وليس عليه هداية القلوب وإنما ذلك بيد علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة- لزوم الجماعة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢، وأحمد ٤/ ١٣١. وصححه الألباني.

(٢) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٧٤

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ﷺ، وقال ﷺ لأصحابه «ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد»(١).

وكادت نفسه أن تذهب حسرات على تكذيب قومه له حتى نهاه الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧] وقال تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وبذلك حصل له في الدنيا السُّؤدد والعز والتمكين له ولدينه وأمته، وله عند الله في الآخرة الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة في جنات الخلود عليه صلوات الله وسلامه.

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: وعليكم الذي حملتم، وهو الاتباع والطاعة لله ورسوله، وإن توليتم فضرر ذلك عليكم.

فاختلف الناس في هذا كما قال عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] وسيجد كل من الفريقين عمله وثمرته غداً، قال: عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٦-٨].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ ما يشعر بعظم الحمل الذي حمله الرسول ﷺ في رسالته وبعثته إلى الناس عامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

ويشعر بعظم الأمانة التي حملها الإنسان، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ «الواو»: عاطفة، و«إن»: شرطية، «تطيعوه»: فعل الشرط وجوابه: «تهتدوا»، وكلاهما مجزوم بحذف النون.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٧٤١، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

أي: وإن تطيعوا الرسول ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه «تهتدوا» إلى الطريق المستقيم، فطاعته عين الهدى لكم، كما قال تعالى عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢- ٥٣].

والهداية إلى الطريق المستقيم بمعرفة الحق والعمل به، والعلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمدًا ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣] [الفتح:٢٨] [الصف:٩].

وهي النعمة الحقيقية والمطلب الأول لكل مسلم، كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، بأن عرفوا الحق واتبعوه.

وهي الاعتصام بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [آل عمران:١٠١].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا تفسير لقوله تعالى فيما سبق: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.

والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ كذا بمعنى وصل إليه، وفي قصة الثلاثة «لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[1].

والمعنى: ما على الرسول ﷺ إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى المدعوين، والحصر هنا إضافي: أي ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة، أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

وأما الحصر الحقيقي فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة:٣٣]، أي: ما لهم جزاء إلا هذا.

«المبين»: اسم فاعل، من «أبان» الشيء بمعنى أظهره ووضحه، فـ«المبين»: الْمُظْهِر الْمُوَضّح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بينًا بنفسه، فهو بيِّن بنفسه مُبيِّن لغيره.

الفوائد والأحكام:

١- حَلِف المنافقين الأيمان المغلظة والمؤكدة للرسول ﷺ بالخروج إلى الجهاد إذا أمرهم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مطولاً.

بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

٢- أن من أبرز صفات المنافقين إظهار الإيمان والانقياد باللسان، مع ما في القلب من إضمار خلاف الظاهر، وتأكيد وعودهم وعهودهم بالأيمان الكاذبة وعدم الوفاء بذلك.

٣- النهي عن القسم على فعل الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ ولهذا نهى ﷺ عن النذر- كما سبق ذكر ذلك- فالمطلوب من المؤمن أن يمتثل أمر الله ورسوله دون أن يقسم على أنه سيمتثل ذلك.

٤- أن طاعة المنافقين المزعومة إنما هي طاعة نفاق في الظاهر مع المخالفة في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾.

٥- إثبات خبرة الله عز وجل بأعمال المنافقين وغيرها من الأعمال الظاهرة والخفية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- وجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٧- أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً حتى فيما لم يرد في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإعادة الفعل.

٨- تهديد من تولى عن طاعة الله ورسوله من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾.

٩- أن مهمة الرسول ﷺ التي حمله الله إياها هي تبليغ رسالة ربه، وليس عليه هداية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.

١٠- الإغراء والحث على طاعة الرسول ﷺ، وأنها هي الطريق الوحيد إلى الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

١١- تأكيد أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ المبين، وأن هداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

سبب النـزول:

عن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»[(1)].

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعدهم وعده الصدق الذي لا يتخلف، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

والوعد: بما يرجى من المحبوب والخير غالبًا، يقال: وعد يعد وعدًا، وقد يستعمل فيما يكره، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٧٢]، وهذا بخلاف الوعيد فهو بما يخاف من المكروه والشر يقال أوعد يوعد وعيدًا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

قال الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ويـأمن منـي صـولة المتوعـد

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب التفسير ٢/ ٤٠١ وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٣: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١- ٢٢٢، «لباب النقول» ص ١٦٠، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص ١٥١- ١٥٢.

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[1]

أي: لمخلف وعيدي بالشر، ومنجز موعدي بالخير، أي: إن نهاية أمري إلى العفو والمسامحة وفعل الذي هو خير.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك. وحذف الموصوف وهو الأعمال، وأقام الصفة مقامه إشارة إلى أن العمل ليس هو المهم، وإنما المهم أن يكون صالحًا مقبولاً، فكم من أعمال لا قيمة لها تذهب سدى وهباءً منثورًا؛ لفقدانها أحد شرطي صلاح العمل وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فلا يسمى العمل صالحًا إلا بهذين الشرطين، ويجمعهما قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو محسن متبع ما جاء عن الرسول ﷺ.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: «اللام» واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليستخلفنهم في الأرض، وقيل: إن اللام واقعة في جواب الوعد على أنه بمنزلة القسم في كونه واقعًا ومحققًا لا محالة، والنون للتوكيد، فأكد هذا الوعد لهم بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

والاستخلاف في الأرض: النيابة عن الغير؛ لغيبته أو لعجزه أو لموته، أو لتشريف النائب وتكريمه؛ ليقيم الحق في أرض الله، وهو المقصود من استخلاف المؤمنين.

ومعنى «يستخلفنهم في الأرض»، أي: يجعلهم خلفاء يخلفون غيرهم في أرض الله الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: قرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استُخلِف» بضم

(١) هذان البيتان لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري مادة «وعد».

التاء وكسر اللام، على البناء للمفعول.

وقرأ الباقون بفتحهما على البناء للفاعل[1].

وهذا من باب التوكيد للوعد السابق.

«كما» نعت لمصدر محذوف، أي: استخلافًا كاستخلاف الذين من قبلهم من المؤمنين الصالحين من الأمم السابقة، ومن ذلك استخلاف بني إسرائيل بدلاً من الفراعنة.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧- ٥٩].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥- ٢٨].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾: «الواو» عاطفة، والتمكين التثبيت والتأييد والتقوية، «دينهم» أضاف الدين إليهم؛ لأنهم اختاروه واتبعوه، كما أنه دين الله؛ لأنه هو الذي شرعه. وفي إضافة الدين إليهم تشريف وتكريم لهم.

﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الذي ارتضاه واختاره لهم والذي هو أكمل الأديان.

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

والمعنى: أن يجعل لهم دينهم الذي رضوه واختاروه لأنفسهم واتبعوه ورضيه الله لهم متمكنًا قويًا ظاهرًا على الأديان كلها، كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

وعن تميم الداري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص٣٤٠، «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو ذل ذليل عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»[١].

وعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أنه وفد على النبي ﷺ فقال له: «أتعرف الحيرة؟ قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: فوالذي نفسي بيده لَيُتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَتُفتحن كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هرمز ؟ قال: نعم، كسرى بن هرمز، ولَيُبذلن المال حتى لا يقبله أحد. قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها »[٢]. وقد حصل هذا في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فماله في الآخرة من نصيب»[٣].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وشعبة عن عاصم بتخفيف الدال: «وليُبْدِلنهم».

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، والإبدال والتبديل: جعل شيء مكان شيء.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾، أي: من بعد أن كانوا في خوف، والخائف هو الذي لا يطمئن ولا يأمن على دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه وغير ذلك، مما يتوقع من المكروه بأمارة معلومة أو مظنونة.

﴿أَمۡنٗا﴾ الأمن: ضد الخوف، أي: طمأنينةً وأمنًا على دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم وغير ذلك.

وقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾؛ لأن مجيء الأمن بعد الخوف المتحقق أظهر وأبين في

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب وعلامات النبوة في الإسلام ٣٥٩٥، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٤٠٢٩، وأحمد ٤/ ٢٥٧

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٤

نعمة الأمن وفائدته، وبضدها تتميز الأشياء، ولا يعرف قدر النعمة ويُقدّرها قدرها إلا من فقدها، ولهذا قالوا: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

والأمن من أكبر النعم، به تتحقق أمور الدين والدنيا، وبفقدانه تنعدم، ولهذا امتن الله على قريش بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال ﷺ: «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها»(١)

وقد أكد عز وجل وعده للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بثلاثة مؤكدات لفظية هي: القسم، واللام، ونون التوكيد، ومؤكد معنوي وهو أن هذه سنته عز وجل مع أوليائه، وهو الذي لا يخلف الميعاد، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]، وذلك؛ لأهمية هذا الموعود، لما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا والآخرة.

وقد تم هذا الوعد من الله عز وجل للمؤمنين باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال:٢٦].

فبعد أن كان الرسول ﷺ وأصحابه بمكة خائفين، لما يلاقونه من الأذى والتنكيل على يدي كفار مكة، لصدهم عن دينهم ومنعهم من الطواف والصلاة عند البيت، والذي لم يسلم منه حتى سيد الخلق ﷺ، فقد وُضِع سلا الجزور على ظهره ﷺ وهو ساجد، وكفار قريش يضحكون منه ويسخرون، حتى جاءت فاطمة- رضي الله عنها-

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١- من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب». وقال الألباني في «صحيح الجامع الصغير» ٦٠٤٢ : «حسن».

فرفعته عن ظهره[١]، ورماه أهل الطائف بالحجارة حتى أدموا عقبيه[٢]، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد[٣]، وهكذا لقي أصحابه كبلال وخباب صنوف الأذى من قريش، حتى إنه ﷺ خرج من مكة للهجرة متخفيا خوفًا من قريش، وكذا فعل أصحابه بعده، ثم من الله عليهم باستخلافهم في الأرض، والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، ودخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، ووقف على باب الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[٤].

فمكّن الله عز وجل له ولدينه غاية التمكين، ومكّن له من أعدائه حتى قال لهم مبينًا كرم خُلقه ﷺ وفضله عليهم: « ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: « ما أقول لكم إلا كما قال يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٥].

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية أيام الخلافة الراشدة وبعدها، فشملت سائر الجزيرة والشام ومصر وبلاد فارس، وامتدت إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، تحقيقًا لوعد الله عز وجل قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها»[٦].

قال ابن كثير رحمه الله بعد ما ذكر ما فتحه الله على المسلمين[٧]: «فها نحن نتقلب

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٦١.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد١٧٩١، والترمذي في التفسير٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في القسامة ٤٧٩٩، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني في الإرواء ٧/ ٢٥٧. وانظر: «السيرة النبوية» ٤/ ٥٤.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١١٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.

(٦) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن، ٣٩٥٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٧) في « تفسيره » ٦/ ٨٣- ٨٤.

فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا».

ويؤخذ من الآية أنه لا خلافة لأحد على شبر من الأرض خلافة شرعية بحق إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، فلا حق في الخلافة على الأرض لكافر، ومن هنا يجب أن نعلم أنه لا حق لليهود في فلسطين الأرض المقدسة المباركة الآن، أما قبل مبعث محمد ﷺ ويوم أن كان بنو إسرائيل مؤمنين صالحين ودينهم لم ينسخ بالإسلام فقد كانوا أحق بها، قال موسى عليه السلام ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٢١].

أما الآن فالخلافة الشرعية على الأرض إنما هي للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ وأهل الإسلام الذي نسخ جميع الأديان قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]. فاليهود الآن في فلسطين محتلون ومغتصبون، لا قَدم لهم في هذه الأرض المباركة، وسيخرجون منها بإذن الله عز وجل أذلةً صاغرين بعدما يعود المسلمون إلى دينهم وتصلح أحوالهم، وعندما يأتي وعد الله.

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله»[1]

وليس ذلك على الله بعزيز، لكن على الأمة الإسلامية العودة إلى الله حقًا، وعلينا مراجعة حساباتنا في أداء حقوق الله وحقوق الخلق، وإصلاح أحوالنا العامة والخاصة، فإن وعد الله آت ونصره قريب، قال عز وجل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج:٤٠- ٤١].

علينا إعداد العدة بإصلاح أحوالنا أفرادًا وجماعات، ومؤسسات ودولاً، ولنعلم أن هذا أعظم وأقوى وأهم سلاح على الأعداء، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٢٥، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٣٦.

بأنفسهم، ولنعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن من خان حي على الفلاح خان حي على الكفاح، وأن النصر تخلف عن المسلمين يوم أحد؛ بسبب مخالفة واحدة من الرماة لأمره ﷺ، وحصل لهم ما حصل في حنين بسبب اعتمادهم على كثرتهم وقوتهم وقول بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فالأول بسبب نقص المتابعة والثاني بسبب نقص الاعتماد على الله عز وجل.

﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـࣰٔاۚ﴾ يحتمل أن تكون الجملة استئنافية للثناء عليهم، أو حالية أي: حال كونهم مستمرين على عبادة الله تعالى وعدم الإشراك به شيئًا، أي: على الإيمان والعمل الصالح، فالتمكين في الأرض ذُكر سببه في أول الآية وفي آخرها، وهذا هو حق الله على العباد كما جاء في حديث معاذ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»[1].

وبهذا يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف بالأمن كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة، الأمن النفسي والأمن الاجتماعي للأفراد والجماعات والدول.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، ومنه يقال طريق مُعبَّد أي: مُذلل، ذللته الأقدام بالمشي، وبعير معبد أي: مذلل للركوب وحمل الأمتعة عليه غير صعب.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي تشمل: فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات، وترك المنهيات من المحرمات والمكروهات، بل وتشمل فعل المباحات كالأكل والشرب والنوم والراحة وغير ذلك مع استحضار النية بحيث يكون المقصود من ذلك هو المحافظة على النفس التي هي وديعة عند الإنسان، والتقوِّي بذلك على طاعة الله عز وجل.

وهذا معنًى لا يدركه إلا المَوَفَّقون. نسأل الله التوفيق، أما المخذولون فلا، ولهذا قال أهل العلم: «المَوَفَّقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات » نعم.. يدخل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان ٣٠، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٩، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦، وأحمد ٥/ ٢٤٢.

الواحد منهم المسجد ويُهَمْهِمُ ويخرج وما يدري ماذا قال. حتى إنه قد يخرج الإنسان من الصلاة ما كتب له منها إلا عشرها أو أقل من ذلك وقد يخرج منها وما كتب له منها شيء.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ «لا» نافية، والشرك: اتخاذ شريك مع الله، يدعى ويعبد من دون الله، ويسوى في الله فيما هو من خصائص الله كالذبح والنذر والتوكل وغير ذلك، قال تعالى عن المشركين أنهم يقولون مخاطبين معبوداتهم من دون الله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨]،

وهو أقسام: شرك أصغر، ومنه الرياء قال ﷺ: « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»، [(١)] وشرك أكبر كطلب الحاجات والمدد من أصحاب القبور وغير ذلك، ومنه شرك الطاعة قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ »، قال نعم: قال: «فتلك عبادتهم»[(٢)].

ومن ذلك عبادة الدنيا يحب من أجلها، ويبغض من أجلها، ويعادي ويوالي من أجلها، ويترك الواجبات من أجلها، ويرتكب الموبقات من أجلها. قال ﷺ: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[(٣)].

و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في قوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾، وهو نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، أي لا يشركون بي شيئًا من الأشياء أيًا كان، أو: لا يشركون بي شيئًا من الشرك، أي: يعبدون الله عبادة خالصة له تعالى كما قال عز

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠٩٥، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٠٦، والطبري في «جامع البيان» ١١/ ٤١٧ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٧٨٤، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

والشرك أمره خطير، وهو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ولهذا جاء في الدعاء «اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»(١).

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»، أي: إن أمر الإخلاص أمر عظيم، وليس هو بالأمر اليسير، بل لابد من مجاهدة النفس والتفتيش في خفاياها ومتابعة نظراتها وتصرفاتها وخطراتها.

فبالإيمان والعمل الصالح وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له يحصل الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين وتبديل الخوف بالأمن، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠- ٤١].

وبعد ما وعد الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم وتبديل خوفهم بالأمن، مع استمرارهم على عبادة الله وحده، وأن ذلك هو سبب الاستخلاف والتمكين والأمن، أتبع ذلك بالتهديد والوعيد لمن كفر بعد ذلك فقال:

﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: «الواو» عاطفة و«من» شرطية، و«كفر» فعل الشرط وسبق بيان معنى الكفر.

ويحتمل أن المراد به هنا كفر النعمة، ويحتمل أن المراد به الكفر المخرج من الملة.

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وحده دون شريك، أو بعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، أو بعدهما معًا، أو بعد الوعد بذلك.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: «الفاء» رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. والإشارة لمن كفر بعد

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ذلك وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ جمع فاسق، والفسق: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة؛ لخروجها لأجل الإفساد، فالمراد «الفاسقون» الخارجون عن طاعة الله ورسوله الذين بلغوا الغاية في الفسق؛ لأن الله أكد ذلك بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

ومن فسق وخرج عن طاعة الله عز وجل وعن الإيمان والعمل الصالح فليس أهلاً للاستخلاف والتمكين والأمن، بل هو أهل لنزع ذلك منه، فإن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والاستخلاف والأمن.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض، كما استخلف من قبلهم، وتمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم أمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾.

وهكذا تحقق للمؤمنين هذا الوعد في عهد الرسول ﷺ والخلافة الراشدة والعهود الزاهية للإسلام.

٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، ويستخلف فيها من يشاء.

٣- أن الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله عز وجل رتب عليه الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين، وتبديل الخوف بالأمن.

٥- أن الخلافة في الأرض إنما يستحقها أهل الإيمان والعمل الصالح.

٦- أن سنة الله عز وجل استخلاف من آمن به وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وفي هذا تأكيد لتحقيق وعد الله للمؤمنين من هذه الأمة.

٧- أن الله عز وجل قد رضي للمؤمنين بهذا الدين ورضوه لأنفسهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.

إنما يعرف قيمة الأمن من تجرع مرارة الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

٨- أن استمرار الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن لمن استمروا على الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

٩- أن من كفر بعد الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له وبعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

سبق الكلام عن معنى الصلاة وإقامتها، ومعنى الزكاة وإيتائها في الكلام على قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ﴾[النور ٣٧].

والصلاة تشمل الفروض والنوافل، كما قد تشمل الزكاة أيضًا الصدقة الواجبة والمستحبة.

والصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلها، وهما جامعتان لحق الله عز وجل وحق خلقه؛ للإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد(١).

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: من عطف العام على الخاص؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من طاعة الرسول ﷺ وإنما خصهما بالذكر لمزِيَّتهما بين الطاعات؛ ولهذا تسميان القرينتين؛ لأن الله قرن بينهما في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعًا.

و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمدًا ﷺ، وطاعته بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وتصديقه فيما أخبر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

وذلك معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ. وسواء كان ذلك مما جاء في القرآن، أو مما جاء في السنة، فيجب طاعته في ذلك كله، وكله وَحْي من عند الله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ وفضل الصلاة على الزكاة، وفضلهما على سائر العبادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، وقيل: للرجاء، أي: رجاء أن يرحمكم الله، قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤١.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وعن جرير بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[1].

٢- عِظم أمر الصلاة في الإسلام من بين سائر العبادات فهي عمود الإسلام؛ لهذا بدأ بالأمر بها فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامةً تامةً بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: (صلُّوا) وفرْق بين هذا وهذا.

٤- عِظم أمر الزكاة في الإسلام وأنها أهم العبادات المالية، وتأتي بعد الصلاة من بين سائر العبادات، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥- أن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية؛ لهذا خصهما بالذكر بين سائر العبادات وقرن بينهما، وهما القرينتان في القرآن في نحو اثنين وثمانين موضعًا.

٦- وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

٧- أن رحمة الله عز وجل الخاصة لمن أطاع الرسول ﷺ وهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

٨- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٧، ومسلم في الإيمان ٥٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة بالياء وفتح السين: «لا يحسَبنَّ»، أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، أو لا يحسبن حاسب، أو أحد، «الذين كفروا معجزين في الأرض» و«الذين»: مفعول أول، و«معجزين»: مفعول ثانٍ.

وقرأ عاصم بالتاء وفتح السين: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء وكسر السين: «تحسِبنَّ»[(١)].

والحسبان بمعنى الظن[(٢)]، أي: لا تظنن يا محمد الذين كفروا وخالفوك وكذبوك معجزين الله في الأرض، وأنهم سيفوتونه فلا يدركهم أو يفلتون من عذابه[(٣)]، أو يعملون ما يعجزه.

ولا ينبغي أن يظن هذا الظن أحد من المؤمنين، فالخطاب له ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، وقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١].

فهو عز وجل القوي القدير، الذي لا يعجزه شيء ولا يستعصي عليه؛ ولهذا قال

---

(١) انظر: «الغاية» ص ٣٤١، «التبصرة» ص ٦١٢، «النشر» ٢/ ٣٣٣، «المهذب» ٢/ ١٩.

(٢) انظر مادة «حسب» في «لسان العرب».

(٣) انظر: «اللسان» مادة «عجز».

مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن:١٢].

ولكن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]»[(١)].

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ المأوى: ما يأوي إليه الإنسان، أي: مرجعهم ومآلهم ومكانهم الذي يأوون إليه النار[(٢)]، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة:٨- ١١].

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لبئس المصير النار، وبئس: فعل جامد يفيد الذم، بمعنى: قبح، وفاعلها قوله: «المصير» والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ولبئس المصير هي، أو النار.

ولا يُقدِّر عظم ومدى تناهي ذم النار إلا من ذمها وهو العظيم سبحانه وتعالى.

و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: ما يصيرون إليه وهو المأوى والمآل والمآب، أي: بئس المآل مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والندامة، والعذاب الأبدي.

وفي قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: إيذان بفناء الدنيا وزوالها، وأن المرد والمرجع إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ثم مصير كل إلى مأواه ومنزله الأخير ودار خلوده، فالكافرون إلى النار دار البوار، والمتقون إلى الجنة دار القرار، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وكما قيل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعريَ بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في «البر والصلة» ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٨.

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت تختار[1]

الفوائد والأحكام:

١- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- قدرة الله التامة، وقوته وجبروته وقهره للكافرين والظالمين فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- أن مصير الكافرين ومأواهم الذي يأوون إليه هو النار وبئس المأوى والمنقلب والمستقر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

* * *

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾.

سبب النزول:

روى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «وجه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل، فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته على ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها»: للتنبيه، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب صفة لـ«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا»: صلة الموصول.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(٢).

﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ﴾ «اللام»: لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، والاستئذان: طلب الإذن بالدخول.

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤.

ووجه الخطاب للأولياء إشعارًا لهم بمسؤوليتهم تجاه مماليكهم وأطفالهم في وجوب توجيههم لالتزام هذه الأحكام.

ووجه الخطاب في قوله: «ليستأذنكم» للذكور تغليباً لهم على الإناث، وهو يشمل الأولياء من الذكور والإناث.

﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، أي: من العبيد والإماء، البالغ ومَن دون البلوغ.

وأضاف الملك لليمين مع أن المعنى: الذين ملكتم أنتم؛ لأن اليمين هي الآخذة والمعطية، وفي هذا إثبات الرق الذي سببه الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وليستأذنكم أيضًا الذين لم يبلغوا الحلم منكم من الأحرار، والحلم: هو البلوغ والاحتلام، أي: الذين دون سن البلوغ من الأطفال ذكورًا وإناثًا.

وبلوغ الحلم له علامات عدة منها: إنزال المني في يقظة أو منام بالإجماع(١)، ومنها بلوغ خمس عشرة سنة عند الجمهور؛ لحديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «عرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني»(٢).

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «فهذا هو الحد الفارق بين البالغ وغيره».

وذهب أبوحنيفة إلى أن حد البلوغ عند الذكر ثماني عشرة سنة وعند الأنثى سبع عشرة سنة(٣)، ومن علامات البلوغ عند الجمهور نبات شعر العانة؛ لحديث عطية القرظي قال «أمر النبي ﷺ بقتل من أنبت من بني قريظة، فنظروا إليّ فوجدوني لم أنبت فاستبقوني»(٤).

---

(١) انظر: «المغني» ٦/ ٥٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٤، ومسلم في الإمارة ١٨٦٨، وأبو داود في الخراج والإمارة ٢٩٥٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٣١، والترمذي في الأحكام ١٣٦١، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣٣١.

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٠، والترمذي في السير ١٥٨٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣ وقال الترمذي «حديث حسن صحيح». وصححه الألباني.

وخص الشافعي في أحد قوليه الإنبات بأولاد الكفار، ولم يعتبر أبو حنيفة الإنبات من علامات البلوغ لعدم صحة الحديث عنده[١].

ومن علامات البلوغ عند النساء أيضًا: الحيض والحمل[٢].

واختلف في السن الذي يؤمر به من دون البلوغ بالاستئذان، فقال بعض أهل العلم يؤمر ببلوغه سن التمييز سبع سنوات[٣]، لأنه قبل ذلك لا يدري عن شيء، وقيل ببلوغه أربع سنوات.

وحيث لا دليل على التحديد وكون ذلك يختلف من شخص إلى آخر فبعض الأطفال يدرك هذه الأمور وهو ابن أربع أو خمس سنوات، وبعضهم قد لا يدركها إلا بعد سن التمييز سبع سنوات فينبغي تعليم الأطفال هذه الآداب في سن مبكر ما أمكن ليعتادوا عليها، ويلزمون ذلك عندما يظهر منهم التمييز بين الأشياء.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ ثلاث: منصوبة على الظرفية، أي في ثلاثة أوقات.

﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ هذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾.

وسميت صلاة الفجر بهذا الاسم؛ لأن وقتها يدخل عند انفجار ضوء الصبح[٤].

وفي هذا الوقت قد يكون الشخص لم يستيقظ بعد من النوم، أو ما زال في ثياب النوم، أو مع أهله أو غير متهيئ لأن يراه أحد ونحو ذلك.

ولا يفهم من قوله ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أن ما قبله من الليل يباح الدخول فيه بلا استئذان بل إن ما قبل هذا الوقت من الليل أولى بوجوب الاستئذان، كما أن الأولى عدم طروق الناس فيه؛ لأنه وقت النوم إلا عند الضرورة.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ الحين: الوقت، أي: وقت وضع ثيابكم، والمراد: وضع بعض الثياب كما جرت به العادة، يتخفف الإنسان من بعض الملابس؛ لأجل الراحة أو النوم أو كونه مع زوجه، كأن يكون في إزار أو في لحاف ونحو ذلك، وهذا جائز إذا لم

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣٣١، ٣٣٢

(٢) انظر: «المغني» ٦/ ٥٩٧- ٦٠٠.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨.

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة «فجر».

يكن عنده سوى زوجه، ولا يصح حمل الآية على وضع الثياب كلية بحيث يكون الشخص عريانًا فإن ذلك لا يجوز مطلقًا في أي حال، إلا لحاجة كالغسل ونحو ذلك مع وجوب التستر التام.

﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، أي: لأجل الظهيرة، أو في وقت الظهيرة، وهو وقت انتصاف النهار وارتفاع حرارة الشمس ووقت القيلولة.

قال السعدي[(١)]: «قيدت بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، أي: للقائلة؛ لأن العبد قد ينام بثيابه المعتادة».

أي: أن الحكمة من التقييد في قوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾؛ لأن العورة ليست حاصلة وقت الظهيرة لكل الناس، وإنما تكون عورة لمن يضع ثيابه؛ لينام عند الظهيرة، فبعض الناس لا يخلع ثيابه، بخلاف نوم الليل؛ فإن الناس يخلعون ثيابهم؛ لطول مدته، ولهذا لم يقيد قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾؛ لأنه وقت النوم والراحة والتخفيف من الملابس، واحتمال كون الإنسان مع زوجه.

وسميت صلاة العشاء بهذا الاسم؛ لأنها تصلى في وقت العشاء حين يغيب الشفق الأحمر ويبدأ اشتداد ظلمة الليل.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثلاثَ» بالنصب بدلاً من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿ثَلَٰثُ﴾، خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي ثلاث عورات[(٢)].

وقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ تعليل للأمر بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، أي: أن هذه الأوقات أوقات ثلاث عورات لكم، أي مظنة انكشاف العورات والاطلاع عليها.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤٢.

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٣.

والعورات: جمع عورة، والعورة في الأصل: الخلل، ومنه قيل لفاقد العين أعور؛ لاختلال عينه.

وسميت هذه الأوقات عورات؛ لأن السِّتر يختل فيها غالبًا. والعورة كل ما لا يحب الإنسان أن يُطَّلع عليه، ويحرم النظر إليها.

ولهذا أوجب الله الاستئذان على المماليك والأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، وإن كانوا في الأصل ممن لا يجب عليهم الاستئذان مطلقًا، أما من عداهم فيجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات.

قال ابن تيمية: «وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل، كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما»[(١)].

والمراد بالعورات هنا ما يشمل العورات المغلظة والمخففة، بل ويشمل كل ما لا يحب الإنسان الاطلاع عليه من الأحوال والأفعال والأقوال وغير ذلك.

والمرأة كلها عورة، وقال بعض أهل العلم إلا وجهها وكفيها، والراجح أن المرأة كلها عورة عند الأجانب أما عند محارمها وعند النساء فلها أن تكشف ما جرت العادة بكشفه، كرأسها ووجهها وكفيها وذراعيها وقدميها ونحو ذلك.

وينبغي أن تستر ما جرت العادة بستره كالعضدين والصدر والفخذين والساقين ونحو ذلك، مما قد يكون سببًا للفتنة.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[(٢)].

وعنه- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٧٣، وابن خزيمة في صحيحه ١٦٨٥، وابن حبان في صحيحه ٥٥٩٨، ٥٥٩٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»[١].

وعورة الرجل من السرة إلى الركبة، وقال بعض أهل العلم إن الفخذ ليس بعورة بل السوأتان فقط هما العورة؛ لحديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني انظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه، فتحدث، فلما خرج قالت: عائشة دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» وفي رواية: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته»[٣]

وذهب بعض المحققين إلى أن الفخذ عورة لحديث جرهد الأسلمي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ مرَّ به وهو كاشف عن فخذه فقال النبي ﷺ: «غط فخذك فإنها من العورة»[٤].

وعن محمد بن جحش- رضي الله عنه- قال: مر النبي ﷺ وأنا معه على معمر، وفخذاه مكشوفتان، فقال: «يا معمر، غط فخذيك فإن الفخذين عورة»[٥].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مر رسول الله ﷺ على رجل، وفخذه

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض ٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٧١، ومسلم في النكاح ١٣٦٥، والنسائي في النكاح:٣٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠١، وأحمد ٦/ ٦٢، وانظر: «المحلى» ٣/ ٢١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب- ما جاء في حفظ العورة ٢٧٩٥، ٢٧٩٧، ٢٧٩٨، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨٠. وقال الترمذي «حديث حسن» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٩٠، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨٠.

خارجة، فقال: «غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته»، [١]

قال البخاري: «حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط، حتى يُخرج من اختلافهم» [٢].

ولا شك أن الأحوط عدم كشف الفخذ إلا عند الحاجة؛ لأن كشفه قد يحصل بسببه فتنة.

ولكون هذه الأوقات الثلاثة مظنة انكشاف العورات والاطلاع على ما لا يجوز الاطلاع عليه أمر الله عز وجل المؤمنين بإلزام مماليكهم وأطفالهم بالاستئذان، والأصل في الأمر الوجوب، ولا صارف له هنا يصرفه عن الوجوب، فالآية حكمها باق، واستئذان المذكورين في الأوقات الثلاثة واجب ما وجدت العلة، وهي خوف كشف العورات، وقد كان الناس بالأمس القريب في هذه البلاد ليس لهم على الغرف داخل قصور الطين أبواب، وإنما الأبواب على الأسوار الخارجية، وهذا الأمر ما زال موجودًا الآن في بعض البلاد فمتى وجدت العلة وهي خوف كشف العورات ومفاجأة المدخول عليه وهو في حال لا يحب أن يراه عليها أحد كأن يكون مع أهله، أو متخففًا من بعض الثياب، ونحو ذلك، ففي هذه الحال يجب الاستئذان، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

أما إذا كانت هناك أبواب مغلقة فإن من أراد الدخول لا بد أن يستأذن بطرق الباب أيًا كان هذا المستأذن لكون الباب مغلقًا مقفلاً.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر في قوله ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ للاستحباب؛ لأنه من باب الآداب وليس للوجوب، وقيل: إن هذا الحكم منسوخ، أو لفترة معينة ثم انتهى العمل به، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، والصحيح القول الأول [٣].

وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- بسند صحيح أنه قال: « كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٥، والترمذي في الأدب ٢٧٩٦، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨١. وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند «إسناده صحيح» ٢٤٩٣.

(٢) انظر: «فتح البارى» باب ما يذكر في الفخذ ١/ ٤٧٨.

(٣) انظر: « المحرر الوجيز » ٤/ ١٩٤

يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط عليهم الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أُمروا به »[1].

وهذا من ابن عباس- رضي الله عنه- لا يدل على نسخ هذا الحكم وترك العمل به كلية وإنما يدل على بقائه عند الحاجة إلى الاستئذان.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ليس عليكم أيها الأولياء ولا عليهم يعني المماليك والأطفال.

﴿جُنَاحٌ﴾، أي: حرج وإثم، وأصل الجُناح: الميل؛ سمي بذلك لأنه يميل بالإنسان كما يميل الجَناح بالطائر.

﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعد أوقات العورات الثلاث في دخولهم عليكم بلا استئذان.

ومفهوم الآية أن أولياء المماليك والأطفال يأثمون إذا دخل عليهم مماليكهم وأطفالهم في الأوقات الثلاثة المذكورة بلا استئذان، إذا كان ذلك بسبب تفريط من الأولياء في تعليمهم وتربيتهم، وأن الداخلين من المماليك والأطفال أيضًا يأثمون.

ولا إشكال في إثم المملوك البالغ؛ لأنه مكلف وقد ترك الاستئذان وهو واجب عليه.

أما الصبيان فلا إثم عليهم لعدم التكليف، ودلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، فيخرج منها الصبيان لعموم الأدلة على عدم تكليفهم، وإنما يلحق الحرج والإثم أولياءهم إن فرطوا في تربيتهم وتأديبهم على الاستئذان.

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لقوله قبل هذا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: ليس عليكم ولا عليهم جناح في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون عليكم.

وطوافون: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم طوافون، أو خدمكم طوافون.

ومعنى «طوافون عليكم» مترددون عليكم للخدمة، ولو ألزموا بالاستئذان

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩٢، وذكره ابن كثير في « تفسيره » ٦/ ٨٩- ٩٠ من رواية ابن أبي حاتم وصحح إسناده وحسن إسناده الألباني.

عليكم دائمًا لكان في ذلك مشقة عليهم وعليكم.

وقد رفع الله عز وجل الحرج عن هذه الأمة فرخص عز وجل في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة رفعًا للمشقة. ومن قواعد هذه الشريعة المطهرة أن المشقة تجلب التيسير.

والطائف والطوّاف: المتردد، ومنه سُمي الطواف بالبيت؛ لأن الطائف يتردد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧، ١٨]، وقوله ﷺ في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»[1].

﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله «طوافون عليكم»، فهي مؤكدة لقوله «طوافون عليكم»،

والمعنى: كما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم أنتم تطوفون عليهم تنادونهم وتبحثون عنهم ليقوموا بحوائجكم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «الكاف» اسم بمعنى «مثل» في محل نصب على أنه مفعول مطلق، والإشارة بقوله «ذلك» ترجع إلى مصدر الفعل «يبين» والتقدير: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات، ومعنى «يبين» يفصّل ويوضح. وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية، وقد بين الله ذلك كله أتم بيان:

قال عز وجل في بيان الآيات الشرعية آيات القرآن الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٦- ١٩]، وقال عز وجل ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]، وقال عز وجل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

وسُميت الآيات الشرعية آيات؛ لما فيها من الدلالة على أن القرآن الكريم من عند

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة- سؤر الهرة ٧٥، والنسائي في الطهارة- سؤر الهرة ٦٨، والترمذي في الطهارة ما جاء في سؤر الهرة ٩٢، وابن ماجه في الطهارة- الوضوء بسؤر الهرة ٣٦٧، وأحمد ٥/ ٢٩٦، من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه- قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» ١/ ٥٣- ٥٤: «صححه البخاري والترمذي والعقيلي والدارقطني. وأعله ابن منده» وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣: «وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم». وصححه الألباني.

الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

والدلالة على صدق من جاء بها من عند الله. ولكونها صالحة لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة.

كما بين عز وجل آياته الكونية فبدت ظاهرة واضحة بينة في جميع مخلوقاته في السموات والأرض وما بينهما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٢- ٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]، وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧]، وقال عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس:٣٧- ٣٩].

وهكذا كل ما خلق الله عز وجل من المخلوقات في هذا الكون علويه وسفليه من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك كل ذلك من آيات الله عز وجل الكونية الدالة على وجوده وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قيل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

وبهذا البيان للآيات الشرعية والكونية تظهر عناية الله عز وجل بالخلق ونعمته ومنته عليهم، كما تقوم بذلك عليهم الحجة، كما يظهر بذلك كمال الدين الإسلامي

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

ورقيه، وأن ما شرعه الله عز وجل من الشرع صالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، فيه ضمان السعادة للبشرية في دينها ودنياها وأخراها، مما لا يستطيع البشر مهما بلغت أنظمتهم أن يأتوا بمثله.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وعلم الله عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، فيما خلق، وفيما شرع، وفيما قدر.

وباجتماع العلم الواسع المحيط بكل شيء، والحكم التام والحكمة البالغة في حقه عز وجل، جاءت أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، على أكمل الوجوه وأتمها، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

ولله المثل الأعلى، قل أن تجد في الناس من جمع الله له بين العلم والحكمة، فأكثرهم حرم العلم أو الحكمة، أو حرمهما معًا، فتجده يتخبط في الأحكام إما بسبب جهله، وإما بسبب سفهه، وإما بسببهما معًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، «الأطفال» أي الذين أُمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون.

﴿ٱلْحُلُمَ﴾ سن الاحتلام والبلوغ.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، أي: فليستأذنوا وجوبًا.

﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما استأذن الذين من قبلهم من البالغين والذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور:٢٧]، وكما استأذن الذين من قبلهم ممن بلغوا مبلغ الرجال قبلهم.

وقال هنا: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ بتوجيه الأمر إليهم؛ لبلوغهم، وقال في الآية قبلها: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ بتوجيه الخطاب إلى الأولياء؛ لأن الأطفال غير مخاطبين(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في الآية السابقة.

وفي الآية دليل على وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهليهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات.

وقد رُوي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: « أَستأذِن على أمي؟ قال: «نعم» قال: إنه ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها؟ قال: «أتحب أن تراها عُريانة ؟ قال: لا، قال: إذنْ فاستأذِن عليها »(٢).

وقد قال ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»(٣).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس، أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، في بيت واحد؟ قال: «نعم، أتحب أن تراها عريانة»(٤).

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم»(٥).

وهذا محمول على تنبيه القادم لأهله بقدومه ودخوله، لا على الاستئذان المعروف.

ومثله ما رُوى عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنها- قالت:

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الجامع ١٧٩٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤- مرسلاً من حديث عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ- الحديث.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٢.

«كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنه- قال: « إني آمر جاريتي تستأذن عليّ»(٢).

قالوا: المراد زوجته، وهذا لا ينافي ما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك »(٣).

لأنه وإن كان هذا مباحًا ما بين الزوجين وما بين السيد وأمته في حال اجتماعهما وكونهما معًا لكن لا ينبغي أن يفاجئ أحدهما الآخر بالدخول عليه؛ لأنه قد يكون على حالٍ لا يحب أن يراه أحد وهو على تلك الحال، وكان ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، لكن لو زال المحذور باتصال هاتفي فلا بأس- فيما يظهر- والله أعلم.

وإذا وجب أن يستأذن البالغ عند الدخول على أهله من رجال ونساء فوجوب الاستئذان إذا دخل على غيرهم من باب أولى- كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ القواعد: جمع قاعد، وهي المرأة العجوز التي بلغت من الكبر عتيا، وقعدت عن الحيض والولد والزواج، فليس لها رغبة في الأزواج، ولا يُرغب بالزواج منها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾

وحذفت الهاء من مفرد «القواعد» فقيل «قاعد» للفرق بين قعود الكبر، والقعود بمعنى الجلوس، فيقال: قاعدة في بيتها(٤)، ويقال قاعد عن الحيض والولد والزواج.

و«ال» في القواعد اسم موصول، أي: اللاتي قعدن؛ ولهذا بينه بـ«من» البيانية في قوله: «من النساء».

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩١. وصححه الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠- من حديث معاوية بن حيدة القشيري- رضي الله عنه وحسنه الألباني.
(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٠٩.

﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ «اللاتي» صفة للقواعد، «لا يرجون»: «الواو» فيه واو الفعل، ونون النسوة فاعل.

والمعنى: لا يطمعن في النكاح لكبرهن، فلا هي ترغب في النكاح ولا يرغب بمثلها غالبًا.

و«نكاحًا» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: أنهن بلغن سنًا كبيرًا لا يطمعن في شيء من ذلك، والمراد بالنكاح: الزواج.

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾، أي: فليس عليهن حرج ولا إثم ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، «أن» والفعل في تأويل مصدر في محل جر، أي: في وضع ثيابهن، وليس المراد بهذا: التعري والتجرد من الثياب كلية، وإنما المراد به وضع بعض الثياب، وهي الثياب الظاهرة كالعباءة والجلباب والخمار[1]، بحيث تكتفي عند غير المحارم بالثياب التي تلبسها الشابة عند المحارم، وبهذا يكون غير المحارم بالنسبة للقواعد كالمحارم، فيجوز لهن كشف وجوههن[2]، ونحو ذلك، وذلك لزوال المفسدة الموجودة في غيرهن، وأمن الفتنة غالبًا، وهذا رخصة وليس بسنة؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾.

ويؤخذ من مفهوم الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على غير القواعد من الشابات وغيرهن[3].

﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ حال، أي: حال كونهن في وضع ثيابهن غير متبرجات بزينة، أي: غير مظهرات للزينة.

والتبرج بالزينة التكلف لإظهار الزينة، والباء في قوله: «بزينة» للتعدية، وقيل: بمعنى لام التعليل أي: لأجل الزينة، وإذا كان التبرج محرمًا على القواعد فتحريمه على غيرهن من باب أولى.

فبهذه الشروط الثلاثة وهي: كون المرأة قاعدًا عجوزًا كبيرة، وكونها لا ترجو

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩١

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٩- ٤٣٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤٥

(٣) انظر: «رسالتان في الحجاب» لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وفضيلة الشيخ محمد العثيمين- رحمهما الله- ص ٩، ٢٦

النكاح ولا تطمع فيه، وألاّ تقصد التبرج بالزينة في وضع ثيابها بهذه الشروط الثلاثة يجوز للقواعد وضع ثيابهن رخصة من الله عز وجل لهن، وتخفيفًا عنهن إذ لم يوجب عليهن ما أوجبه على غيرهن من التستر التام.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، وخبره ما بعده، أي: واستعفافهن خير لهن.

والاستعفاف: طلب العفة، وهي: طلب الكف عما يحرم ولا يحل، وعما لا يجمل كالقبيح والمكروه.

والمعنى: وترك وضعهن لثيابهن- وإن كان جائزًا- خير لهن وأفضل احتياطًا؛ لئلا يجر ذلك إلى فتنة، وكما قيل: لكل ساقطة لاقطة.

فإن خيفت الفتنة بسبب ذلك كان الاستعفاف واجبًا، فالسلامة لا يعدلها شيء، وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1]، وفيه: «ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»[2].

وكما يقال: «ابتعد عن العيب ذراعًا ونم».

ولهذا أمر الرسول ﷺ من سمع بالدجال أن ينأى عنه؛ لأن الرجل يأتيه وهو يرى أنه مؤمن ثم ما يزال يقذف به بالشبهة حتى يفتنه، أو حتى يرتد عن دينه[3].

وروي أن حفصة بنت سيرين- رحمها الله- كانت تتحجب وهي كبيرة، فدخل عليها بعض السلف فقال: يا أمة الله إن الله يقول: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، فقالت: أكمل الآية ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة رضي الله

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨- من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣١٩، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ منه، ثلاثًا يقولها، فإن الرجل يأتيه يتبعه وهو يحسب أنه صادق بما يبعث به من الشبهات».

عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]»(١).

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

فهو عز وجل سميع الدعاء سميع لجميع الأقوال والأصوات، عليم بجميع الأشياء من الظواهر والخفيات، وبما يحصل بالقلب من قصد التبرج، وغير ذلك، وفي هذا وعد ووعيد يوجب على العبد مراقبة الله فيما يقول، وفيما يفعل.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، وفي هذا حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- مسؤولية الأولياء من السادة والآباء وغيرهم تجاه مماليكهم وأطفالهم في وجوب توجيههم وتعليمهم أحكام الاستئذان وآدابه وغيرها وإلزامهم بذلك؛ لأن الله وجه الخطاب لهم فقال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ الآية.

٤- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ وسببه الكفر.

٥- شرف اليمين؛ لإضافة الملك إلى الأيمان في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾.

٦- إثبات الملكية الفردية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾.

وفي هذا الرد على الشيوعية الملحدة التي تمنع الملكية الفردية، وتجعل الناس شركاء في كل شيء حتى في النساء.

٧- أن من لم يبلغ الحلم ليس بمكلف ولا يوجه إليه الخطاب؛ لأن الله وجه الخطاب إلى الأولياء فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ الآية.

٨- وجوب إلزام المماليك والأطفال دون الحلم بالاستئذان في الأوقات الثلاثة

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

٩- جواز وضع الثياب والتخفف منها عند النوم والراحة.

١٠- الإشارة إلى أن الحكمة في أمر المماليك والأطفال بالاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خاصة أنها أوقات عورات، أي: أوقات انكشاف العورات وإظهار ما لا يحب الناس الاطلاع عليه من الأحوال والأقوال والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

١١- تحريم النظر إلى العورات، وأنه لا يجوز للأطفال المميزين ممن هم دون البلوغ النظر إلى عورة الرجل، كما لا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

١٢- أن أولياء المماليك والصبيان يأثمون إذا لم يعلِّموهم الاستئذان في هذه الأوقات ويلزموهم بذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ﴾.

فمفهوم هذا أن دخولهم بلا استئذان في الأوقات الثلاثة عليهم فيه جناح وإثم وهذا إذا فرطوا في تعليمهم وإلزامهم. كما أن المماليك البالغين يأثمون إذا دخلوا بلا استئذان في هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنهم مكلفون.

١٣- أن المشقة تجلب التيسير؛ لهذا رفع الحرج عن الناس في عدم إيجاب الاستئذان على المذكورين فيما عدا هذه الأوقات الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

كما أباح الله تعالى للقواعد من النساء وضع ثيابهن، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ﴾.

١٤- الإشارة إلى وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهليهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات؛ لأنه لم يستثن من ذلك إلا المماليك والأطفال دون البلوغ، ووجوب الاستئذان عند الدخول على غير أهلهم من باب أولى كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

١٥- اعتبار العلل في الأحكام، وأنه ينبغي للعالم أن يقرن الحكم بدليله وعلته فذلك

أبلغ؛ لقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٦- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان الأحكام والآيات الشرعية والكونية بيانًا شافيًا كافيًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فأكد هذا في موضعين هنا؛ لبيان كمال عنايته ونعمته ومنته.

١٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل وإثبات صفة الحكم التام لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي والجزائي، وإثبات الحكمة البالغة لله عز وجل بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد أكد هذا في موضعين من الآيات الكريمة.

١٨- وجوب الاستئذان على الأطفال عند بلوغهم الحلم كغيرهم من البالغين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٩- يجوز للقواعد من النساء اللاتي لا يطمعن في الزواج ولا يرغب فيهن وضع الثياب الظاهرة كالعباءة، والجلباب، والخمار غير مظهرات للزينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

٢٠- لا يجوز للقواعد وضع الثياب بقصد التبرج بالزينة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

٢١- أن استعفاف القواعد وعدم وضعهن لثيابهن خير لهن من وضعها، لما قد يترتب على وضعها من أمور لا تحمد عقباها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

٢٢- أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا تحقق وجود الفتنة للقواعد أو بهن إذا وضعن ثيابهن وجب عليهن عدم وضعها.

٢٣- إثبات تفاضل الإيمان والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

٢٤- يفهم من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على جميع النساء أمام الرجال الأجانب.

٢٥- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل وأنه يسمع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٢٦- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله عز وجل في جميع الأقوال والأعمال؛ لأنه سميع لأقوال العباد، عليم بأعمالهم وأحوالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يوعبون في النفير[1] مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[2].

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ «أعمى» على وزن «أفعل» صفة مشبهة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء:٧٢].

والأعمى: هو فاقد البصر. والحرج في اللغة: الضيق، والمراد به في الآية: الإثم والذنب.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج هو: الذي لا يمشي مشيًا مستقيمًا، لعلة في إحدى رجليه، أو كليهما.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض: من به علة، أي: من خرجت صحته عن الاعتدال، وقد قالوا في تعريف المرض: هو عبارة عن خروج البدن عن الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ.

وكرر نفي الحرج؛ لتأكيد نفيه عن جميع المذكورين، ورفع توهم تعلقه بصنف واحد،

---

(١) أي: يخرجون بأجمعهم في الغزو.

(٢) أخرجه البزار، انظر: «كشف الأستار» ٣/ ٦١. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٤: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح»، وقال السيوطي في «لباب النقول» ص١٦٠: «سنده صحيح»، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣١٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص١٥٢.

والمعنى ليس على هؤلاء الثلاثة حرج في ترك الجهاد، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧].

وذلك لضعفهم، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١، ٩٢].

ويؤيد هذا المعنى أن الله ذكر في الآية بعد هذه الآية أمر الاستئذان حال الجهاد.

وقيل: لا حرج عليهم في الأكل مع غيرهم من الأصحاء، وقيل: غير ذلك[(١)].

والصحيح: أنه لا حرج عليهم في ترك أي عمل تحول هذه الأعذار بينهم وبينه، أو تكون سببًا لنقصه أو الإخلال فيه من جهاد أو غير ذلك، وهذا من رحمة الله عز وجل وسماحة هذه الشريعة.

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ «الواو» عاطفة، و«لا» نافية وقوله «على أنفسكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، والمبتدأ مقدر تقديره: ولا حرج على أنفسكم.

﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر تقديره: ولا حرج على أنفسكم في أكلكم من بيوتكم.

وذكر الأكل من بيوتهم مع أن الأصل جواز أكل الإنسان من بيته إما توطئة وتمهيدًا لذكر ما بعده، أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت المذكورين كالأكل من بيوتهم، أو مراعاة لمعنى قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾، أي: أن تأكلوا من بيوتكم جميعًا أو أشتاتًا، أي: جماعة، أو متفرقين.

وقوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ يشمل بيوت المخاطبين وبيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم، يأكلون منها سواء رضي أولادهم أو لم يرضوا؛ ولهذا لم يذكر بيوت الأولاد[(٢)]، وفي الحديث: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٣، «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٤.

كسبكم»[١].

وقال ﷺ للذي اشتكى أباه وقال: يا رسول الله، إن أبي يريد أن يجتاح مالي. قال ﷺ: «اذهب أنت ومالك لأبيك»[٢].

فللوالدين الأكل من بيوت أولادهما، بل ولهما الأخذ من مال أولادهما بالمعروف.

وهذا بخلاف الأكل من بيوت المذكورين فإنه إنما يجوز إذا لم نعلم عدم رضاهم، فإن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ «أو» عاطفة هنا وفي المواضع التالية.

﴿ءَابَآئِكُمْ﴾، أي: الأدنى منهم، والأعلى، وهو الجد من أي جهة كان؛ لأن الله سماه أبًا قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الدنيا منهن، والعليا، وهي الجدة، من أي جهة كانت.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ من أي جهة كانوا، أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ من أي جهة كنّ شقيقات أو لأب أو لأم.

لكن إذا كانت الأخت متزوجة والبيت لزوجها، فليس لإخوتها الأكل عندها إلا بإذن زوجها.

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٥٠، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٠، وأحمد ٦/ ٣١، ٤٢- من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢٢٩١، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١/ ٢٣٠- باب بيان مشكل ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»، وفي «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨، والإسماعيلي في «معجم شيوخه» ٣/ ١٦٤- ترجمة رقم ٤٠٨- كلهم من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٤٩- ٤٤٥٢، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، والدارمي في البيوع ٢٥٣٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨، وقال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» ٥/ ١٨٣: «رجال إسناده ثقات»، وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٣/ ٣٣٧، قال ابن القطان: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني من حديث جابر- رضي الله عنه- انظر: «إرواء الغليل» حديث ٨٣٨.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ﴾ الأعمام إخوة الأب، وإخوة الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد.

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ العمات: أخوات الأب، وأخوات الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد فإن كانت العمة ذات زوج والبيت له لم يجز الأكل عندها إلا بإذن زوجها.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ الأخوال إخوة الأم، وإخوة الجدة، وإن علت، من أي جهة كانت الجدة.

﴿أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ الخالات أخوات الأم، وأخوات الجدة وإن علت، من أي جهة كانت الجدة، فإن كانت الخالة ذات زوج والبيت له لم يجز الأكل عندها إلا بإذنه.

قال ابن كثير[1] في كلامه على هذه الآية: «وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما».

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، أي: ما ملكتم مفاتحه من البيوت والخزائن، بأن كنتم أمناء عليه أو وكلاء عليه، مفاتيحه في أيديكم تتصرفون فيه.

ومفاتح: جمع مفتح، وهو ما تفتح به أغلاق الأبواب والخزائن والكنوز.

قال تعالى عن قارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦].

قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ «صديق»: بالإفراد اسم جنس، والصديق من صدقك في مودته وتصدقه في مودتك.

كما قال الشافعي[2] رحمه الله:

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق صدوق صادق الوعد منصفا

وكما قال الشاعر محمد بن عثيمين[3]:

أخ كان لي نعم المعين على التقى ... به تنجلي عني الهموم وتذهب

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٤، ٩٣

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٨٥.

(٣) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٤٨، «ديوان الشعر العربي على مر العصور» ٨/ ٩١.

فطورًا بأخبار الرسول وصحبه ... وطورًا بآداب تلذ وتعذب
على ذا مضى عمري كذاك وعمره ... صفيين لا نجفو ولا نتعتَّبُ
لكل اجتماع من خليلين فُرقة ... ولو بينهم قد طاب عيش ومشرب

والإنسان في حاجة- كما قال الشافعي رحمه الله- إلى صديق صدوق صادق الوعد منصفا، يكون عونًا له على أمور دينه ودنياه، ويبثه ما في نفسه ولا يخشى غوائله، إن أصابك ما أصابك من أمور الدنيا وهمومها خفف عليك المصاب بقوله الطيب الذي يدخل عليك السرور وانشراح الصدر ويهون عليك المصاب، وبفعله الحقيقي الذي يواسيك به، كما قال أبو العتاهية(١):

صديقي من يقاسمني همومي ... ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفو لي إذا ما غبت عنه ... وأرجوه لنائبة الزمان

لكن مثل هذا نادر جدا؛ ولهذا أفرد الصديق في قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ بينما جمع ما قبله، وكما في قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠، ١٠١] وفي هذا وذاك إشارة إلى ندرة الصديق حقاً، كما قال الشافعي(٢):

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ... ولكنهم في النائبات قليل

وقال الآخر:

أريد صديقًا أطمئن لديه ... ولي ربع قرن ما عثرت عليه

وقال الآخر:

أأنت أخي ما لم يكن لي حاجة ... فإن وجدت أيقنت أن لا أخا ليا(٣)

بل عده بعضهم من المستحيل فقال:

ولقد صحبت بني الزمان فلم أجد ... خلاً وفياً للشدائد أصطفي

(١) انظر: «ديوانه» ص ٤٢٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٩٩.

(٣) البيت لعبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. انظر: «الكامل» للمبرد ١/ ١٧٢، «طبقات المحدثين» للأصبهاني ١/ ٣٠٣، «تاريخ دمشق» ٣٣/ ٢٢٠.

فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... الغُول والعنقاء والخل الوفي(١)

وقال الآخر:

بحثت عن الصديق فلم أجده ... على التحقيق يوجد في الأنام

وأحسبه محالاً نمّقوه ... على وجه المجاز من الكلام(٢)

ولهذا فإن العاقل اللبيب من يحسن التعامل مع الآخرين من الأصدقاء وغيرهم، ويحسن الظن، ويجازي من أحسن إليه بالإحسان مضاعفاً، ويجازي المسيء بالإحسان ما استطاع ذلك، ويعرف أن الصديق حقًّا من كان عوناً لصديقه على أمر الدين والدنيا، فيختار من الأصدقاء من كان بهذه الصفة، وهم قليل، ولا يغتر بحلاوة ألسنة الكثيرين، ولا يعوِّل على أحد من الخلق أيًّا كان، فيتخلى عنه في أشد المواقف وأصعب الظروف، بل يكون تعويله واعتماده على ربه، فهو الذي مَن توكل عليه كفاه، فلا يخيب ولا يُضام ولا يُضار من توكل عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ «عليكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر ليس، و«جناح» اسمها، والجناح: الحرج والإثم.

﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: ليس عليكم حرج في أكلكم جميعًا أو أشتاتًا. و«جَمِيعًا» حال، أي: مجتمعين.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ جمع شتيت، أي: متفرقين.

قال الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا(٣)

والمعنى: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوت من ذكروا حال كونكم مجتمعين أو متفرقين. وكان من كرم بعض العرب أنه لا يأكل وحده.

كما قال حاتم الطائي(٤):

إذا ما صنعت الزاد فالتمسنْ له ... أكيلاً فإني لست آكلَه وحدي

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص ٥٩.

(٢) البيتان للناشئ الأكبر. انظر: «ديوانه» بمجلة المورد، العدد ١، ص٦٠.

(٣) البيت ورد في «ديوان قيس بن الملوح» ص١٢٢، وفي «ديوان ابن خفاجة» ص٢٣٧.

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٢٩٥.

فبين الله عز وجل جواز الأكل حال كونهم مجتمعين أو متفرقين، لكن الاجتماع على الأكل أفضل؛ لأنه سبب للألفة، وحصول البركة.

عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع؟ قال: «فلعلكم تفترقون». قالوا: نعم. قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»[(١)].

فيجوز الأكل من بيوت المذكورين بالمعروف بلا إذن، وإن لم نعلم رضاهم؛ لأن العرف والعادة رضاهم بذلك غالبًا، لما بينهم من صلة القرابة أو الائتمان والمعاملة، أو الصداقة كما إذا علمنا رضاهم، وفي هذا اعتبار العرف والعادة.

لكن إن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز، اللهم إلا في حال تقصير من تجب عليه النفقة فللمنفَق عليه أن يأكل من ماله بالمعروف وإن لم يعلم ولم يرضَ لقوله ﷺ لما قالت امرأة أبي سفيان: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[(٢)].

أما من عدا من ذكروا فلا يجوز الأكل من بيوتهم إلا بعد رضاهم كأولاد الإخوة وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال، والأقارب من جهة الرضاع وغيرهم.

ويؤخذ من الآية أهمية حقوق من ذكروا بعضهم على بعض، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما يؤخذ منها أن حق القرابة أعظم من حق الصديق؛ لتأخيره في الآية، ولهذا فإن من الجفاء وعدم الوفاء أن يَبَرَّ الرجل صديقه ويجفو أباه كما جاء في الحديث[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة- الاجتماع على الطعام ٣٧٦٤، وابن ماجه في الأطعمة- الاجتماع على الطعام ٣٢٨٦، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٤٦، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن- ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٢٢١٠- مطولاً من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء» وذكر منهن: «وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه»... الحديث، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ بيوتًا: نكرة، يعم جميع البيوت، ما كان للإنسان أو لغيره، مسكونة أو غير مسكونة، وكذا بيوت الله المساجد[١].

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإن كان في البيوت أحد فالسلام عليه بمثابة السلام على النفس؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد والنفس الواحدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، المعنى هنا: لا يقتل بعضكم بعضا.

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[٢].

فإن لم يكن في البيوت أحد قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[٣]؛ لأن هذا هو السلام الذي علم النبي ﷺ أمته أن يسلموا به على أنفسهم وعلى من كان غائبًا عنهم- كما في التشهد في الصلاة.

وإن كان من في البيت كفارًا قال: «السلام على من اتبع الهدى» كما في كتابه ﷺ لهرقل[٤].

وإن كان لا يدري أهم مسلمون أم كفار، وهو في بلاد الإسلام سلم عليهم بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله.

﴿تَحِيَّةً﴾ تحية: مصدر، أي تحيونها تحية؛ لأن معنى السلام: الدعاء بالبقاء والحياة والسلامة لمن يُسلم عليهم، ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أي: من لدنه عز وجل؛ لأنه سبحانه وتعالى هو المالك لها، فكأن المسلِّم يقول: أدعو الله لكم بالسلامة من عنده.

كما أنها من عنده عز وجل، هو الذي شرعها ويثيب عليها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٨٣- ٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٦٥٠- ٢٦٥١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣١٨، ٣١٩. «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٤.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٧٣، وأبو داود في الأدب ٥١٣٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧١٧- من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

﴿مُبَـٰرَكَةً﴾، أي: ذات بركة، والبركة الخير الكثير الثابت؛ لأنها طريق للتحابب والتآلف، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- : «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»(١).

﴿طَيِّبَةً﴾ بأن تكون خالصة لله عز وجل، وفق شرعه، مقبولة عنده عز وجل يثيب عليها، من الكلم الطيب المحبوب عند الله؛ لأنه لا يَقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان طيبًا صالحًا حسنًا، كما قال عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

وقال عز وجل في رد التحية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦].

وكما في التشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات...» (٢).

وطيبة أيضًا تطيب بها نفس المُسلِّم والمُسلَّمِ عليه، وتدخل المحبة والسرور على كل منهما.

ويؤخذ من الآية مشروعية السلام؛ لأن الله أمر به وهو من عنده عز وجل وفيه البركة والخير والعمل الطيب لما فيه من دعاء المسلمين بعضهم لبعض وإدخال المحبة والسرور فيما بينهم، لكن بما شرع الله من تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا أن يقول لمن لقيه: مرحبًا أو أهلاً وسهلاً، أو يقول في المكالمة الهاتفية «ألو» فهذا ليس من التحية المشروعة، لكن إن سلم بالتحية المشروعة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم أتبع ذلك بقوله: «مرحبًا» ونحو ذلك فلا بأس، وهكذا حصل من الأنبياء مع نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، وذلك ليلة الإسراء والمعراج، فكان ﷺ يسلم عليهم واحدًا واحدًا، ثم بعد ردهم السلام عليه يتبعون ذلك بقولهم: «

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٩٣، والترمذي في الاستئذان ٢٦٨٨، وابن ماجه في المقدمة ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح»[١].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات الشرعية والكونية، وقد تقدم الكلام على مثل هذا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «لعل» للتعليل، وقيل: للرجاء، أي لأجل أن تعقلوا، أو رجاء أن تعقلوا. والمراد بالعقل هنا: الفهم وحسن التصرف، وليس عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف والذي بفقده يُرفع التكليف، كما قال ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ»[٢].

بل المراد العقل الذي هو مناط المدح والذم؛ والذي هو الاستفادة من العقل والانتفاع به في حسن التصرف والأخذ بالنافع وترك الضار في أمور الدين والدنيا، وهو الذي أثنى الله به على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

وذم بفقده الكافرين في مواضع كثيرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤، ٧٦، آل عمران:٦٥، الأنعام:٣٢، الأعراف:١٦٩، يونس:١٦، هود:٥١، يوسف:١٠٩، الأنبياء:١٠، ٦٧، المؤمنون:٨٠، القصص:٦٠، الصافات:١٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- رفع الحرج والإثم عن الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد، وفي أي عمل لا يستطيعونه بسبب هذه الأعذار؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٢- مراعاة الشرع لأهل الأعذار ورفع المشقة عنهم فعذَرهم الله عز وجل عن الجهاد

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٣، ومسلم في الإيمان ١٦٢، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦- من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث عائشة- رضي الله عنها. وصححه الألباني.

وغيره مما لا يستطيعون القيام به، بل أعطاهم مثل أجر من يعمل ذلك إذا صدقت نياتهم، كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

٣- جواز الأكل من بيوت المذكورين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾.

والأكل من بيوت هؤلاء المذكورين يرجع إلى ثلاثة أسباب: قرابة، أو ائتمان، أو صداقة. والأكل من بيوتهم جائز، سواء علمنا رضاهم أو لم نعلم؛ لأن الغالب رضاهم. لكن لو علمنا عدم رضاهم لم يجز الأكل، إلا إذا كان الآكل ممن تجب عليهم نفقته.

٤- في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ توطئة لما بعده أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت من ذكروا بعد كالأكل من بيوتهم أنفسهم.

٥- لم يذكر عز وجل الأكل من بيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم.

٦- جواز الأكل من البيوت التي مفاتيحها عند الإنسان وهو مُوكَّل عليها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

٧- جواز الأكل من بيت الصديق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ﴾.

٨- أهمية حقوق المذكورين في الآية بعضهم على بعض، وبخاصة الأقارب، وأن حقهم أعظم من حق الصديق؛ لهذا قدَّمهم عليه في الذكر، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض.

٩- يجوز الأكل من بيوت من ذكروا سواء كان الآكلون مجتمعين، أو متفرقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾، وإن كان الأولى الأكل مجتمعين ففيه البركة كما دلت السنة على ذلك.

١٠- مشروعية السلام وفضيلته عند دخول البيوت سواء كانت للداخل أو لغيره مسكونة أو غير مسكونة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

١١- أن المسلمين كالجسد الواحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان وإيضاح الآيات الكونية والشرعية والعناية بذلك؛ لأجل أن يعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه ويتفكروا ويتدبروا في آياته، ويستدلوا بها على عظمته واستحقاقه للعبادة دون مَن سواه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن العاقل حقًّا من دله عقله إلى التأمل في آيات الله وتعظيم حقوقه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

لما ذكر الأمر بالاستئذان عمومًا عند دخول البيوت ذكر الأمر بالاستئذان عند الانصراف إذا كانوا على أمر جامع مع النبي ﷺ[1].

سبب النـزول:

رُوي أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق، الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة بلا كلل منهم ولا ملل، مع ما هم فيه من الخوف والجوع والبرد والتعب، وإذا أراد أحد منهم الانصراف استأذن النبي ﷺ بينما أخذ المنافقون يتثاقلون في العمل ويتسللون خفية[2].

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كاملو الإيمان المتصفون بالصفات المذكورة.

ويفهم من حصر الإيمان في أهل هذه الصفات أن من لم يتصف بها فليس بمؤمن، أو هو ناقص الإيمان؛ لأن معنى الحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

والإيمان في اللغة: التصديق، وشرعًا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه هي الصفة الأولى، والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ هو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ هذه هي الصفة الثانية أي: وإذا كانوا معه ﷺ على أمر جامع، أي: أمر عام وهام يستدعي اجتماع جميع المسلمين، كالجهاد، والمشورة ونشر سنة

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٥.

(٢) انظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المنثور» ٥/ ٦٠

في الدين، أو لترهيب عدو، وغير ذلك من الأمور المهمة التي يجتمع المسلمون لفعلها[١].

﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾، أي: لم ينصرفوا عما اجتمعوا عليه مع النبي ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، أي: إلى غاية أن يستأذنوه، أي: يطلبوا منه الإذن بالذهاب.

لما يؤدي إليه ذهابهم بلا استئذان من الفوضى والإخلال بالنظام، وكون ذلك يَفُتُّ في عضد الجماعة، ويضعف رأيها وقوتها، ويضر بمصالح الأمة.

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية[٢]:

«فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لايذهبون مذهبا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه».

وصدق ابن القيم رحمه الله قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحُجُرات:١] وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إن الذين يستأذنونك عند إرادتهم الانصراف والذهاب في حال الاجتماع على أمر جامع ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أشار إليهم بالإشارة للبعيد، إشارة إلى فضلهم ورفعة مكانتهم وعلو منزلتهم، فحصر الإيمان فيهم أولاً، وأكده فيهم ثانيًا بمؤكدات ثلاثة «إن» والإشارة «أولئك» وكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين تدل على الثبوت والدوام.

أي: أولئك الذين يؤمنون حقًّا بالله ورسوله.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ «الفاء» عاطفة، «إذا»» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا طلبوا منك الإذن لهم لبعض أمورهم.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: فأْذن للذي شئت منهم، ممن ترى قبول عذره، وحاجته للاستئذان. فجعله مخيرًا في الإذن لمن شاء منهم وعدمه، وذلك حسب المصلحة، فإذا كان الإذن لهم لا يضر بالمصلحة العامة وفيه مصلحة لهم تفوق مصلحة

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٢٠- ٣٢١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٥.

بقائهم، ولا يخشى إذا أذن لهم أن يكثر المستأذنون أذن لهم، وإلا فلا.

فلا يجوز الانصراف إلا لحاجة بعد إذن الرسول ﷺ، أو إذن ولي الأمر من بعده.

وفي أمره ﷺ بالإذن لمن شاء منهم، وكذا ولاة الأمر من بعده تيسير من الله عز وجل على الأمة.

وعلى من أذن له بعد الاستئذان قبل أن ينصرف أن يُتْبع الاستئذان بالسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»[1].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾، أي: اطلب من الله عز جل المغفرة لهم؛ لتطيب قلوبهم بالانصراف بلا حرج حيث تأدبوا بأدب الله عز وجل ولم يذهبوا حتى أذِنت لهم.

وطلبًا من الله التجاوز عما قد يكون في استئذانهم من التقصير، وتعويضاً عما يخاف أن يفوتهم من أجر هذا الاجتماع بحسب ما يكون من نقص في عذرهم.

أما من كان معذوراً وحال بينه وبين المشاركة في هذا الأمر الجامع العذر فله أجره كاملاً.

كما يدل قوله ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ على أن عدم الاستئذان والبقاء أولى.

كما يدل على الانتفاع بدعاء الغير، وهو محل إجماع قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: « يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي: رب أعرف، قال: فيقول:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- السلام إذا قام من المجلس ٥٢٠٨، والترمذي في أبواب الاستئذان- التسليم عند القيام والقعود ٢٧٠٦، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقال تعالى للجنة: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[٢] وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم:٥٠].

وهي قسمان: رحمة عامة لجميع المخلوقات الناطق والبهيم، والمؤمن والكافر.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وحيث قرن عز وجل بين وصف نفسه بالمغفرة والرحمة فيؤخذ من المغفرة التخلية وزوال المرهوب، ومن الرحمة التحلية وحصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

١- أن المؤمنين حقًا الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانًا كاملاً سمعًا وطاعةً وانقيادًا لأمر الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢- أن من صفات المؤمنين بالله ورسوله حقًا إذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر جامع لمصلحة الأمة لم ينصرفوا حتى يستأذنوه، وكذا حالهم مع ولاة أمر المسلمين بعده ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

٣- الإشارة إلى وجوب اجتماع كلمة المسلمين في القضايا التي تتعلق بمصالح الأمة كالجهاد والمشورة وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- التعريض بمن ينصرفون عند اجتماع المسلمين على أمر بلا استئذان من الرسول ﷺ أو أولي الأمر بعده.

٥- تأكيد الثناء على المؤمنين بالله ورسوله وأنهم لا ينصرفون إلا بعد إذنه ﷺ، وأن عدم انصرافهم إلا بعد الاستئذان يدل على قوة إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٦- أن الإذن لمن يريد الانصراف من المسلمين مفوّض له ﷺ فيأذن لمن شاء منهم، ويمنع من شاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: وامنع من شئت منهم- وذلك كله حسب المصلحة والأمر بعده ﷺ موكول لولاة أمر المسلمين.

٧- أن على ولي الأمر التيسير على من تحت ولايته مع مراعاة المصلحة العامة.

٨- أن الاستئذان بدون عذر لا يقبل.

٩- الاستغفار لمن استأذنوا بعد الإذن لهم بالانصراف لما عساه أن يلحقهم من نقص أو تقصير في العذر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن البقاء وعدم الاستئذان أولى.

١٠- الانتفاع بدعاء الغير واستغفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات صفة المغفرة التامة الواسعة لله عز وجل، وأنه يغفر لمن استغفر وتاب وأناب إليه، وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن الله عز وجل قدَّم المغفرة على الرحمة في الآية، فبالمغفرة يزول المرهوب، وبالرحمة يحصل المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

سبب النـزول:

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ، قال: فقالوا: يا نبي الله؛ يا رسول الله»[(١)].

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ «لا»: ناهية، و«دعاء»: مضاف إلى مفعوله، و الفاعل ضمير المخاطبين محذوف، والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول بينكم أي: نداءه بينكم.

﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، أو يا محمد بن عبد الله، أو يا أبا القاسم، أو نحو ذلك، كما ينادي بعضكم بعضًا بقوله: يا فلان بن فلان، بل ينبغي أن تنادوه بوصف النبوة والرسالة فتقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، مع خفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢][(٢)]، تكريمًا له ﷺ واحترامًا وتوقيرًا.

قال ابن القيم رحمه الله [(٣)]: «وإذا كان هذا في خطابه فكذلك لا ينبغي أن يجعل ما يدعى له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه».

ومن هنا يعلم خطأ ما يفعله كثير من الكتاب المتأثرين بالمستشرقين والغربيين من الاكتفاء بكتابة «محمد» في ذكر اسمه ﷺ وبكتابة: «ص» أو «صلعم» بدل: ﷺ.

ويحتمل أن المصدر «دعاء» مضاف إلى فاعله، أي: إلى الرسول، فيكون المعنى لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم كدعاء بعضكم بعضًا، إن شئتم أجبتم وإن شئتم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٦٥٤- «الأثر» ١٤٩٢٤، وانظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المنثور» ٥/ ٦١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٦.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

تركتم، بل إذا دعاكم الرسول ﷺ وجبت عليكم إجابته[1].

وعلى هذا فتكون الآية فيها الأمر بوجوب طاعة الرسول ﷺ والنهي عن معصيته، ويقوي هذا الاحتمال قوله بعد ذلك: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وإجابة دعوة الرسول ﷺ واجبة، حتى قال بعض أهل العلم: لو دعاه الرسول ﷺ وهو يصلي وجبت عليه إجابته[2].

لما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فلم يجبه، فقال له: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤][3].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً إذ لا تنافي بينهما فهي في تعليم الأدب مع الرسول ﷺ في خطابه وندائه، وفي وجوب إجابة أمره ودعائه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ «قد» للتحقيق، والمضارع هنا بمعنى الماضي، أي: علم الله الذين يتسللون منكم، وجاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه في المستقبل.

ومعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: يخرجون ويذهبون وينصرفون، ﴿لِوَاذًا﴾، أي: خفية، من لاذ بالشيء يلوذ به، أي: اختفى من ورائه، فهم عندما يريدون الانصراف يلوذ بعضهم ويتخفى في الآخرين، حتى لا يراهم الرسول ﷺ.

والمعنى: أن الله لا يخفى عليه الذين ينصرفون ويخرجون عما أجمع عليه المسلمون من الجهاد أو حفر الخندق أو غير ذلك وفي هذا وعيد وتهديد لهم بمجازاتهم على ذلك.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ «الفاء» رابطة لجواب شرط مقدر، و(اللام) لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد الفاء. والحذر: الاحتراز وأخذ الحيطة خشية وقوع المكروه.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٨٨- ٣٩٠، «بدائع التفسير» ٣/ ٣٧٥- ٣٧٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٨، والنسائي في الافتتاح ٩١٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٥.

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أي: يصدون أو يخرجون عن أمره مخالفين له، وجاء التعبير بـ«عن» في قوله «عن أمره» لتضمن الفعل (يخالفون) معنى: (يصدون) أو (يخرجون) فجمعوا بين المخالفة والصد والخروج.

وقيل: يخالفون أمره و«عن» زائدة للتوكيد.

والمعنى: يصدون ويخرجون عن منهجه وطريقته ويعصون أمره، فيتخذون طريقًا ومنهجًا غير طريقه، ومنهجه ويخالفونه في قوله وفعله.

قال ابن كثير رحمه الله[1]: «أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا ما كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ، أنه قال: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

وقوله ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يحتمل أن الضمير يرجع إلى الله عز وجل بدليل قوله قبل هذا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

ويحتمل أن يرجع إلى الرسول ﷺ؛ لقوله قبل هذا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

ولا مانع من حمله على المعنيين إذ لا منافاة بينهما. وأمر الرسول ﷺ من أمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يحذر».

والفتنة: الابتلاء والاختبار، والمراد من الفتنة هنا: الفتنة في الدين، قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، أي: الفتنة في قلوبهم من الشرك والزيغ والنفاق والبدع والمعاصي[3]، كما قال عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٧.

[الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥].

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»[1].

ففسر رحمه الله الفتنة بالشرك والصد عن سبيل الله؛ لأن الإنسان إذا رد بعض قول الله تعالى أو بعض قول الرسول ﷺ قد يكون ذلك سبباً لزيغ قلبه؛ لأن من عقوبة المعصية أن تجر إلى معصية أكبر منها، وهو- رحمه الله- يشير بهذا إلى معنى قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وغيرها من الآيات في هذا المعنى.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي: لا يخلو حال من خالف أمر الله ورسوله أن يصاب بالفتنة، أو بالعذاب الأليم، أو يصاب بهما جميعًا.

والعذاب: العقوبة والنكال.

أي: أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا؛ لأن العذاب ذكر في مقابل الفتنة فيكون عقوبة معجلة لهم في الدنيا بالقتل وغيره.

ويحتمل أن العذاب في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة.

و﴿أَلِيمٌ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم حسًا ومعنى.

وهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد يدل على وجوب امتثال أمر الله ورسوله وأن الأصل في أمر الله ورسوله الوجوب وهكذا استدل أهل العلم من الأصوليين وغيرهم بهذه الآية على أن الأصل في الأمر الوجوب.

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص ٥٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب احترام الرسول ﷺ وتعظيمه وتوقيره، ودعائه وندائه بوصف النبوة والرسالة: يا نبي الله، يا رسول الله، كما دعاه الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم، وعدم دعائه باسمه مجردًا؛ لأن الله تعالى نهى المؤمنين عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

٢- وجوب إجابة دعوة الرسول ﷺ إذا دعا أحدًا من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، أي: أن دعاء الرسول ونداءه يوجب على المدعو والمنادى الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

بخلاف دعاء الناس بعضهم بعضًا فهذا لا يوجب الإجابة مطلقًا.

٣- إثبات وتحقيق علم الله عز وجل بأولئك الذين يتسللون منصرفين خفية يلوذ بعضهم ببعضٍ من المنافقين ومرضى القلوب من غير إذنه ﷺ، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

٤- تحذير الذين يتسللون في الأمور الجامعة بدون عذر، ولا استئذان، ويفتُّون في عضد المسلمين.

٥- التحذير الشديد والوعيد الأكيد لمن يخالف أمر الرسول ﷺ من أن تصيبهم فتنة في الدين بالشرك والكفر والنفاق الاعتقادي، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- تعظيم مكانة الرسول ﷺ، وتعظيم أمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ لأن أمره ﷺ من أمر الله تعالى.

٧- أن الأصل في الأمر الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

بعد ما حذر عز وجل من خالف أمره وأمر رسوله ﷺ بالفتنة أو العذاب الأليم أتبع ذلك ببيان أن له وحده ملك السموات والأرض فلا يعجزه شيء، وأنه يعلم ما هم عليه ومرجعهم جميعًا إليه فينبئهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: «ألا» أداة استفتاح وتنبيه، و«إن» حرف توكيد ونصب، «لله» جار ومجرور خبرها مقدم، و«ما» اسم موصول، اسمها مؤخر، وقدّم الخبر؛ لإفادة الحصر، أي: إن لله عز وجل وحده ما في السموات والأرض.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد علم ما أنتم عليه أيها الناس في الماضي ويعلم ما أنتم عليه في المستقبل من امتثال أمر الله ورسوله أو مخالفة ذلك، وغير ذلك من أحوالكم في الدنيا حال العمل، فهو عالم بذلك كله مشاهد له، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الواو عاطفة، و«يوم» منصوب عطفًا على «ما» في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، وليس بظرف، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لتنبيه المخاطب، أي: ويعلم يوم يرجعون إليه، أي: ويعلم متى يرجعون إليه، ويعلم أحوالهم حين يرجعون إليه يوم القيامة حال الحساب والجزاء.

وفي هذا إثبات المعاد والحساب، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣].

فعلمه عز وجل محيط بأحوال الخلق في الدنيا والآخرة في الحاضر والمستقبل.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

أي: فيخبرهم بالذي عملوه من خير أو شر؛ لتقريرهم بأعمالهم على سبيل العرض فقط بالنسبة للمؤمنين، ثم يجازيهم بفضله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ لأن من نُوقش الحساب عُذب، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقش الحساب عُذب» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب عذب»[(١)].

ولهذا قال ﷺ «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(٢)].

وكما رُويَ في قصة الإسرائيلي الذي عَبَد الله خمس مئة سنة وأخرج الله له الرمَّانة كل يوم، ولما قال الله تعالى له: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي قال: بل بعملي. فقال الله عز وجل ردوا عبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمس مئة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، بل أدخلني الجنة برحمتك»[(٣)].

وأما الكفار فتعرض عليهم أعمالهم على وجه المناقشة والمعاتبة والتقرير والتقريع والتوبيخ والحساب العسير، ويجازيهم عز وجل بعدله السيئة بمثلها ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، أي: والله عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، من الأعمال والأقوال، وغير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: محيط به علمًا.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٠٣، ومسلم في الجنة- إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦، وأحمد ٦/ ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠ من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

الفوائد والأحكام:

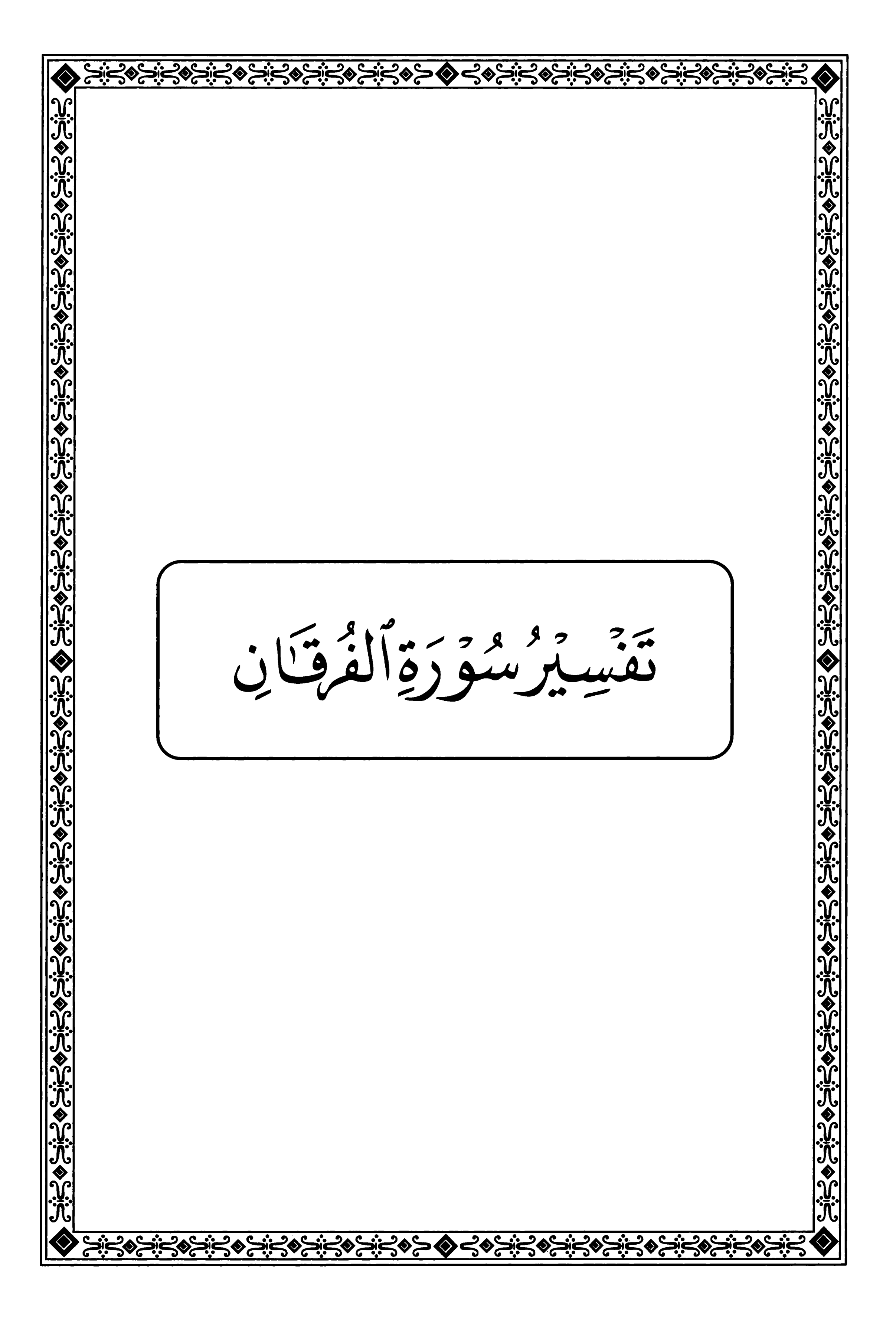
١- إثبات أن لله جميع ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- علم الله عز وجل التام بما عليه العباد من أعمال وأحوال، ومتى يرجعون إليه، وحالهم حين يرجعون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

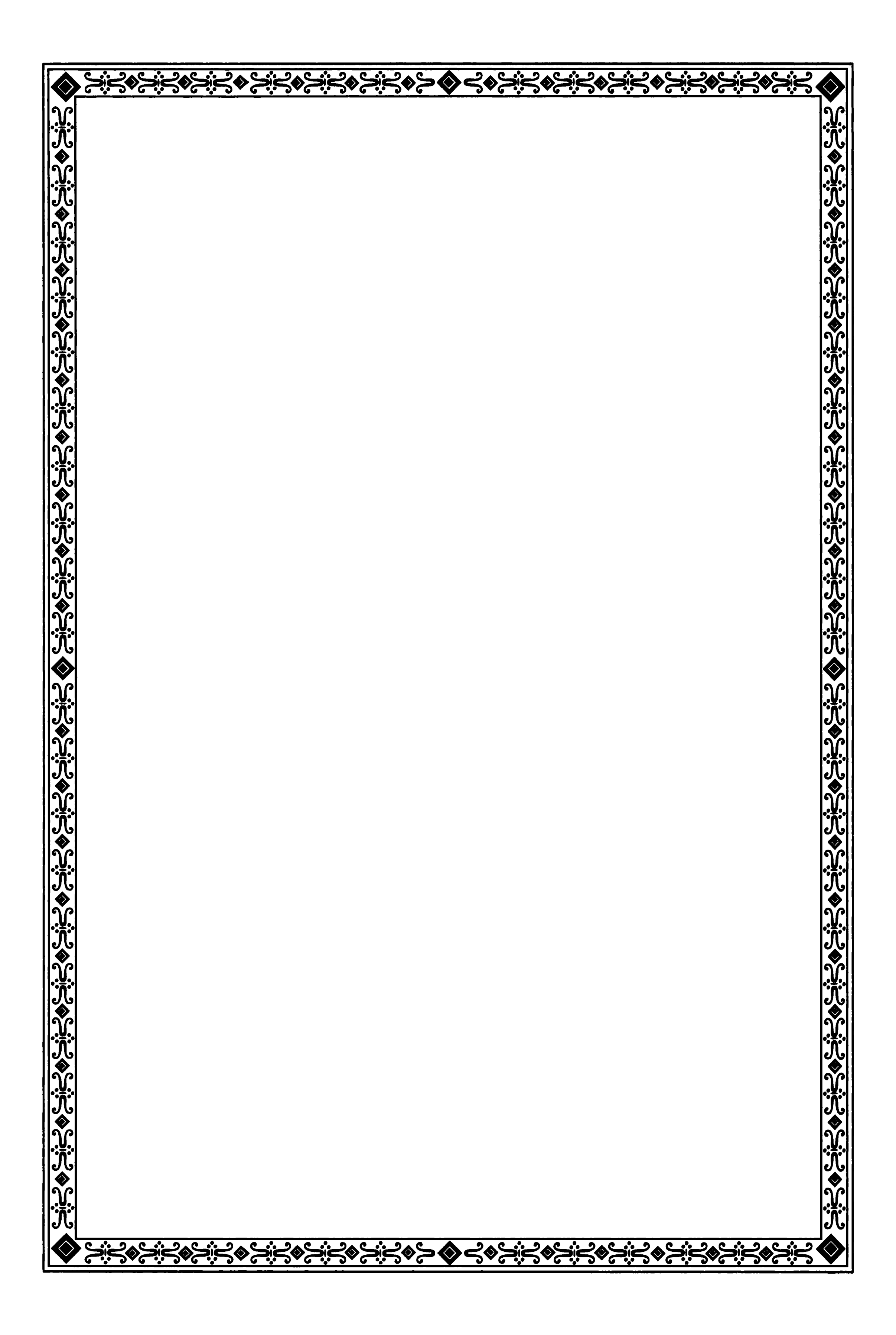
٣- إثبات المعاد، وأن مرجع الخلائق ومصيرهم إلى الله عز وجل فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

٤- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، وفي هذا حث على امتثال أمر الله ومراقبته، وتحذير من المخالفة.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡفُرۡقَانِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الفرقان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها...»[(١)].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الفرقان بذكر تعاليه عز وجل وتعاظمه، والثناء عليه بإنزاله الفرقان، واختصاصه بعموم ملك السموات والأرض، وتنزيهه عن الولد والشريك، وخلقه كل شيء وتقديره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

٢- ذم المشركين الكافرين في اتخاذهم آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشوراً، وزعمهم أنه ﷺ افترى القرآن وأعانه عليه غيره؛ ظلمًا منهم وزوراً، وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً، والرد عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- أنزل القرآن على سبعة أحرف ٤٩٩٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨١٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣.

٣- ذكر طعن المشركين في رسالته ﷺ لكونه بشراً وليس بملك، وإثارة الشبهات حوله بعد أن طعنوا في القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾.

٤- ذكر تكذيبهم بالساعة، والوعيد والتهديد لمن كذب بها بالسعير، وما لهم فيها من صنوف العذاب، وشتان بينها وبين جنة الخلد ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

٥- تبرؤ المشركين ومعبوداتهم بعضهم من بعض يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

٦- الرد على المشركين في طعنهم في رسالته ﷺ لكونه بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبيان أن الرسل كلهم بهذه الشاكلة عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

٧- جرأة المكذبين بلقاء الله- لشدة كفرهم واستكبارهم وعتوهم- على اقتراح إنزال ملائكة عليهم، أو رؤيتهم ربهم تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً، وتهديد المجرمين ووعيدهم يوم رؤيتهم الملائكة: أن لا بشرى لهم، وإحباط أعمالهم.

٨- التنويه والإشادة بمستقر أصحاب الجنة وحسن مقيلهم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٩- عظم أهوال يوم القيامة، ففيه تشقق السماء بالغمام، ونزول الملائكة، وظهور أن الملك كله لله، وعسر ذلك اليوم على الظالمين، وندمهم على مجانبة طريق الرسول

ﷺ، وعلى مخالتهم أولياء الشيطان، وإضلالهم لهم، وخذلان الشيطان لهم.

١٠- شكوى الرسول إلى ربه هجران قومه للقرآن، وعدم أخذهم بما فيه من الأوامر والنواهي، وتركهم له.

١١- حكمة الله الكونية في تسليطه على كل نبي عدواً من المجرمين، وكفى به عز وجل هاديًا ونصيراً.

١٢- اقتراح الذين كفروا- عنادًا منهم- إنزال القرآن جملة واحدة على النبي ﷺ، وبيانه عز وجل الحكمة في إنزاله عليه ﷺ مفرقًا؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ، وتوعده عز وجل وتهديده للمكذبين: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

١٣- ذكر شيء من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وإقامة الحجة عليهم وإهلاكهم كما كذبوا الرسل؛ ليعتبر بذلك المشركون المكذبون: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

١٤- تطاول المشركين الجاحدين على رسول الله ﷺ، واستهزاؤهم به، وتهديده عز وجل وتوعده لهم، وتسليته له ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

١٥- ذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى في الكون ونعمته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وقوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخًا وَحِجۡرًا مَّحۡجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

١٦- ذم المشركين وتسفيههم في عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وإنكارهم اسم الرحمن، وامتناعهم من السجود له، ونفورهم ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾.

١٧- بيان مهمته ﷺ وتسليته وتقوية قلبه تجاه المكذبين من قومه وأمره بالتوكل على الله وتسبيحه، فكفى به عز وجل بذنوب عباده خبيرا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

١٨- بيان صفات عباد الرحمن؛ ثناءً عليهم، وترغيبًا في الاتصاف بها، من التواضع ومسالمة الجاهلين، وقيام الليل، وسؤال ربهم صرف عذاب جهنم عنهم، وكون إنفاقهم قوامًا وسطًا بين الإسراف والتقتير، واجتنابهم الشرك بالله، وعدم قتلهم النفس المعصومة بغير حق، واجتنابهم الزنا وشهادة الزور، وإكرامهم أنفسهم عن اللغو، واتعاظهم بآيات ربهم، وسماعهم وتدبرهم لها، وسؤالهم ربهم أن يجعل لهم من ذرياتهم قرة أعين، ويجعلهم للمتقين إمامًا.

١٩- الوعيد والتهديد لمن أشرك بالله أو قتل النفس المعصومة، أو ارتكب فاحشة الزنا، والترغيب في التوبة: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده لعباده المتصفين بها ذكر بعظيم الثواب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

٢١- وعيد الكافرين المكذبين بلزوم العذاب لهم بعد إقامة الحجة عليهم وكفرهم وتكذيبهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ② وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ③ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ②﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعاظم وكملت صفاته، وكثر خيره، وعمت بركته.

وفي هذا بيان وإخبار، وثناء على نفسه بعظمته وكمال صفاته وكثرة خيره وبركته؛ لأن البركة نوعان: بركة تضاف إليه عز وجل إضافة العزة والرحمة، ويوصف بها فيقال: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهي مختصة به[1]، وصف عز وجل بها نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ؛ كما قال ﷺ: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[2].

وهي دالة على كمال بركته وعظمتها وسعتها.

وبركة: هي فعله، يبارك ما شاء، وعلى من شاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٣٠٠، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما يقال بعد التسليم ٩٢٨، وأحمد ٥٢٧٥؛ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى في ثنائه على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: الذي نزل القرآن، وهو الله عز وجل، أي: نزل القرآن مفرقًا شيئًا فشيئًا، وسمي القرآن بـ«الفرقان»؛ لأنه الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، والسعادة والشقاوة؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل، وغير ذلك. ومن لازم كونه فارقًا بين الحق والباطل أن يكون بيِّنًا واضحًا في نفسه، كما وصفه الله عز وجل في مواضع كثيرة.

وقيل: لأنه نزل مفرقًا، ولم ينزل جملة واحدة؛ كما اقترح المشركون المكذبون، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فكان وصفه بالفرقان في أول السورة كالتوطئة والتمهيد لما يأتي بعد من ذكر اقتراح المكذبين والرد عليهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

فأخبر عز وجل عن بركته، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وأثنى على نفسه بتنزيل القرآن الذي هو من أعظم بركاته وأعم خيراته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، أي: على عبده ونبيه ورسوله محمد ﷺ، ووصفه بوصف العبودية دون وصف النبوة والرسالة؛ لأن أشرف صفة يتصف بها البشر هي العبودية لله تعالى؛ ولهذا وصفه بها في أشرف أحواله؛ في مقام القرب من ربه عز وجل ليلة الإسراء، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في مقام دعائه إياه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾

[الجن: ١٩].

ووصفه بها هنا عند إنزال الكتاب عليه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(١)].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يكون للعالمين من الإنس والجن كلهم نذيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»، وذكر منها: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[(٢)].

وفي رواية: «بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود»[(٣)].

ومعنى ﴿نَذِيرًا﴾، أي: منذرًا ومحذرًا لهم من عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة؛ كما قال ﷺ: «**أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء**»[(٤)].

ومن لازم النذارة تبليغ ما أرسل به مما يكون الأخذ به سببًا للنجاة، ومن مقتضى ذلك البشارة بالنجاة لمن أخذ بهذا السبب واتبع النذير.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿الَّذِي﴾: بدل من الموصول السابق، أو عطف بيان، أو نعت له، أي: الـمَلِك والمالك العظيم الذي له ملك السموات والأرض وجميع ما فيهما من المخلوقات العلوية والسفلية، المتفرد بذلك كله؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أي: ولم يجعل له ولدًا؛ لكمال غناه عن الخلق، وعدم حاجته إلى الولد.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، أي: ولم يكن له شريك في هذا الملك العظيم؛ لكمال عظمته عز وجل، وسعة علمه واطلاعه وقدرته على كل شيء، وتمام غناه عن الشريك

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٤٥، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجها أحمد ١٢٥٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

والظهير؛ كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: وأوجد كل شيء في هذا الكون.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: قدر كل شيء خلقه، أي: سوّاه مقدرًا ﴿تَقْدِيرًا﴾، أي: تقديرًا دقيقًا يناسبه ويصلحه كما اقتضته حكمته عز وجل، بلا تفاوت ولا خلل؛ لتمام قدرته وعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾:

لما بين عظمته وكمال صفاته، وكثرة خيره وإحسانه، ومن أعظم ذلك تنزيله القرآن على محمد ﷺ؛ مما فيه إثبات التوحيد والنبوة، أتبعه بذكر البراهين على ذلك، وبيان ضلال المخالفين لذلك، وإبطال عبادة من سوى الله.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾، أي: واتخذ المشركون، أي: جعلوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: غير الله ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: معبودات عبدوها من الأصنام والأوثان.

وسموا آلهة بحسب اعتقادهم الباطل.

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾، الجملة في محل نصب صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يخلقون أيّ شيء، مهما صغر أو قَلَّ بسبب عجزهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾

[الحج:٧٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»[1].

﴿وَهُمْ﴾، يعني: هؤلاء الآلهة ﴿يُخْلَقُونَ﴾، أي: وهم مخلوقون مربوبون لله تعالى، فكيف يُسوَّوْن بالخالق العظيم؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: ولا يملك هؤلاء المعبودون من دون الله لأنفسهم ﴿ضَرًّا﴾ يدفعونه عنها، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يجلبونه لها، وإذا كانوا لا يملكون ذلك لأنفسهم، فكيف يملكونه لعابديهم؟!

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾، قدّم قوله: ﴿مَوْتًا﴾- والله أعلم- لمناسبة ومقابلة قوله: ﴿ضَرًّا﴾، أو لأن الموت- وهو العدم- كان أولًا.

أي: ولا يملكون ولا يستطيعون إماتة أحد أو إحيائه، ولا نشره وبعثه بعد موته، بل الذي يملك ذلك كله هو الله تعالى وحده؛ فهو الذي يحيي ويميت، ويعيد الخلائق يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣].

وإذا كان هؤلاء الآلهة من دون الله بهذا الضعف، فكيف يتخذهم المشركون من دون الله آلهة؟! هذا من أعجب العجب! وأول دليل على سفههم ونقص عقولهم، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢١١١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾.

لما قرر صحة التوحيد والنبوة، وضلال من اتخذوا من دون الله آلهة؛ شرع في إبطال قول من قدح في الرسالة والقرآن.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، والإشارة إلى القرآن، أي: ما هذا الذي جاء به محمد ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كذب بيِّن ظاهر اختلقه وتقوله محمد من عند نفسه.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾، أي: وساعده وظاهره على اختلاقه وجمعه قوم آخرون، من اليهود أو غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾، بهذا القول وهذا الزعم الباطل ﴿ظُلۡمٗا﴾، أي: ظلمًا عظيمًا، ﴿وَزُورٗا﴾، أي: كذبًا شنيعًا، بكفرهم وشركهم، وتكذيبهم القرآن والرسول ﷺ، والكذب عليه.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: وقال الذين كفروا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: هذا القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، «الأساطير» جمع أسطورة، أي: أقاصيص الأولين وحكاياتهم وأحاديثهم المسطرة في كتبهم مما لا أصل له.

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾، أي: استنسخها محمد، أي: أمر غيره بأن يكتبها وينسخها له؛ لأنهم يعلمون أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، أي: تقرأ عليه أول النهار وآخره.

﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد ردًّا عليهم، وتكذيبًا لقولهم:

﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: أنزل هذا القرآن العظيم، المشتمل على أخبار الأولين والآخرين، وعلى كل شيء، الذي يعلم السر والغيب في السموات والأرض، وعلمه بالجهر والشهادة من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى:

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

أي: أنزله الذي أحاط علمه بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع دلالة هذا الكتاب العظيم على كمال علمه عز وجل وحكمته: إشارة إلى أنه لا يمكن لأحد أن يتقول عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: إنه كان ذا مغفرة واسعة لذنوب عباده، وذا رحمة واسعة وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه.

الفوائد والأحكام:

١- بيان عظمته عز وجل، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وعموم بركته، وأن من أعظم ذلك تنزيله القرآن على محمد ﷺ، وثناؤه عز وجل على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

٢- إثبات وصفه عز وجل بهذا الوصف ﴿تَبَارَكَ﴾ الدال على عظيم صفاته، وكثرة خيراته، لوصفه عز وجل نفسه بذلك، ووصف الرسول ﷺ له بذلك.

٣- أن البركة إنما تكون فيما باركه الله، أو بارك فيه، أو عليه، فلا تطلب من غير الله تعالى.

٤- إثبات نبوته ﷺ بوحي الله تعالى إليه، وإنزال القرآن عليه.

٥- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وفي هذا ردٌّ على القدرية القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٧- أن من أسماء القرآن الكريم: «الفرقان»؛ لأنه بيِّن واضح، وفيه بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة.

٨- أن أشرف ما يتصف به البشر هو العبودية لله تعالى؛ لأن الله عز وجل وصف بها نبيه ﷺ في حال إنزال القرآن عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: على نبيه أو رسوله.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن الحكمة من تنزيل القرآن الكريم على النبي ﷺ: لينذر به العالمين، ويخوفهم عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومن لازم هذا تبليغهم ما أمر الله به وما نهى عنه؛ ليمتثلوا ذلك، وثمرة ذلك: البشارة بالنجاة من المرهوب، وحصول المطلوب.

١٠- عموم رسالته ﷺ للإنس والجن كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

١١- بيان سعة ملكه عز وجل، وكمال تصرفه، وتفرده بملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- تنزيه نفسه عز وجل عن الولد والشريك؛ لكمال عظمته وقوته، وقدرته على كل شيء، وغناه عن الولد والشريك والظهير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

١٣- تفرده عز وجل بالخلق، وخلقه كل شيء وتسويته، وتقديره تقديرًا دقيقًا على ما يناسبه ويصلحه، وكما اقتضته حكمته، بلا نقص ولا خلل ولا تفاوت؛ لتمام قدرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

١٤- ذم المشركين، وتسفيه عقولهم، وبيان ضلالهم في عبادتهم من دون الله آلهة لا يخلقون أي شيء بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم دفع ضر أو جلب نفع، ولا يملكون إماتة أحد، ولا إحياءه، ولا بعثه بعد الموت، ولا غير ذلك، بل

هم مربوبون لله تعالى، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

١٥- تكذيب الكفار بالقرآن، وزعمهم أنه إفك وكذب بيّن ظاهر، واتهامهم له ﷺ باختلاقه وتقوله، واستعانته على ذلك بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

١٦- ارتكابهم في تكذيبهم القرآن أعظم كتب الله وأصدقها، وفي اتهامهم الرسول ﷺ أفضل رسل الله وأصدقهم بافترائه أعظم الظلم والزور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

١٧- جرأتهم على وصف القرآن بأساطير الأولين وحكاياتهم وخرافاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

١٨- زعمهم أن الرسول ﷺ اكتتبها واستنسخها، وهم يعلمون أنهم كاذبون؛ لعلمهم أنه لا يكتب.

١٩- إثبات أن القرآن منزل من عند الله عز وجل، الذي يعلم السر في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٠- إحاطة علمه عز وجل بالغيب والشهادة، والسر والجهر، في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعلمه بالشهادة والجهر من باب أولى.

٢١- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل ؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب المغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

٢٢- الوعد للتائبين بالنجاة من المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر طعنهم في القرآن وتكذيبهم له، أتبع ذلك بذكر طعنهم في الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، الاستفهام للاستهزاء والتهكم، أي: ما لهذا الذي يزعم أنه رسول، أو يدعي الرسالة ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ مثلنا، ويحتاج إلى الطعام كما نحتاج إليه.

﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: ويسير في الأسواق، ويتردد فيها مثلنا طلبًا للتكسب والتجارة ولقمة العيش.

وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولًا، وهذا زعم باطل، أبطله الله تعالى ورده بقوله بعد هذا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا رعى الغنم**». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**نعم؛ كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[(١)].

---

(١) سبق تخريجه.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ «لولا» للتحضيض، أي: هلا أنزل إليه ملك من الملائكة الذين لا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق، يشهد على صدق رسالته، ويكون معه نذيرًا للناس. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: ٨].

وكما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣].

﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ من السماء ﴿كَنزٌ﴾، أي: مال كثير مجموع من غير تعب منه، ويستغني به عن المشي في الأسواق، وطلب الكسب، ويكون دليلًا على صدقه؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: ١٢].

﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾، أي: بستان فيه أنواع الثمار.

﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون: «نَأۡكُلُ مِنۡهَا»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾.

أي: تغنيه عن المشي في الأسواق وطلب الكسب، وتدل على صدقه.

و«أو» في هذا الموضع والذي قبله: عاطفة، تفيد التدرج من الأشد إلى ما هو أيسر منه.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، بالكفر والشرك وتكذيب القرآن والرسول ﷺ مخاطبين المؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما تتبعون في تصديقكم محمدًا فيما جاء به.

﴿إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجلًا قد سُحر، فاختل عقله. وهم يعلمون حقيقة كذبهم؛ لعلمهم بتمام عقله.

وفي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وليشمل الوصف بالظلم كل من قال مثل قولهم.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ الاستفهام للتعجب والإنكار، أي: انظر وتأمل وتعجب يا محمد ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾، أي: كيف شبهوك

ووصفوك بالأوصاف الباطلة، بأنك مسحور، أو ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، وغير ذلك.

أو كيف ضربوا لك الأمثال في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾، والأول أظهر. والأمثال: الأشباه والأوصاف.

﴿فَضَلُّواْ﴾ الفاء عاطفة وتفيد السببية، أي: فضلوا عن طريق الحق والهدى، وعن الرشد والصواب، بسبب ما وصفوك به من الأوصاف الباطلة.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يجدون طريقًا إلى الحق بسبب ضلالهم، ولا يستطيعون سبيلًا للنيل منك، ولا من رسالتك ودعوتك.

﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم الله وكثر خيره، ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾، أي: خيرًا من ذلك الذي اقترحوه بقولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، ثم فسر هذا الخير بقوله:

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، «جنات» بدل من «خيرًا» منصوب، وتفسير له، أي: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع اللام: «وَيَجْعَلُ» على الاستئناف، وقرأ الباقون بجزمها: ﴿وَيَجْعَلْ﴾، وهو معطوف على جواب الشرط: ﴿جَعَلَ﴾.

أي: ويجعل لك قصورًا، أي: بيوتًا مشيدة مبنية من الحجارة.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: إنما يقول هؤلاء ما يقولون ويقترحون، ويضربون لك من الأمثال ما يضربون، تكذيبًا وعنادًا؛ لتكذيبهم بالساعة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وليس ذلك منهم استرشادًا أو طلبًا للحق.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا.

﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾، أي: لكل من كذب بالساعة ﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا

مستعرة متوقدة شديدة الحرارة.

وأظهر هنا في موضع الإضمار فلم يقل: وأعتدنا لهم؛ لبيان علة توعدهم بهذا الوعيد، وهو تكذيبهم بالساعة، وليشملهم هم وغيرهم ممن كذب بالساعة.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، أي: إذا رأت هذه النار المستعرة هؤلاء المكذبين بالساعة في مقام الحشر.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾، التغيظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، أي: سمعوا لها غيظًا وغضبًا شديدًا وحنقًا عليهم.

﴿وَزَفِيرًا﴾، أي: صوتًا شديدًا من شدة الغيظ والحنق عليهم؛ ولهذا سمعوه من مكان بعيد، فكيف إذا قربوا منها وأُلقوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧- ٨]، أي: تكاد تَقَطَّع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ والغضب.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، قرأ ابن كثير بسكون الياء: ﴿ضَيْقًا﴾.

وقرأ الباقون بكسرها وتشديدها: ﴿ضَيِّقًا﴾.

﴿أُلْقُوا۟ مِنْهَا﴾، أي: طرحوا، ﴿مَكَانًا﴾، ظرف مكان منصوب على الظرفية، أو بنزع الخافض، أي: في مكان ضيق.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، حال، أي: حال كونهم مقرنين، أي: مكتفين مصفدين، قد قرنت وجمعت أيديهم بالسلاسل والأغلال إلى أعناقهم، وقرن بعضهم إلى بعض.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ [إبراهيم: ٤٩].

والمقرَّن: المقرون، وصيغة التفعيل فيه للإشارة إلى شدة القرن.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾، أي: دعوا في ذلك الموقف الشديد الخطير.

﴿ثُبُورًا﴾، أي: ويلًا وهلاكًا، أي: نادوا على أنفسهم بالثبور والويل والهلاك والحسرة والخسران والخيبة، والخزي والفضيحة؛ يدعون وينادون على أنفسهم بقولهم: واثبورنا! واهلاكنا! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠

فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١﴾ [الانشقاق: ١٠- ١١]، وكما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ هذا توبيخ وتبكيت لهم، وعذاب معنوي لقلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي للأجساد، أي: أنكم مهما دعوتم وناديتم على أنفسكم بذلك، لن ينفعكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾.

لما ذكر عذاب الظالمين المكذبين، بيَّن ما بَيْنَه وبَينَ ما أعد للمتقين في جنة الخلد من الثواب والنعيم المقيم، من البون الشاسع، والفرق الواسع.

قوله: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، والهمزة للاستفهام التقريعي، والإشارة إلى ما أعده الله وأرصده لمن كذب بالساعة من السعير، وتغيظها عليهم وزفيرها، وإلقائهم في أماكن ضيقة منها مقرنين، وندائهم على أنفسهم بالويل والثبور، أي: أذلك المذكور خير.

﴿أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾، «أم» حرف عطف، وهي المتصلة، و﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: أم جنة الخلود والمكث الدائم في النعيم المقيم؟!

والمفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة؛ لأن النار شر محض لا خير فيها مطلقًا.

﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾، أي: التي وعدها الله عز وجل عباده المتقين، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ﴾، أي: ثوابًا على تقواهم.

﴿وَمَصِيرٗا﴾، أي: ومآلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها.

﴿لَّهُمۡ فِيهَا﴾، أي: لهم خاصة في جنة الخلد ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، أي: الذين يشاؤون ويشتهون من ألوان النعيم وأصنافه، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والأزواج والمراكب والمناظر وغير ذلك، ولهم من الله المزيد على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧][(١)].

وأعلى ذلك وأجله وأعظمه: التمتع برؤية وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضوانه.

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾، أي: ماكثين فيها ومقيمين إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

﴿كَانَ﴾، أي: كان وعد المتقين بجنة الخلد، وكونها لهم جزاء ومصيرًا، ومنحهم فيها ما يشاؤون من النعيم، وخلودهم فيها.

﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾، أي: وعدًا عليه حقًّا منجزًا واجبًا، لا بد أن يقع وأن يكون؛ لأنه لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١]، أي: لا أحد أوفى بعهده منه عز وجل.

وهو أيضًا ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ عنه، فيسأل المتقون ربهم بلسان حالهم ومقالهم أن ينجز لهم ما وعدهم.

الفوائد والأحكام:

١- طعن المشركين والمكذبين في رسالته ﷺ، بحجة أنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لطلب الكسب؛ كسائر البشر، وليس بملك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٢- أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم من البشر، وإنما اختصهم الله من بين البشر بالوحي إليهم؛ ليبلغوا رسالاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ

(١) سبق تخريجه.

إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٣- تنقّص المكذبين له ﷺ بعدم كفايته وحده للإنذار، وتحمّل الرسالة، واقتراحهم أنه هلا أنزل معه ملك؛ ليكون نذيرًا معه، ومصدقًا له؛ لقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة، وإيمان المشركين بذلك.

٥- اقتراحهم أن لو يلقى إليه كنز من السماء ينفق منه، أو تكون له جنة يأكل منها؛ ليستغني بهما عن المشي في الأسواق لطلب الكسب، ويُستدل بهما على صدقه؛ لقولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾.

٦- سعي هؤلاء المشركين الظالمين في التحذير من اتباعه ﷺ، برميه بأنه رجل مسحور مغلوب على عقله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، وهذا ديدن أعداء الرسل، وأعداء الحق ودعاته في كل زمان ومكان.

٧- أمر الله تعالى له بالنظر والتأمل والتعجب، كيف ضربوا له الأمثال، ووصفوه بأقبح الأوصاف، للتنفير منه ومن دعوته، والتحذير من اتباعه، فقالوا: مسحور، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون، وقالوا غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾.

٨- بيان ضلالهم وحيرتهم، فلم يجدوا سبيلًا للنيل منه ﷺ ومن دعوته، ولم يجدوا طريقًا يهتدون به إلى الحق؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

٩- إثبات عظمته عز وجل وبركته وكثرة خيره، وأنه لو شاء جعل له ﷺ خيرًا مما اقترحوه، من أن يلقى إليه كنز؛ أو تكون له جنة يأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾.

وقال ﷺ: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا. وقال ثلاثًا أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٤٥، وأحمد ٥٢٥٤؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الترمذي:

وخيّر ﷺ بين أن يكون رسولًا ملكًا، وبين أن يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا[1].

١٠- حكمة الله عز وجل البالغة بحبس الدنيا عن أنبيائه ورسله، لما كانت في غاية الحقارة، وجعلهم وسيدهم محمدًا ﷺ كغيرهم من البشر يمشون في الأسواق، ويسعون في طلب المعاش.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء كان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾.

١٢- أن الذي حمل هؤلاء على اقتراح ما اقترحوه، وعلى ضرب هذه الأمثال له ﷺ؛ ليس الاسترشاد أو طلب الحق، وإنما هو العناد وتكذيبهم بالساعة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾

١٣- الوعيد والتهديد لمن كذب بالساعة بالنار المستعرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

١٤- أن النار موجودة الآن معدة مرصدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ الآية.

١٥- شدة تغيظ النار وزفيرها عند رؤية المكذبين من بعيد قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

١٦- دعاؤهم على أنفسهم بالويل والثبور عند إلقائهم فيها في أماكن ضيقة مقرنين ومكتفين بالأغلال والسلاسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

١٧- تبكيتهم وتيئيسهم من أن ينفعهم دعاؤهم بالثبور ذلك اليوم مهما كثر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

١٨- لا مقارنة ولا مقاربة بين ما أعده الله للمكذبين من السعير، وما فيها من أصناف العذاب الشديد، وبين ما أعده بفضله ورحمته من جنة الخلد للمتقين جزاء لهم

«حديث حسن».

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومآلًا، وما لهم فيها مما يشاؤون من أصناف النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾.

كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾ [الصافات: ٤٠- ٦٢].

١٩- عظم نعيم أهل الجنة وتنوعه كما يشاؤون ويشتهون، وعدم انقطاعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

٢٠- تكفله عز وجل بما وعد به المتقين من جنة الخلد والجزاء العظيم، والمآل الكريم، وما لهم فيها من النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾، أي: لا بد من حصوله لهم.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٢- الترغيب بتقوى الله تعالى لما أعد الله للمتقين من الجنة وألوان النعيم، والتحذير من التكذيب بالحق، لما أعده الله للمكذبين من السعير والعذاب الأليم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وحفص بالياء: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «نَحْشُرُهُمْ».

أي: واذكر يوم يحشرهم، أي: يوم يجمع الله المشركين المكذبين في الموقف العظيم يوم القيامة ويناقشهم الحساب.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل نصب عطفًا على الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: والذي يعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾؛ الاستفهام للتقريع، أي: فيقول مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم من دون الله:

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾، أي: هل أنتم دعوتموهم وأمرتموهم

بعبادتكم وسعيتم في إضلالهم؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام، أي: بل أهم ضلوا السبيل، أي: تنكبوا الطريق من تلقاء أنفسهم.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك وتقديسًا وتعظيمًا.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء: «نُتَّخَذَ»، وقرأ الباقون بفتح النون وكسر الخاء: ﴿نَّتَّخِذَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل على قراءة أبي جعفر ومن معه، أي: ما كان لائقًا بنا أن نُتخذ، أي: أن نُجعل من دونك أولياء؛ فإنا عبيدك، فقراء إليك.

وعلى قراءة الباقين يكون المصدر في محل رفع فاعل، أي: ما كان يليق بنا ولا يجوز لنا اتخاذ أولياء نعبدهم ونواليهم ﴿مِن دُونِكَ﴾، أي: غيرك، أي: لا ولي لنا ولا لجميع الخلائق سواك.

أي: أننا ما دعوناهم إلى ما هم فيه من الضلال، ولا أمرناهم بعبادتنا، وما كان لائقًا بنا نحن أن نتخذ من دونك من أولياء، فكيف نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء من دونك؛ كما قال عيسى جوابًا لقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦]، قال عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

لما تبرؤوا من أن يكونوا اتخذوا بأنفسهم أولياء من دونه، أو يكونوا أضلوا غيرهم

بدعوتهم إلى اتخاذ آلهة من دونه، ذكروا سبب ضلال هؤلاء المشركين، وهو ما متعوا به هم وآباؤهم من النعم.

قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾، أي: ولكن ضلوا من تلقاء أنفسهم بسبب انشغالهم بما متعتهم به وآباءهم من النعم ولذات الدنيا وشهواتها.

﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾، الذي أنزلته على ألسنة رسلك، وغفلوا وأعرضوا عنه بسبب ذلك.

﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾، «بورًا» جمع بائر، أي: هالك خاسر، أي: وكانوا قومًا هالكين خاسرين لا خير فيهم. قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، أي: دار الهلاك والخسران والخيبة.

قال ابن الزبعرى حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الـ ... ـغي ومن مال ميله مثبور(١)

فكان سبب ضلالهم أمرين:

الأول: انشغالهم بمتاع الدنيا ولذاتها وشهواتها.

والثاني: عدم وجود المقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾، الفاء: استئنافية، و«قد» حرف تحقيق، والضمير الواو في «كذبوكم» يعود إلى المعبودين من دون الله، والخطاب فيه يعود إلى العابدين، أي: فقد كذبكم أيها المشركون هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾.

روي عن قنبل: «يقولون» بالياء على الغيبة، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تقولونه، أو بقولكم: أنهم آلهة وشركاء لله، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، أو أنهم أمروكم بعبادتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٦٦٩، «سيرة ابن هشام» ٢/ ٤١٩، «أسد الغابة» ٣/ ٢٣٩.

يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾، قرأ حفص بتاء الخطاب: ﴿تَسۡتَطِيعُونَ﴾، أي: فما تستطيعون صرفًا، أي: دفعًا للعذاب عنكم بأنفسكم، ولا نصرًا لها من خارج عنكم. وقرأ الباقون بياء الغيبة: «يستطيعون»، أي: فما يستطيع هؤلاء المعبودون صرفًا للعذاب عنكم، ولا نصرًا لكم، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٥- ٢٦].

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾، بالشرك والكفر، وترك الحق بعد معرفته ظلمًا وعنادًا.

﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾، أي: عذابًا عظيمًا في النار، لا يقدر قدر كبره وعظمته إلا من وصفه بذلك؛ وهو الكبير المتعال.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ۝٢٠﴾:

هذا رد على المشركين المكذبين في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧].

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾، «إلا» أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ للتوكيد.

أي: إلا أنهم كغيرهم من البشر يحتاجون لأكل الطعام ليتغذوا به، وإلى المشي في الأسواق للتكسب والتجارة وطلب المعاش، وليس ذلك بمناف ولا قادح في رسالاتهم، فكيف يتعجب المشركون المكذبون من قومك من كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق؟ وهل كان جميع الرسل إلا بشرًا مثلك، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]،

أي: فما جعلناهم ملائكة.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا، أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، وهذا عام في جميع الخلق، ابتلى الله بعضهم ببعض، فابتلى الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلى الحق، والصبر على أذاهم وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم، أم يكفرون بهم ويقاتلونهم؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك**»[1].

وابتلى المؤمنين بالكافرين، وامتحن الكافرين بالمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩- ١١١].

وابتلى السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء؛ كما ابتلى الأتباع والضعفاء والفقراء بالسادة والأقوياء والأغنياء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وكما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

كما امتحن العلماء بالجهال: هل يعلمونهم وينصحون لهم ويصبرون على ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء: هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وامتحن الآمرين بالمعروف

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار ٢٨٦٥، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

بالمأمورين، والمأمورين بالآمرين، وهكذا[(١)]؛ ولهذا قال:

﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾، أي: أتصبرون على ما ابتلاكم الله وامتحن به بعضكم ببعض، فيؤدي كل منكم ما عليه من حقوق، وتطيعوا الله، ولا تعصوه، أم لا تصبرون؟

وفي هذا تسلية له ﷺ وللمؤمنين، وعدة جميلة، فلا يضيق صدره، فالصبر جميل وعاقبته حميدة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن القيم: «قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر ها هنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة من الذنوب؛ كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها»[(٢)].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾، أي: وكان ربك يا محمد بصيرًا، أي: ذا بصر وعلم واسع، واطلاع تام، يعلم من هو أهل للرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضله، ممن لا يستحق ذلك، فيضله بعدله، ويعلم أعمالهم فيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٠.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٩٠).

هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: وقال الكافرون المكذبون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا بلقاء الله تعالى، ولا بوعده ووعيده، ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه، قالوا تعنتًا وعنادًا، وجرأة على الله تعالى:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، «لولا» حرف تحضيض، أي: هلا أنزل علينا الملائكة بالرسالة، أي: هلا أرسل إلينا رسولًا من الملائكة؟

ويحتمل أن المعنى: هلا أنزل علينا الملائكة تشهد لك بالرسالة؟ كما في قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وكما في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وهم في هذا كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، فتكون رؤيتنا له علامة على صدقك، أو فيخبرنا بأنك رسوله إلينا.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، والسين والتاء للمبالغة، أي: والله لقد بالغوا في التكبر في أنفسهم.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، أي: تجاوزا الحد في الطغيان والظلم والعناد والمكابرة، ولهذا اجترؤوا هذه الجرأة العظيمة، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هم سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤيا تسوؤهم، وأول ذلك عند الاحتضار، فتبشرهم بالنار، وغضب الجبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: ٥٠- ٥١].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «**ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده**» الحديث(١).

ثم في القبر؛ كما في حديث البراء المذكور: «**فيأتيه ملكان، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه**».

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة؛ فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**»(٢).

ثم يوم القيامة؛ حيث تسوقهم الملائكة إلى النار، ويتولى خزنتها تعذيبهم فيها، ففي كل هذه المواقف سيرون الملائكة رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم.

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإن الملائكة تبشرهم في جميع المواقف بما يسرهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه المتقدم: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «**اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان،**

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٧٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٠، وأبو داود في السنة ٤٧٥١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥٠، ٢٠٥١.

ورب غير غضبان».

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، «حجرًا» مفعول مطلق لفعل محذوف، ﴿مَّحْجُورًا﴾، نعت لحجر منصوب، وهو مؤكد للمعنى، وجملة ﴿حِجْرًا﴾ في محل نصب مقول القول، و«الحجر»: المنع، ومنه سمي «الحِجْر» عند البيت؛ لأنه يُمنع الطواف به، وسمي «العقل» حِجْرًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنه يمنع صاحبه من فعل ما لا يليق أو قوله.

أي: وتقول الملائكة للمجرمين: حرام محرم عليكم البشرى والفلاح ودخول الجنة، وقيل: وتقول الملائكة عوذًا معاذًا.

وقيل: ذلك من كلام المشركين؛ يتعوذون من الملائكة.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾، «ما» موصولة، و«من» بيانية، أي: وقصدنا وعمدنا إلى الذي عملوه من أي عمل كان، وأتينا عليه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾، أي: فصيرناه ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، «الهباء»: ما يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة، مما لا يمكن قبضه، وهو أتفه الأشياء وأحقرها.

والمعنى: فجعلناه باطلًا مضمحلًا زائلًا، لا قيمة له، لفقده الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع، وهذا كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٨﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾.

لما توعد الكافرين المجرمين بالعذاب وبإحباط أعمالهم؛ أتبع ذلك بوعد أهل الجنة المؤمنين بأنهم خير مستقرًّا وأحسن مقيلًا.

قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، أي: أهلها وساكنوها وملازموها؛ وهم المؤمنون.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، أي: خير مستقرًّا من أهل النار، و«المستقر»: مكان الاستقرار والمكث؛ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: وأحسن مقيلًا من أهل النار، و«المقيل»: مكان القيلولة والراحة والمنزل والمأوى.

فمستقرهم خير من مستقر أهل النار، ومقيلهم أحسن من مقيل أهل النار؛ لما في الجنة من ألوان النعيم والعيش الكريم، ولما في النار من أصناف العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿وَأَحْسَنُ﴾ هنا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات حشر الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٢- أن المشركين يحشرون هم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣- خطاب الله عز وجل للمعبودين وسؤاله إياهم؛ تقريعًا لعابديهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾.

٤- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾.

٥- تنزيه المعبودين لله تعالى، وتقديسهم إياه، وأنه ما كان لهم اتخاذ أولياء من دون الله بأنفسهم، أو الدعوة بأن يتخذوا أولياء من دون الله، أو الرضا بذلك؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٦- بيانهم أن سبب ضلال هؤلاء المشركين: انغماسهم فيما متعوا به من نعم الدنيا وملذاتها وشهواتها، ونسيانهم الذكر، وإعراضهم عنه، وغفلتهم؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾.

٧- أن من نسي ذكر الله تعالى وغفل عنه وأعرض؛ فمآله البوار والهلاك والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾.

٨- تبكيت المشركين بتكذيب معبوديهم لهم بما يقولون ويزعمون أنهم شركاء مع الله، وأنهم يقربونهم إليه زلفى، وأنهم أمروهم بعبادتهم فأضلوهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

٩- عدم استطاعتهم صرف العذاب عنهم بأنفسهم، ولا الانتصار بغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

١٠- تهديد الظالمين المعاندين، ووعيدهم بالعذاب الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

١١- الرد على المكذبين الطاعنين في رسالته ﷺ بكونه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ بأن هذه حال وصفة المرسلين كلهم قبله، وفي هذا دفاع عنه ﷺ، وتسلية له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

١٢- أن الله جعل الناس بعضهم لبعض فتنة وابتلاء وامتحانًا، فامتحن المرسَل إليهم بالرسل، وامتحن الرسل بالمرسَل إليهم، وامتحن السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء، وبالعكس، وامتحن المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

١٣- أن الحكمة من ابتلاء الناس وامتحان بعضهم ببعض؛ ليتميز ويظهر من يصبر، فيطيع الله ولا يعصيه، ويؤدي ما عليه من حقوق لله تعالى وللخلق، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾.

١٤- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه التام؛ وعلمه بمن هو أهل للرسالة، وبمن يستحق الهداية ممن ليس كذلك، وعلمه بأعمال العباد ومجازاتهم عليها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

١٥- جرأة المكذبين بالبعث ولقاء الله تعالى على الله تعالى، وشدة عنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

١٦- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، وقوله:

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾.

١٨- شدة استكبارهم، وكبر عتوهم وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾.

١٩- أن الاستكبار والعناد من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله، فيجب الحذر من ذلك.

٢٠- أن المكذبين والمجرمين سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم، وذلك عند الاحتضار، وفي القبر، ويوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

٢١- حرمانهم من البشرى والفلاح والجنة، ومن كل خير، وتأكيد ذلك؛ لقول الملائكة لهم: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

٢٢- إحباط جميع أعمالهم، وعدم انتفاعهم بأي شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾.

٢٣- أن العمل لا يقبل بدون الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع.

٢٤- شتان بين مستقر أهل الجنة ومقيلهم في جنات النعيم، وبين مستقر أهل النار ومقيلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

٢٥- أخذ بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾: أن الله عز وجل يحاسب الخلائق في نصف النهار الأول ضحوة، وفي آخره يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾:

قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الشين: ﴿تَشَقَّقُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «تَشَّقَّقُ».

أي: واذكر يوم القيامة ذلك اليوم العظيم، يوم تشقق السماء بالغمام، وهو السحاب الأبيض الرقيق، وتتفطر وتتفتح؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾، قرأ ابن كثير: «وَنُنزِلُ المَلَائِكَةَ» بنونين: الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، مع تخفيف الزاي، ورفع اللام، ونصب الملائكة.

وقرأ الباقون بنون واحدة مضمومة، وتشديد الزاي، وفتح اللام ورفع الملائكة: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: ونزل الملائكة من السماء، فيحيطون بالخلائق في أرض المحشر، ثم يجيء الرب

تبارك وتعالى لفصل القضاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٥-١٧].

﴿ٱلْمُلْكُ﴾، أي: الملك كله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾، أي: الحق الثابت للرحمن وحده، لا يشاركه فيه أحد من الخلق.

كما قال تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

وليس معنى هذا: أنه كان له شريكٌ في الملك قبل ذلك؛ لأن الملك له عز وجل وحده من قبل ومن بعد، في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]،، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وإنما معناه أنه يظهر في ذلك اليوم تمام الظهور، ويتبين ويتضح تفرده وحده عز وجل بالملك، حين تزول ملوك الأرض، وتتهاوى ممالك الجبابرة.

كما قال ﷺ: «**يطوي الله السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[(١)].

وفي إضافة الملك لاسم الرحمن طمأنة للنفوس، وشرح للصدور؛ بأن رحمته عز وجل سبقت غضبه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، نكَّر «يومًا» للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]،،وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٤-١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٨، وأبو داود في السنة، الرد على الجهمية ٤٧٣٢، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وفي الزهد ٤٢٧٥، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

والمعنى: وكان هذا اليوم العظيم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، أي: شديدًا صعبًا ثقيلًا طويلًا عليهم؛ لأنه يوم عدل، وقضاء فصل؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩- ١٠].

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإنه يسيرٌ خفيف عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(١).

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «**كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل:** ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾، **قال:** ﴿ٱلظَّالِمُ﴾: **عقبة، و**﴿فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾: **أبي بن خلف**»(٢).

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾، أي: واذكر يوم القيامة العظيم، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، والعض: الشد بالأسنان من حيث الأصل، ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ بالشرك والكفر وتكذيب الرسل، والمعاصي، ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، أي: على أصابع يديه؛ تأسفًا وتحسرًا وندمًا، ولات ساعة مندم.

﴿يَقُولُ﴾ متمنيًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾، قال رؤبة بن العجاج(٣):

---

(١) أخرجه أحمد ٣٧٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٤٠.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٧١.

ليت وهل ينفع شيئًا ليتُ　　ليتَ شبابًا بُوعَ فاشتريتُ

وقال أبو العتاهية(١):

ألا ليت الشباب يعود يومًا　　فأخبره بما فعل المشيب

وفي المثل: «التمني: رأس مال المفاليس»، والياء في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ للتنبيه.

﴿ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، أي: ليتني جعلت مع الرسول طريقًا إلى الجنة بالإيمان به وتصديقه واتباعه، وهيهات ذلك.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾، نداء على نفسه بالويل والهلاك.

﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾، أي: يا ليتني لم أجعل فلانًا؛ يعني: الذي أضله وصرفه عن الحق من شياطين الإنس أو الجن، ويسميه باسمه.

﴿خَلِيلٗا﴾، أي: صديقًا وحبيبًا وصفيًّا، والخلة أعلى أنواع المحبة، فالخليل الذي بلغت محبته غايتها، وتخللت نياط القلب، كما قال بشار بن برد(٢):

قَد تَخَلَّلْتَ مسلكَ الرُّوح مني　　وبذا سُمِّي الخليلُ خليلا

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، تعليل للتمني السابق، واللام لام القسم لقسمٍ مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

وهو بهذا القسم والتأكيد يلوم نفسه بعد فوات الأوان، مما يزيده حسرة، أي: والله لقد أضلني هذا الخليل عن القرآن وما جاءت به الرسل من الحق بعد بلوغه إليَّ، بتزيينه لي ما هو عليه من الضلال، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وسواء كان سبب نزول هذه الآية عقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، أو غير ذلك، فإنها عامة، فكل ظالم إذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ٢/ ٤٧٥.

ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

قال ابن القيم: «فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول؛ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول»[1].

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾، أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزهده فيه، ويزيّن له الباطل، ويدعوه إليه، ويَعِده الأماني الباطلة، ويخدعه بغروره، ويتبرأ منه.

وهذا من كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾، من كلام الإنسان الظالم. والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: وقال الرسول محمد ﷺ المعهود في الأذهان، مناديًا ربه عز وجل، وشاكيًا لربه إعراض قومه كفار قريش عما جاءهم به، ومتأسفًا على حصول ذلك منهم.

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، أي: جعلوه مهجورًا، فأعرضوا عنه وهجروه وتركوه ولم يتدبروه، بل كذبوه وعارضوه، وتواصوا بعدم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢.

سماعه، وباللغو واللغط عندما يتلى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

وهجر القرآن يكون بهجر تلاوته، وعدم تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه وأخباره، وهجر العمل به، وترك تحكيمه واتباعه.

قال ابن القيم: «هجر القرآن أنواع؛ **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصّل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا دخَلَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾.

هذا فيه تسلية للنبي ﷺ تجاه عداوة من عاداه من قومه، وأذيتهم له، وهجرهم للقرآن، وتكذيبهم به، ومعارضتهم له، وصدهم عنه.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ الكاف للتشبيه، أي: مثل ما كذبك يا محمد المشركون من قومك وعادوك وآذوك، وهجروا القرآن الذي جئتهم به؛ كذلك جعلنا كونًا وقدرًا لكل نبي من الأنبياء قبلك عدوًّا من المجرمين يكذبونه ويؤذونه ويعارضون ما جاءهم به.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢- ٢٩٣.

مُّقۡتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٣].

والحكمة من ذلك: ليتبين الحق ويظهر، ويعلو على الباطل؛ لأن معارضة الباطل للحق تزيد الحق وضوحًا وظهورًا، وعلوًّا وتألقًا؛ كما أن فيه ابتلاءً لأهل الحق، وتمحيصًا لهم، كما قال أحدهم:

عِداي لهم فضل عليَّ ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا[1]

وقال أبو تمام[2]:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عَرْف العود

والمراد بذكر عداوة المجرمين للأنبياء من قبله ﷺ تسليته وتقوية قلبه وإلهامه الصبر، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾، أي: وكفى بربك يا محمد هاديًا لك ولمن شاء من عباده، يهدي من يشاء بفضله.

﴿وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾ لك ولمن اتبعك من المؤمنين، فاستكف به وتوكل عليه، يكفك كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٢- ٣٤].

هذا من جملة اقتراحاتهم الباطلة، واعتراضاتهم وعنادهم؛ كما في قولهم قبل هذا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١].

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾، أي: هلّا نزل عليه، أي: على محمد

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. انظر: «ديوانه» ص٢٤٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ١/ ٣٩٧.

ﷺ ﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: من غير تفريق؛ كما نزلت الكتب قبله: التوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم عز وجل بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ اللام للتعليل، أي: كذلك نزلناه عليك مفرقًا منجمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والأحداث، وما يُحتاج إليه من الأحكام؛ لأجل تثبيت قلبك وتقويته، وتيسير حفظه وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، أي: قرأناه عليك مرتلًا ترتيلًا، في تَثَبُّت وتَرَسُّل، بعضُه يعقب بعضًا، وبيناه تبيينًا تامًّا، وأمرنا بقراءته مرتلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وأي محذور في نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله مفرقًا منجمًا أكمل وأحسن وأبلغ؛ لما فيه من معالجة الوقائع حال حدوثها، وهذا أشد تثبيتًا للقلوب، وطمأنة للنفوس.

قال ابن كثير[(١)]: «ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحًا ومساءً، وليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أعظم نبي أرسله الله».

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: ولا يأتيك هؤلاء المكذبون للقرآن، المعاندون لك ﴿بِمَثَلٍ﴾، أي: بوصف عجيب من باطلهم مما يقترحونه، أو يعارضون به الحق ويقدحون به في رسالتك.

﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا أتيناك بالحق في القرآن الذي يدمغ ذلك الباطل ويزهقه، ويزيله ويمحقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١١٨.

ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: وأحسن وأتم بيانًا وإيضاحًا لألفاظه ومعانيه ودلالاته.

قال ابن القيم: «فالحق: هو المعنى المدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق؛ فهي تفسيره وبيانه»(١).

ومثال ذلك إبطال قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وإبطال قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ﴾ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤]:

لما ذكر إبطال ما يعترض به الكفار من الاقتراحات والقوادح؛ توعدهم وهددهم بحشرهم إلى جهنم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: يجمعون ويساقون على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة لهم وإذلالًا، وتشديدًا في عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «**إن الذي أمشاه على رجليه، قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: هم شر من كل أحد، ومكانهم جهنم شر مكان.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٦٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٦.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأضل طريقًا في الدنيا والآخرة؛ إذ لا أضل طريقًا في الدنيا ممن كفر وخالف طريق الرسل عليهم السلام، ولا أضل طريقًا في الآخرة ممن حشر على وجهه إلى جهنم، عياذًا بالله، فهم شر الناس منزلة، وأضلهم طريقًا في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- عظم يوم القيامة، وشدة أهواله، ووجوب الاستعداد له، ففيه تشقق السماء بالغمام، ونزول الملائكة، ومجيء الرب تعالى لفصل القضاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

٢- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- ظهور تفرده عز وجل بالملك يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للظالمين والجبابرة المتسلطين على العباد من الملوك والسلاطين.

٤- إثبات اسم الله «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ لقوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

٥- أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ بإضافة «الملك» لاسمه «الرحمن»، وفي هذا طمأنة للنفوس، وشرح للصدور في ذلك الموقف العصيب، وبشارة للمؤمنين.

٦- شدة عسر ذلك اليوم على الكافرين، وثقله وطوله وصعوبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وفي هذا تحذير من الكفر، ومفهوم الآية: أنه يسير على المؤمنين، ويدل على هذا قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله...**»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

٧- تأسف الظالمين وندمهم على تفريطهم في جنب الله، ومخالفتهم سبيل الرسول ﷺ وطريق أهل الجنة حين لا ينفع الندم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، وفي هذا تحذير من الظلم.

٨- أن كل طريق إلى الجنة مسدود؛ إلا طريق الرسول ﷺ.

٩- نداء الظالم على نفسه بالويل، وتمنيه أنه لم يخالل أحدًا من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، وإقراره بالحق في ذلك اليوم حين لا ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾.

١٠- أن المرء على دين خليله، وأن الخليل والقرين الضال سبب لضلال خليله وقرينه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، وفي الحديث: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1]، وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير**» الحديث[2].

١١- أن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وكل خلة ليست في ذات الله فهي مضمحلة زائلة، أو وبال على صاحبها.

١٢- يجب الحذر كل الحذر من قرين السوء، وجليس السوء؛ لأنه شر ووبال على صاحبه، وسبب لهلاكه وضلاله. زالوحدة خير من جليس السوء. قال الشافعي[3]:

إذا لم أجد خلًّا تَقِيًّا فوحدتي ... ألذُّ وأشهى مِن غويٍّ أعاشرُهْ

وأجلسُ وحدي للعبادةِ آمنًا ... أقرُّ لعيني من جليسٍ أحاذرُهْ

١٣- إثبات اسم القرآن «الذكر»؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾.

١٤- خذلان الشيطان للإنسان وعداوته له، يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزين

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٣٣، والترمذي في الزهد ٢٣٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في الصلة والآداب ٢٦٢٨، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٧.

له الباطل، ويدعوه إليه، ومن ثم يتبرأ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

١٥- شكايته ﷺ إلى ربه هجران قومه للقرآن، وتكذيبهم به، وعدم إيمانهم به، وإعراضهم عنهم، وعدم تدبرهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

١٦- أن شكوى الحال في كل شيء ينبغي أن تكون للرب عز وجل، الذي يسمع النجوى، ويرفع البلوى.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

١٨- إعراض مشركي مكة عن القرآن وهجرانهم إياه.

١٩- تحريم هجر القرآن، والإعراض عنه، وعدم تدبره والإيمان به.

٢٠- أن الله عز وجل جعل قدرًا لكل نبي من الأنبياء أعداء من المجرمين؛ كما جعل مشركي قريش أعداءً لنبينا ﷺ، وفي ذلك إظهار للحق، وابتلاء وتمحيص لأهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٢١- تسليته ﷺ تجاه تكذيب المشركين لرسالته، وعداوتهم وأذيتهم له، وعناية الله تعالى به.

٢٢- إثبات الجعل والتقدير الكوني، وأن الله قدر جميع أعمال الخلق خيرها وشرها.

٢٣- ما أعظم كفاية الله تعالى في هدايته، يهدي من يشاء بفضله؛ كما يضل من يشاء بعدله، وما أعظم كفايته في نصرة رسله وأوليائه! وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه كفر قومه وضلالهم، وصدهم عما جاء به، ووعد له بالنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

٢٤- اقتراح الكفار- عنادًا منهم- هلا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ كما أنزلت الكتب قبله، ورده عز وجل عليهم مبينًا الحكمة في ذلك؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

٢٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

٢٦- امتنانه عز وجل بترتيله القرآن ترتيلًا، بترسل وتمهل ومكث، وبيانه بيانًا تامًّا، وأمره بترتيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

٢٧- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ، وبالوحي الذي أنزله إليه، وإبطال ما يورده المكذبون له عنادًا منهم من اقتراح أو قدح، بإظهار الحق وبيانه أتم بيان، ودمغ الباطل وإزهاقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم ممن يقولون: إن نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ لأنه على قولهم هذا لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا.

٢٨- وعيد الكفار وتهديدهم بحشرهم على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة وإذلالًا لهم، ونكاية في تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٩- إثبات حشر الخلائق وجمعهم يوم القيامة، وإثبات جهنم، وأنها مرصدة للكافرين.

٣٠- ذمهم في مآلهم ومسلكهم، فمآلهم جهنم شر مآل، ومسلكهم أضل طريق: طريق الهلاك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

❋ ❋ ❋

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

لما ذكر ما لقيه ﷺ من المشركين من العناد والتكذيب والأذى، وتوعدهم بالقيامة وأهوالها وبجهنم، ذكر ما أحله بالأمم الماضية المكذبة للرسل من العقوبات الدنيوية، مع ما أعده للظالمين من العذاب الأليم في الآخرة؛ تهديدًا للمشركين، وتحذيرًا لهم من مخالفته ﷺ، وتسلية له.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾، أي: نبيًّا ورسولًا مؤازرًا ومؤيدًا وناصرًا ومعينًا، وذلك بدعوة ووجاهة من موسى؛ بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩- ٣٢].

ولهذا قيل: إنه لا يوجد أحد من الإخوة أعظم فضلًا وأشد منة من موسى على أخيه هارون، حيث دعا الله أن يجعل أخاه هارون رسولًا- والرسالة أعلى المقامات- فاستجاب الله له.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهم فرعون وقومه.

﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكًا شديدًا بالغرق.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾، أي: وقوم نوح عليه السلام، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: حين كذبوا الرسل، أي: كذبوا نوحًا عليه السلام، ومن كذب رسولًا فهو كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة؛ هي توحيد الله تعالى، ولا فرق في هذا بين رسول ورسول.

وبدأ بذكر موسى عليه السلام مع أنه متأخر بالنسبة إلى قوم نوح؛ لأن موسى اقرب عهدا، وفرعون أشد عتوًّا. والله أعلم.

﴿أَغْرَقْنَـٰهُمْ﴾، أي: أغرقناهم جميعًا بالطوفان، إلا من آمن مع نوح عليه السلام، وهم قليل، أنجاهم الله معه في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾، أي: عظة وعبرة، يتعظ ويعتبر بها من وفقه الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر:١٣- ١٥].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا في الآخرة ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾، بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من الأمم الماضية، ومن هذه الأمة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: وأعتدنا لهم؛ لتسجيل وصف الظلم عليهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين، ولبيان علة هذا الوعيد وسببه، وهو الظلم، مع ما في ذلك من تنبيه للمخاطب، كما في الالتفات.

﴿وَعَادًا﴾، أي: وأهلكنا عادًا لما كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.

﴿وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، أي: وأهلكنا ثمود وأصحاب الرس لما كذبوا الرسل. و«ثمود» هم قوم صالح عليه السلام، و«أصحاب الرس» نسبة إلى الرس؛ وهي البئر.

﴿وَقُرُونَۢا﴾، أي: وأهلكنا قرونًا، أي: أممًا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بين تلك الأمم المذكورة، ﴿كَثِيرًا﴾، أي: قرونًا وأممًا كثيرة أهلكناهم لما كذبوا الرسل.

﴿وَكُلًّا﴾، أي: وكلًّا من هؤلاء الأقوام والقرون والأمم المكذبة.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، أي: بينًّا ونوَّعنا لهم الحجج والدلائل، وقرَّبنا لهم المعاني، وأوضحنا لهم الحق، وأزحنا عنهم الأعذار، وأقمنا عليهم الحجة، وحذرناهم مما حل بالمكذبين قبلهم.

﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكًا تامًّا عظيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾، أي: ولقد أتى كفار مكة على القرية؛ أي: قرية قوم لوط، أي: مروا عليها، وهي قرية «سدوم».

﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، أي: مطر عذاب يسوء المُمطَرين؛ أمطرت بحجارة من السماء من سجيل فأهلكتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٤- ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨].

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، الاستفهام للتوبيخ والتقرير، أي: أفلم يكونوا يرون هذه القرية في طريقهم في سفرهم إلى الشام، فيعتبرون بما حل بأهلها من العذاب والنكال، بسبب تكذيبهم رسولهم، ومخالفة أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ

عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٩].

ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم يرونها، ولكن لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولا يؤملون بالنشور، ولا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عذابه، بل ينكرون ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

لما ذكر إعراضهم عن الاعتبار والاتعاظ بالأمم والقرى المكذبة بسبب تكذيبهم بالبعث، أتبع ذلك بذكر استهزائهم وسخريتهم به ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون المشركون من قومك ما يتخذونك ويجعلونك.

﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا محلًّا للاستهزاء والسخرية والتندر، قائلين على سبيل التنقص والاحتقار والازدراء:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ الاستفهام للتحقير، وهو متضمن للنفي، أي: إن هذا لا يستحق، ولا يناسب أن يبعثه الله رسولًا؛ وأشاروا إليه بإشارة القريب: «هذا» أيضا تحقيرًا له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: الذي يعيب آلهتكم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا ديدن المكذبين للرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

وصدق الله العظيم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾، أي: إن كاد محمد، أي: قارب، ﴿لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، تفيد التوكيد، أي: إنّه لَيصرفنا عن عبادة آلهتنا، أي: أصنامنا.

﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، أي: لولا صبرُنا عليها، وتجلدنا وتمسكنا بها لأضلنا عنها، وهم بهذا يفتخرون بتمسكهم بما هم عليه من الباطل؛ كما في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥- ٧].

والصبر محمود في المواضع كلها إلا في مثل هذا الموضع الذي فيه الصبر على ما يكون سببًا للهلاك والعذاب، وهو الصبر على معصية الله، لا عن معصية الله.

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، تهديد ووعيد لهم، أي: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ علمًا حقيقيًّا﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ ويشاهدونه بعين اليقين.

﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: من أضل طريقًا وأخطأ منهجًا؟ أهم باختيارهم طريق الهلاك والعذاب، أم الرسول ﷺ الذي دعاهم إلى الإيمان والتوحيد وإلى طريق النجاة؟ لا شك أنهم سيعلمون ويتيقنون بعد أن يروا العذاب أنهم هم الأضل سبيلًا.

﴿أَرَءَيۡتَ﴾، أي: أخبرني، والخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أي: من جعل معبوده ﴿هَوَىٰهُ﴾، أي: ما تهواه نفسه فكل ما هوته نفسه الأمارة بالسوء عبده واستحله، وهذا تعجيب من حاله السيئة، وأنه لا أضل منه، ولا حيلة فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]، ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لست عليه وكيلًا، مسيطرًا مسلطًا تلزمه الهداية وتحفظه من اتباع هواه؛ لأن هداية القلوب بيد

علام الغيوب.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي هي للإضراب، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتحسب، أي: أتظن أن أكثر الخلق يسمعون سماع تفهم وانتفاع، أو يعقلون عقل تفكر وتدبر، أي: لا تظن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هم إلا كالأنعام السارحة السائمة، تأكل وتشرب، ولا عقل لها ولا تكليف.

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم أضل من الأنعام طريقًا وأخطأ مسلكًا؛ لأن الأنعام تهتدي لما خلقت له، فتأكل ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتعطف على أولادها، وتغدو أول النهار إلى مراعيها، وتروح آخر النهار إلى مراحها، إلى غير ذلك؛ كما قال ﷺ عن الطير: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[1].

وهم لم يهتدوا لما خلقوا له، خلقوا لعبادة الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فعبدوا غير الله وأشركوا به، مع ما كرمهم الله به من العقول التي ميزهم الله بها عن الأنعام، ومع قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ ولهذا صاروا شر الدواب، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾ [الأنفال: ٥٥].

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه، ونبوة هارون وجعله وزيرًا لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

٢- أن هارون أخ شقيق لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾.

٣- إرسالهما إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وتكذيبهم بآيات الله، وإهلاكهم إهلاكًا شديدًا بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

٤- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وتكذيب قومه له، وإهلاكهم بالطوفان، وجعلهم عظة وعبرة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

٥- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، وهم إنما كذبوا نوحًا، وهو أول رسول.

٦- ينبغي الاعتبار والاتعاظ بما حل من العقوبات بالمكذبين، والحذر من مسالكهم، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

٧- الوعيد والتهديد للظالمين بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من جميع الأمم بالعذاب الأليم في النار، والجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٨- أن النار موجودة مرصدة مهيأة لأهلها الآن.

٩- إهلاك عاد وثمود وأصحاب الرس وأمم كثيرة بين ذلك لما خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

١٠- إقامة الحجة وبيان الحق، وإيضاح المحجة لأولئك الأقوام، وإهلاكهم بعد الإعذار منهم، إهلاكًا شديدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا

تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

١١- الإنكار على المشركين وتقريعهم؛ لعدم اعتبارهم بما حل من العقوبة الشديدة بقرية قوم لوط من إمطارها مطر السوء بالحجارة، وقد أتوا عليها ورأوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾.

١٢- عظم فاحشة اللواط، وأنها قد بلغت الغاية في الفحش؛ ولهذا عاقب الله تعالى قوم لوط بأشد العقوبات، فجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطرهم مطر السوء؛ حجارة من سجيل.

١٣- إنكار المشركين للبعث، وأن الذي حملهم على عدم الاعتبار والاتعاظ هو كونهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولقاء الله، والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

١٤- إثبات أن البعث والحساب و الجزاء حق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

١٥- سخريتهم واستهزاؤهم بالرسول ﷺ عند رؤيتهم إياه، وازدراؤهم واحتقارهم وتنقصهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

١٦- افتخارهم في تصلبهم وشدة تمسكهم بما هم عليه من الباطل والشرك بالله؛ لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾.

١٧- لا حيلة فيمن طمس الله بصيرته وأضله الله على علم، فرأى الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والهدى ضلالة، والضلالة هدى.

١٨- فرط مجاهدته ﷺ في دعوته لهم، وبذل قصارى وسعه في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم؛ لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾.

١٩- أن الصبر- وإن كان محمودًا في كل المواضع- فإنه لا يحمد في مثل هذه الحال أبدًا؛ لأنه صبر على ما يؤدي إلى الهلاك والخسران المبين.

٢٠- الوعيد والتهديد لهم بالعذاب، وأنهم سيعلمون عند رؤيتهم له أنهم هم الأضل

سبيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٢١- التعجيب من حال من جعل إلهه ما تهواه نفسه، فكلما هوى شيئًا عبده؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

٢٢- أنه ﷺ ليس بوكيل على الخلق يلزمهم الاهتداء؛ لأن الهداية بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق لا يسمعون ولا يعقلون، ما هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا منها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

٢٤- أن الأنعام أهدى من كثير من الخلق؛ لأنها تهتدي لما خلقت له؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

بخلاف كثير من الخلق؛ لأن الخلق كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فضل كثير منهم عما خلقوا له وعبدوا غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج: ١٨]، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨]، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله، وهذا مصداق قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧﴾:

لما ذكر عز وجل عتو المشركين وعنادهم، وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذبين قبلهم، واستهزاءهم به ﷺ، وعبادتهم أهواءهم، وكونهم أضل سبيلًا من الأنعام؛ أتبع ذلك بالأدلة الدالة على وجوده وكمال قدرته، وتمام نعمته.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، الاستفهام للتقرير والتعجب، أي: ألم تشاهد ببصرك وتتأمل ببصيرتك؟ والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أي: كيف بسط الظل وجعله طويلا ممتدًّا من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أي: من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس؟ فإنه في هذا الوقت يكون الظل مديدًا أطول ما يكون.

وسمي ظلًّا لأنه ذو نور، ولكن بدون شعاع شمس فكان ظلًّا.

و«الظل»: ما قبل الزوال، و«الفيء»: ما بعده، أي: الظل: ما نسخته الشمسُ، والفيء: ما نسخ الشمسَ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أي: ثابتًا مستقرًّا دائمًا على حالة واحدة غير ممتد، فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فلا تحصل المنافع المترتبة على مده وبسطه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧٢].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم، أي: ثم جعلنا الشمس دليلًا على الظل؛ لأنها هي التي تظهره وتبينه؛ لأنه يتبعها في حركتها تبعية المدلول لدليله، فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، ولما عرف ما فيه من المصالح والفوائد، كما أنه لولا الظل ما عرف ما في الشمس من المصالح والفوائد، والضد يعرف بضده، وبضدها تتبيَّن الأشياء.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: ثم قبضنا الظل، أي: ثم كلما ارتفعت الشمس تقلص الظل وانقبض يسيرًا، شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا، حتى يصير كهيئته عند طلوعها.

قال ابن القيم: «ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال»[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي: ساترًا لكم بظلامه، كاللباس، بغشيانه الوجود؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قطعًا للحركة والتعب، وراحة لأبدانكم وأرواحكم.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: وقتًا للانتشار والسعي للكسب، وطلب المعاش والرزق، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩-١١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٧.

كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠].

لما ذكر دلائل كمال قدرته ونعمته في مد الظل، وجعل الليل لباسًا، والنوم سباتًا، والنهار نشورًا؛ أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته ونعمته أيضًا في إرسال وإنزال المطر؛ لإحياء الأرض، وسقي الناس والأنعام، وتصريفه بينهم؛ ليذكروا.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، قرأ ابن كثير بالإفراد: «الرِّيحَ»، وقرأ الباقون بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾.

وقرأ حفص: ﴿بُشْرًۢا﴾ بباء موحدة وسكون الشين، أي: أنها تبشر برحمة الله تعالى، أي: بالمطر، وقرأ الباقون بالنون على اختلاف بينهم، فقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين: «نُشْرًا»، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين: «نَشْرًا».

وقرأ الباقون بضم النون والشين: «نُشُرًا».

والمعنى: أنها منتشرة ومتفرقة، وتثير السحاب وتنشره.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قبلها وأمامها، فتثير السحاب وتنشره وتحمله وتسوقه وتلقحه، وتبشر بالرحمة؛ وهي المطر.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، إلى التكلم. أي: وأنزلنا من السحاب الذي في العلو، بين

السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿طَهُورًا﴾ «طَهور»- بفتح الطاء- : اسم لما يتطهر به، أي: لما تحصل به الطهارة؛ كقوله تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. وأما «طُهور»- بضم الطاء- : فهو التطهر.

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ الباء للسببية، أي: لنحيي بسبب الماء بلدة ميتاً؛ فتنبت أرضها وتخضر وتكتسي وتزدهي بأصناف النباتات والأشجار مما يأكل الناس والأنعام.

كما قال تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، قرأ أبو عمرو وحفص في رواية عنهما بفتح النون: «وَنَسْقِيَهُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، والواو: عاطفة، أي: ولنسقيه ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾، أي: من الذي خلقنا ﴿أَنْعَٰمًا﴾، أي: أنعامًا كثيرة العدد والأنواع والأجناس، تشمل بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوان والطير وغير ذلك.

﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾، «أناسي»: جمع «إنسان».

أي: ونسقيه أناسًا كثيرين، يشربون منه، ويسقون زروعهم وثمارهم، من الغدران التي تبقى على وجه الأرض، ومما يخزن فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقدّم إحياء الأرض، وسقي الأنعام على سقي الأناس والله أعلم؛ لأن حياتهم بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب لحياتهم، ولأنهم إذا ظفروا بسقيا أرضهم

وأنعامهم لم يعدموا سقياهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، وقرأ الباقون بتشديد الذال والكاف: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، وأصلها: «ليتذكروا»، وأدغمت التاء في الذال.

أي: ولقد صرفنا المطر بينهم كما نشاء بحكمة بالغة، فأنزلناه على أرض دون أخرى، وأنزلناه عامًا على أرض، وعامًا على غيرها، وغير ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «ليس عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾»(٢).

وقيل: صرفنا القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، والأظهر والأقرب من حيث السياق القول الأول.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، أي: ليتذكروا بذلك عظمة الله تعالى ونعمته، وتمام قدرته، وأنه عز وجل هو المتفرد وحده بإنزال المطر، لا الأنواء، قال ﷺ لأصحابه على أثر سماء كانت من الليل: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٣).

وليتذكروا أيضًا: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على بعث الخلائق وإحياء الموتى، وليتذكر من نزل عليه المطر نعمة الله تعالى عليه فيشكرها، ويتذكر من مُنع القطر أنه بذنب أصابه، فيتوب ويستغفر الله.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٦٨- ٤٦٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان، بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب ٣٩٠٦؛ من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، أي: امتنع أكثر الناس وأصروا، ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كفورًا بالله، وكفرانًا بنعمته، بنسبة المطر إلى الأنواء والأجواء ونحو ذلك، أو بالأشر والبطر وعدم الشكر، أو بالقنوط من رحمة الله إذا امتنع المطر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾:

قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾، الواو: حرف عطف، و«لو» شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو أردنا كونًا.

﴿لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لأرسلنا في كل قرية من القرى ﴿نَّذِيرٗا﴾، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم عذاب الله، ويدعوهم إلى الله تعالى، أي: ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس كلهم هذا القرآن؛ كما قال ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(١).

وقال: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(١).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، أي: ابذل جهدك ووسعك في مجاهدتهم بالقرآن، بتبليغه لهم والحجة والبيان.

﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، «جهادًا» مفعول مطلق منصوب، أي: جهادًا عظيمًا لا يخالطه فتور؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ

(١) سبق تخريجه.

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٣- ٥٤].

قوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: أرسلهما في مجاريهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، أي: هذا حلو شديد العذوبة والحلاوة، وهي مياه الأنهار والعيون والآبار، ونحوها.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: شديد الملوحة والمرارة، وهي البحار والمحيطات الساكنة التي لا تجري.

قال ابن كثير[1]: «ولكن تتموج وتضطرب، وتغتلم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى- وله القدرة التامة- العادة بذلك».

وقال أيضًا: «فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا، وميتتها طيبة».

وفي كل من هذين البحرين: العذب والمالح، من المنافع والفوائد والمصالح الكثيرة للعباد ما لا يعد ولا يحصى؛ ولذا امتن الله عز وجل بهما على عباده.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾، أي: بين البحرين: العذب والمالح.

﴿بَرْزَخًا﴾، أي: حاجزًا، وهو اليبس من الأرض؛ يمنع وصول أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به وإفساد خاصيته؛ كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٠]، أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل خاصيته المقصودة منه. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ [النمل: ٦١].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: مانعًا وحاجزًا شديدًا يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر.

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٢٦.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: من مني الرجل والمرأة ﴿بَشَرًا﴾، أي: إنسانًا سويًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا﴾، أي: قرابة من جهة النسب، وهم: آباء، وأبناء، وإخوة، أي: أبوّة، وبنوّة، وأخوّة، وبنو أخوّة.

﴿وَصِهْرًا﴾، وهم قرابة المصاهرة، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها.

فالمرء في ابتداء أمره نسيب، ثم يتزوج، فيصير صهرًا، ويصير له أصهار.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وكان ربك عظيم القدرة على كل شيء، حيث خلق من هذا الماء بشرًا سويًّا، كامل القوى الجسدية والعقلية والفكرية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير كمال قدرة الله تعالى ونعمته في مد الظل، والترغيب في النظر والتأمل، وشكر الله تعالى على ذلك؛ لما يترتب عليه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، ومعرفة أوقات الصلوات وغير ذلك، ومن تعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآية.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ والمؤمنين وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣- أن الله عز وجل لو شاء لجعل الظل ساكنًا غير ممتد، فلا تحصل المصالح المترتبة على مده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٥- أن الشمس دليل على الظل، فلولا وجود الشمس ما عرف الظل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

٦- الاستدلال بالشيء على ضده، ومعرفة الشيء بضده، وأن قدر النعمة لا يعرف إلا بفقدها.

٧- الامتنان بقبضه عز وجل الظل وتقليصه قليلًا قليلًا بارتفاع الشمس، وما في ذلك من حصول المنافع وانتفاء المضار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

٨- تمام قدرته تعالى ومنته في جعل الليل لباسًا ساترًا للخليقة، والنوم راحة للأبدان، وجعل النهار وقتًا للانتشار والسعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

٩- قدرته تعالى التامة ونعمته العظيمة في إرسال الرياح مبشرات بالمطر، وإنزاله من السماء ماء طهورًا لحياة الأرض والبلاد، وسقي الأنعام والعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

١٠- أن من منافع الرياح سَوق السحاب وتلقيحه والبشارة بالمطر.

١١- أن المطر رحمة من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾.

١٢- حكمة الله تعالى في كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم المرتفعات وسفوح الجبال والهضاب والأودية والسهول، وفي كونه طهورًا؛ ليطهر كل ما ينزل عليه.

١٣- أن الأصل في الماء الطهارة، فكل ما نزل من السماء أو نبع من الأرض فهو طهور أنزله الله من السماء.

١٤- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

١٥- تصريفه عز وجل المطر بين العباد والبلاد بحكمته ومشيئته وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾.

١٦- أن الحكمة في تصريف المطر: لأجل أن يتذكر العباد عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وتفرده وحده بإنزال المطر، فلا ينسبوه إلى الأنواء، ولا إلى الأجواء، وليتذكروا أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وليتذكر من مُنع القطر أن

ذلك بذنب أصابه، فيتوب إلى الله ويستغفره؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

١٧- إصرار أكثر الناس على كفر نعمة الله تعالى وعدم شكرها، ونسبة المطر إلى غيره؛ من الأنواء والأجواء، وغير ذلك، أو القنوط من رحمة الله عند امتناعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

١٨- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، أي أبوا بمحض اختيارهم، وفي هذا رد على الجبرية.

١٩- أن الله عز وجل لو شاء لأرسل في كل قرية نذيرًا لهم خاصة؛ كما هي حال النذر السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤﴾ [سبأ: ٣٤].

ولكنه عز وجل شاء أن يخص محمدًا ﷺ بالرسالة العامة إلى جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١﴾.

أي: ولكن لم نشأ ذلك، بل شئنا إرسالك إلى جميع الناس.

٢٠- نهيه عز وجل له ﷺ عن طاعة الكافرين، وأمره بجهادهم بالقرآن بتبليغه لهم، وبالحجة والبرهان، وهو نهي وأمر لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾.

٢١- قدرته عز وجل التامة ونعمته في إرسال البحرين: العذب الفرات، والملح الأجاج، وما فيهما من المنافع والمصالح للعباد، وحجز أحدهما حجزًا تامًّا عن الوصول إلى الآخر والاختلاط به وإذهاب خاصيته؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾.

٢٢- قدرته تعالى التامة ومنته في خلقه من ماء الرجل والمرأة بشرًا سويًّا، وجعله ذا نسب وصهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾.

٢٣- إثبات قدرته عز وجل العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾:

لما ذكر دلائل تمام قدرته ونعمه الموجبة لشكره وذكره وعبادته وحده، أتبع ذلك بذم المشركين وبيان سفاهتهم، الذين يعبدون من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ويمتنعون من السجود له، ثم أمره ﷺ بالتوكل عليه عز وجل وتسبيحه، وبيّن له كفايته عز وجل بذنوب عباده؛ تسلية له ﷺ.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون ويدعون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

قال ابن القيم: «أي: يدعونهم دعاء مسألة للنفع والضرر، ودعاء خوف ورجاء وعبادة، وهما متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة

متضمن لدعاء العبادة»[1].

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي لا ينفعهم ولا يضرهم من الأصنام والأوثان، أي: الذي لا يجلب لهم نفعًا، ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوه.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾، «ال»: للاستغراق، أي: كل كافر.

﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، أي: عونًا للشيطان على ربه بالشرك، مظاهرًا له بالمعصية، ومواليًا له، ومعاديًا لربه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، «إلا» أداة حصر، أي: وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا للمؤمنين بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، ونذيرًا للكافرين من الشقاء في الدنيا والآخرة والنار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧]، ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الكهف:٤].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿أَجْرٍ﴾ نكرة في سياق النفي، أي: ما أسألكم أيَّ أجر على تبليغ رسالة ربي إليكم، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن»، و«من» موصولة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«شاء»، أي: إلا الذي شاء اتخاذ سبيل إلى ربه، أي: طريقًا إلى ربه بالاقتداء بما جئت به.

أي: لا أسألكم أجرًا على تبليغي إياكم رسالة ربي، إلا الاستجابة لما أدعوكم إليه، وسلوك صراط الله المستقيم، وإلا من شاء أن ينفق في مرضاة ربه وسبيله، وهذا لكم، وليس أجرًا لي.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٨- ٢٩٩.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، أي: اعتمد وفوِّض في أمورك كلها على «الحيِّ».

«الحي» من أسماء الله عز وجل، أي: ذي الحياة الكاملة التامة الدائمة، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، أي: الذي لا يموت أبدًا، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، أي: فتوكل في جميع أمورك على الحي الذي له الحياة الكاملة التامة من جميع الوجوه، وله البقاء الدائم، الذي لا يموت أبدًا، وهو الله عز وجل ؛ يكفك كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَسَبِّحْ﴾، التسبيح: التنزيه والتعظيم والتقديس.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾، الباء للملابسة، أي: سبح الله تعالى ونزهه وقدسه متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين تسبيحه وحمده؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**»(١).

أي: أخلص له العبادة والتوكل؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾، أي: ذا خبرة تامة بها، واطلاع واسع عليها، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، سيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لسعة علمه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يخفى عليه خافية.

أي: فليس عليك هداهم، ولا إليك حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١١٢٢، من حديث عائشة رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: أوجدهما بما فيهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ من أيام الدنيا المعلومة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: ثم استوى بعد ذلك على العرش، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

والعرش: سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأكبرها وأجملها وأكملها.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بدل من الضمير في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، الباء بمعنى: «عن»، أي: فاسأل عنه عز وجل خبيرًا؛ وهو نفسه الكريمة؛ إذ لا أحد أعلم بأوصافه عز وجل من نفسه.

قال ابن جريج: «يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئًا فاعلم أنه كما أخبرتك؛ فأنا الخبير»(١).

أي: أنه عز وجل قد أبان من أسمائه وأوصافه الجليلة، وأفعاله وأحكامه، ما يدل على كمال عظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: استعلم عنه من هو خبير عالم به، فاتبعه، واقتد به، وهو نبيه ورسوله محمد ﷺ؛ إذ لا أحد من الخلق أعلم منه بربه عز وجل، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: المراد بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

بعدما ذكر كمال حياته عز وجل، وتمام عظمته وعلوه، وعظيم قدرته، أتبع ذلك بذكر امتناع المكذبين من عبادته والخضوع له، وإنكارهم رحمته.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٨٠.

أي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله: اسجدوا للرحمن الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، واعبدوه وحده لا شريك له.

﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، الاستفهام للتعجب والاستغراب والإنكار، أي: قالوا متعجبين ومنكرين وجاحدين: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: ما نعرف الرحمن، وما نقر به، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه «الرحمن»؛ كما قال سهيل بن عمرو يوم الحديبية لما قال النبي ﷺ للكاتب: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم. ولهذا أنزل الله قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠][(١)].

﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾، قرأ حمزة والكسائي بالغيب: «يَأْمُرُنَا»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَأۡمُرُنَا﴾.

والاستفهام استفهام امتناع واستكبار وتكذيب، و«ما» مصدرية، أي: أنسجد لأمرك؟ أو موصولة، أي: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له، أي: أننا لا نسجد لمجرد أمرك، ولا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له.

﴿وَزَادَهُمۡ﴾، أي: وزادهم دعوتهم للسجود للرحمن ﴿نُفُورٗا﴾، أي: بعدًا عن الحق والإيمان، واستكبارًا.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه وبركته.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ المراد بالسماء: العلو، وليس المراد به السقف المحفوظ؛ لأن هذه البروج دونها، والبروج: جمع برج، وهو البناء العالي المرتفع.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

واختلفوا في المراد بها في الآية، فقال بعضهم: هي الكواكب العظام، والنجوم الكبار، وقال بعضهم: هي منازل الشمس الاثني عشر التي تنتقل فيها؛ وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة.

وهذه البروج تقطعها الشمس في السنة، والقمر يقطعها في الشهر، وله منازل؛ ثمان وعشرون منزلة، تشتمل على هذه البروج الاثني عشر.

قال السعدي[1]: «﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزل منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين».

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ بعدما ذكر البروج وهي المنازل الاثنا عشر- كما قال بعض أهل العلم- ذكر النازل فيها؛ وهو الشمس والقمر.

قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم السين من غير ألف على الجمع: «سُرُجًا».

وقرأ الباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على الإفراد: ﴿سِرَٰجًا﴾، أي: شمسًا مضيئةً حارة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، فيه النور بلا حرارة، وهذا من دلائل عظمته عز وجل، وجليل نعمه؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح؛ ولهذا امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «هو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اختلف في البروج المذكورة في الآية، فأكثر السلف أنها القصور أو الكواكب العظام والنجوم الكبار، وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر، التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلث، وهذه المنازل

الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلًا أبدًا، ويخفى منها أربعة عشر منزلًا؛ كما أن البروج يظهر منها أبدًا ستة، ويخفى ستة، والعرب تسمي أربعة عشر منزلًا منها شامية، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية: السرطان، وآخرها: السماك الأعزل، وأول اليمانية: العفر، وآخرها: الرشا، إذا طلع منها من المشرق غاب رقيبه من المغرب، وهو الخامس عشر. وبها تنقسم فصول السنة الأربعة، فللربيع منها: الحمل والثور والجوزاء، ومنازلها: الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع.

وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة، ومنازلها: النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك.

وللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس، ومنازلها: الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة.

وللشتاء منها: الجدي والدلو والحوت، ومنازلها: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، ويسمى الأول، والفرع المؤخر، ويسمى الثاني، والرشا.

ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلومًا بالعيان والمشاهدة، ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٨-٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل؛ لظهور ذلك للحس في القمر، وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل مَنزِلٍ مَنزِلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم، وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي؛ ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، ولم يقل ذلك في الشمس؛ ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله، لا على حساب الشمس وسيرها؛ حكمة من الله ورحمة، وحفظًا لدينه؛ لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط

والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها، وجعل الشمس سراجًا وضياء يبصر به الحيوان، ولولا ذلك لم يبصر الحيوان»(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أي: وهو عز وجل الذي جعل الليل والنهار خلفة، أي: متعاقبين يخلف أحدهما الآخر باستمرار ولا يجتمع معه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

ولو اجتمع أحدهما مع الآخر لفاتت مصالح كثيرة عظيمة رتبها الله عز وجل على تعاقبهما.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال مسكنة، وتخفيف الكاف مضمومة: «يَذْكُرَ»، وقرأ الباقون بتشديدهما مفتوحتين: ﴿يَذَّكَّرَ﴾، واللام للتعليل، و«من» موصولة، أي: جعلهما خلفة متعاقبين للذي أراد أن يذكر، أي: يعتبر ويتذكر قدرة الله تعالى، وزوال الدنيا وفناءها، ويذكر الله تعالى بإقامة الصلوات المكتوبات ورواتبها في أوقاتها، وصلاة النوافل، وقيام الليل، فمن فاته ورد الليل قضاه في النهار، ومن فاته عمل في النهار قضاه في الليل، قال ﷺ: «**إن الله يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل**»(٢).

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: أو أراد شكورًا لله تعالى على نعمه العظيمة بطاعته؛ لأن في تعاقبهما تجدد النشاط والهمة في العبادة والحيوية.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٩- ٣٠١.
(٢) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين وبيان سفاهة عقولهم؛ لعبادتهم من دون الله ما لا يجلب لهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾

٢- أن الكافر ظهير للشيطان وعون له على ربه بالكفر والشرك والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

٥- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للمرسل إليهم هي البشارة لمن آمن منهم بالجنة، والنذارة لمن كفر بالنار، ومن لازم ذلك البلاغ، وبيان التكاليف الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

كما أنه مطالب كغيره من الأمة بالقيام بالتكاليف.

٦- أنه ﷺ لم يَسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا، فيحتج المكذبون بثقل هذا الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٧- أنه ﷺ ما يسألهم إلا اتباعه وسلوك صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

٨- أن من أنفق نفقة في سبيل الله فأجر نفقته لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: وليس ذلك أجرًا مقابل تبليغ الرسالة إليه.

٩- تقوية قلبه ﷺ، وتثبيته بأمره عز وجل له بالتوكل عليه، والتسبيح بحمده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه عز وجل ذو الحياة التامة الكاملة من جميع الوجوه، الدائمة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

١١- أن الواجب الجمع بين عبادته عز وجل والتسبيح بحمده والتوكل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

١٢- بيان تمام كفايته عز وجل خبيرًا بذنوب عباده، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، وفي هذا تسلية له ﷺ ليكل أمرهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

١٣- إثبات عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وكمال خلقه، وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾.

١٤- إثبات علوه عز وجل، واستوائه على العرش بعد خلق السموات والأرض وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

١٥- إثبات اسمه عز وجل «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية له عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾.

١٦- إثبات كمال الله عز وجل، وأنه لا أحد أعلم بالله، وأعرف به وبصفاته منه عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، أي: أن ما أخبر به عن نفسه هو كما أخبر.

١٧- إنكار المشركين اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

١٨- استكبارهم وعتوهم وعنادهم وامتناعهم من السجود لله تعالى، والخضوع له وعبادته واحتقارهم للنبي ﷺ؛ لقولهم: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾.

١٩- ازديادهم بدعوتهم إلى السجود للرحمن نفورًا عن الحق وبعدًا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾؛ ولهذا يشرع السجود في هذا الموضع بالاتفاق، طاعةً وامتثالًا لأمر الله، ومخالفة للمشركين.

٢٠- إثبات كمال عظمته عز وجل، وتعاليه، وتمام قدرته، وكثرة خيره وبركته، والثناء على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾.

٢١- أن من أعظم دلائل قدرته وخيره وبركته: جعله في السماء بروجًا، وسراجًا

وقمرًا منيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

٢٢- قدرة الله التامة، ونعمته الجليلة، ومنته في مخالفته بين الليل والنهار؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢﴾.

٢٣- أن منة الله تعالى ونعمته في تعاقب الليل والنهار؛ إنما ينتفع بها ويقدرها قدرها من اعتبر بذلك، واستدل به على عظمة الله وكمال قدرته، وشكر الله تعالى على ذلك، بالاستعانة به على ذكر الله وعبادته وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

٢٤- أن الأيام والليالي هي من أعظم ما منحه الله للعبد؛ فهي خزائن للأعمال الصالحة لمن وفقه الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾:

لما ذكر في الآيات السابقة عبادة المشركين من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكونهم أعوانًا للشيطان على ربهم بالشرك والكفر والمعاصي، والنفور من الحق- أتبع ذلك بذكر صفات عباد الرحمن الحسنة الجميلهْ، وأعمالهم الجليلهْ، وأخلاقهم النبيلهْ؛ من التحلي بالكمالات الدينية، والاستقامة على شرائع الإسلام، والتطلع إلى الزيادة من صلاح الأحوال في هذه الحياة، والتخلي عن ضلالات أهل الشرك والذنوب والمعاصي؛ ثناء عليهم، وامتداحًا لهم، وترغيبًا في صفاتهم.

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: الذين هم أهل عبوديته الخاصة عبودية الألوهية، وأهل رحمته الخاصة، وهم أنبياء الله تعالى، وأتباعهم المؤمنون، وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين، وأضافهم إلى اسمه «الرحمن» تشريفًا وتكريمًا لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

وفي هذا تمييز لهم عن غيرهم من أهل عبوديته العامة عبودية الربوبية، وهم جميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، «هونًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، أي: مشيًا هونًا، والهَون بفتح الهاء: الرفق واللين؛ وهو صفة أهل الإيمان، والهُون بضم الهاء: الهوان؛ وهو صفة أهل الكفر الذين مآلهم النيران.

والمعنى: الذين يمشون على الأرض بسكينة ووقار من غير مرح ولا تجبر، ولا أشر ولا بطر ولا استكبار؛ امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقوله ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»(١).

وقوله ﷺ مخاطبًا جموع الحجاج في انصرافه من عرفات إلى المزدلفة: «**السكينة، عليكم السكينة**»(٢).

وليس معنى ذلك: أنهم يمشون مشية المتمارض المتصنع رياء، كلا، فقد كان قدوتهم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم: «إذا مشى تكفأ تكفؤًا، كأنما ينحدر من صبب»(٣)، وفي حديث: «وكأنما الأرض تطوى له»(٤).

وقد رأى عمر رضي الله عنه شابًّا يمشي رويدًا، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدِّرة، وأمره أن يمشي بقوة(٥).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، الواو عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، أي: وإذا خاطبهم ذوو الجهل والسفه بجهل وتطاول وسيئ من القول.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، المشي إلى الجمعة ٩٠٨، ومسلم في المساجد، استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٣٢٧، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد ٧٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٧١، ومسلم في الحج ١٢٨٢، وأبو داود في المناسك ١٩٢٠، والنسائي في مناسك الحج ٣٠١٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٣٧، من حديث علي رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث غريب».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٣١.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، «سلامًا» صفة لمحذوف، أي: قالوا قولًا سلامًا، أي: سدادًا وصوابًا، يَسلمون فيه من الإثم، ومن مقابلة الجاهل بجهله، فلا يقابلونه بجهله انتصارًا لأنفسهم فيزداد جهلًا وسفهًا، ولا يسكتون فيظن أنه على الحق وأنه غلبهم وأنهم ضعفاء، بل يقابلون جهله بالحلم، وسفهه بالعقل، وإساءته بالعفو والصفح وبالتي هي أحسن.

وهذا من هون المشي المعنوي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].

وعن النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلًا عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: وعليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام. قال: بل عليك، وأنت أحق به**»[(١)].

قال ابن القيم: «وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

أي: بسكينة ووقار، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام، فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة»[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: يبيتون الليل مخلصين لربهم، متذللين له.

﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾، أي: حال كونهم سجدًا وقيامًا في عبادته والصلاة له، أي: يصلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وخص السجود والقيام؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة، فالقيام أشرف ما في الصلاة من حيث الذكر وقراءة القرآن، والسجود أشرف ما في الصلاة من حيث الحال

---

(١) أخرجه أحمد ٥٤٤٥. قال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٣٢: «إسناده حسن».

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٠٢.

والهيئة؛ ولهذا قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1].

وقدم السجود لمراعاة الفاصلة، مع الإشارة إلى أهمية السجود.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، أي: ادفعه عنا بحفظنا من موجباته، ومغفرة ذنوبنا.

و«جهنم»: اسم من أسماء النار سميت به؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، تعليل للدعاء قبله، أي: شديدًا لا يطاق، مستمرًّا دائمًا ملازمًا لأهلها ملازمة الغريم لغريمه.

وهذا بالنسبة للعذاب المطلق، وهو عذاب من مات على الكفر، أما مطلق العذاب وهو عذاب من دون الكفر، فليس بلازم، فقد يعذب العاصي في النار بحسب ذنبه، ثم يخرج إلى الجنة، وقد يعفو الله عنه.

﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، تعليل بعد تعليل، أي: جهنم ﴿سَآءَتۡ﴾، أي: بئست، ﴿مُسۡتَقَرًّا﴾، تمييز، أي: مكان استقرار للعصاة الذين يعذبون فيها ثم يخرجون منها، ﴿وَمُقَامًا﴾، معطوف على ﴿مُسۡتَقَرًّا﴾، أي: مكان إقامة أبدية للكفار المخلدين فيها.

ويجوز أن يكون ﴿مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مترادفين، أي: مكان استقرار وإقامة لمن دخلها، سواء كان من المخلدين فيها أو من غير المخلدين.

وهذا بخلاف الجنة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦]، وبقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرًّا وَأَحۡسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بضم الياء وكسر التاء: «يُقْتِرُوا».

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء: «يَقْتِرُوا».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء: ﴿يَقْتُرُوا﴾، أي: والذين أنفقوا في أي وجه من وجوه النفقة الواجبة والمستحبة.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾، أي: لم يتجاوزوا الحد وقدر الحاجة في إنفاقهم، لا كمية ولا كيفية، ولم ينفقوا في محرم ومعصية.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، أي: ولم يضيقوا في الإنفاق.

أي: فليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء فيُقصّرون في ذلك؛ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، «القوام»: العدل والقصد بين الطرفين، أي: وكان إنفاقهم مستقيمًا وسطًا بين الإسراف والتقتير، حسب ما تقوم به الحال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من فقه الرجل: رفقه في معيشته**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عال من اقتصد**»(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٧.

(٣) أخرجه أبو بكر البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٣٤.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾، ونزل: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام، وقد عدلنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾»(٢).

لما ذكر صفات المؤمنين التي يتخلقون بها قولًا وعملًا، أتبع ذلك بذكر الصفات التي يجتنبونها ويبتعدون عنها قولًا وعملًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: لا يعبدون مع الله معبودًا غيره، بل يعبدونه وحده، ويدعونه وحده دعاء مسألة، ودعاء عبادة ورجاء.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب عند الله أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». ونزلت هذه الآية،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٠، ومسلم في الإيمان ١٢٢، والنسائي في تحريم الدم ٤٠٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٣٦٤٢، وفي التفسير ٤٧٦٥، ومسلم في الإيمان ٣٠٢٣، وأبو داود في الفتن والملاحم، تعظيم المؤمن ٤٢٧٣.

تصديقًا لقول الرسول ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾»[1].

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرمها الله، أو التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي أربعة أنفس: نفس المسلم، ونفس الذمي؛ وهو من عقد معه عهد على بذل الجزية والحماية، ونفس المعاهد؛ وهو من وقع بيننا وبينه عهد بعدم القتال، ونفس المستأمن؛ وهو من دخل من الكفار إلى بلاد المسلمين بأمان منهم.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، أي: متلبسين بالحق، أي: إلا بما يوجب قتلها شرعًا؛ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، وقتل المرتد، قال ﷺ: «**لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[2].

﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ لما ذكر انتهاك الأنفس ذكر انتهاك الأعراض، أي: ولا يرتكبون فاحشة الزنا التي هي من أعظم الفواحش.

وخص هذه الأفعال الثلاثة؛ لأنها أكبر الذنوب والموبقات والكبائر، فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾، الإشارة تعود إلى دعاء إله آخر مع الله، وقتل النفس المعصومة، والزنا، أي: ومن يفعل ذلك المذكور، بأن يشرك بالله، أو يقتل نفسًا معصومة، أو يزني ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾، «يلق» جواب الشرط «من» مجزوم بحذف حرف العلة الألف، ﴿أَثَامًا﴾، أي: عقابًا ونكالًا وجزاء.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾، تفسير وبيان؛

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ٤٧٦١، ومسلم في الإيمان- كون الشرك أقبح الذنوب ٨٦، وأبو داود في الطلاق- تعظيم الزنا ٢٣١٠، والترمذي في التفسير ٣١٨٣، وأحمد ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٧٨، ومسلم في القسامة ١٦٧٦، وأبو داود في الحدود ٤٣٥٢، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٦، والترمذي في الديات ١٤٠٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٣٤، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿أَثَامًا﴾.

قرأ أبو بكر بضم الفاء والدال: «يُضَاعَفُ»، و«يَخْلُدُ»، وقرأ الباقون بجزمهما: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾، و﴿وَيَخۡلُدۡ﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين، مع الجزم: «يُضَعَّفْ».

ومعنى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يزاد ويعاد ويكرر عليه العذاب والنكال ويغلظ يوم القيامة، ومضاعفة الشيء: تكثيره وتكريره، قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٦١].

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾، أي: ويمكث ويقيم ويبقى في هذا العذاب المضاعف أبدًا، ﴿مُهَانًا﴾ حال، أي: محتقرًا ذليلًا.

فجمع له بين العذاب الحسي الجسدي في النار، وبين العذاب المعنوي القلبي، بالإهانة والتحقير والإذلال.

والوعيد بمضاعفة العذاب لمن ارتكب هذه الأفعال المذكورة أو واحدة منها؛ لأنها كلها من كبائر الذنوب.

والوعيد بالخلود لمن ارتكبها كلها، أو ارتكب الشرك وحده؛ لأن ما عدا الشرك من الذنوب، كالقتل العمد، والزنا، وغيرهما لا يخلد فاعله في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء متصل، و«من» موصولة، أي: جزاء من ارتكب هذه الموبقات وعقابه مضاعفة العذاب له يوم القيامة، وخلوده فيه مهانًا، إلا الذي تاب من هذه الذنوب وغيرها ورجع وأناب إلى الله، وآمن وعمل صالحًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، أي: إلا من تاب توبة صحيحة بشروطها الخمسة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم عليها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم، وأن تكون خالصة لله تعالى.

﴿وَءَامَنَ﴾، بترك الشرك والدخول في الإسلام والإيمان، وآمن أيضًا: بترك

المعصية كالقتل والزنا وغير ذلك؛ لأن مرتكب المعصية- وإن كانت دون الكفر- يرتفع عنه الإيمان؛ كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ينظر الناس إليه فيها وهو مؤمن**»[(١)].

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ذكر الموصوف هنا- وهو قوله: ﴿عَمَلًا﴾- للتوكيد، والغالب حذفه، والاكتفاء بالصفة ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا ورفعة لشأنهم.

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾، «التبديل»: جعل شيء ووضعه مكان شيء آخر.

ومعنى يبدل الله سيئاتهم حسنات: أن ما عملوه من سيئات ماضية يبدلها الله بالتوبة النصوح حسنات؛ لأن توبتهم منها بإقلاعهم عنها، وندمهم على فعلها، وعزمهم على عدم العود إليها، وكونها خالصة لله تعالى في وقتها المناسب: كل ذلك حسنات تسجل لهم مقابل تلك السيئات، فبدلت سيئاتهم وانقلبت حسنات بهذا الاعتبار، فهو تبديل جزئي.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولًا إلى الجنة، يؤتى برجل، فيقول: نحُّو كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: إن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها ههنا. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه**»[(٢)].

قال ابن القيم: «إن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أوفى أهل الجنة منزلة ١٩٠، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٦، وأحمد ٥١٧٠.

ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، مما يوجب جعل مكان السيئة حسنة، بل حسنات. ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدَّل»[1].

وقيل: إن معنى ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾: أن الله أبدلهم مكان عمل السيئات عمل الحسنات، فهو تبديل قدري.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم المؤمنون، كانوا قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، وأبدلهم مكان السيئات حسنات»[2].

ومن هذا: ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أنه يقال للمؤمن في قبره: «انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا»[3].

وفي حديث البراء رضي الله عنه: «فيفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك، لو عصيت الله أبدلك الله به هذا»[3].

والسياق أدل على المعنى الأول، فهو الأظهر والأقرب، وهو الأبلغ في الدلالة على عظيم فضل الله وعفوه، وكرمه وواسع رحمته؛ لأنه يدل على أن الله أبدلهم بالسيئات بعد أن عملوها حسنات، بخلاف المعنى الثاني؛ فإنه يدل على أن الله صرفهم عن السيئات قبل أن يعملوها إلى عمل الحسنات.

والتأمل في هذا المعنى من أعظم ما يحمل على تعظيم الله ومحبته، وبذل الجهد والوسع في عبادته وطاعته، واللياذ به، والطمع فيما عنده، فالله أكبر، ما أعظم إفضاله وإنعامه! وما أبلغ جوده وكرمه! «يبدل سيئات التائب حسنات»!

على أنه لا منافاة بين القولين، ولا مانع من حمل الآية عليهما؛ فمن تاب صرفه الله في الدنيا عن عمل السيئات إلى عمل الحسنات، وجازاه في الآخرة بدلًا من السيئات حسنات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه من

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٥١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣٣.

(٣) سبق تخريجه.

عباده؛ يتجاوز عن ذنوبهم ويسترها.

وذا رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالتائبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، أي: يرجع إلى الله رجوعًا صحيحًا عن قصد ونية وعزم وجزم وإخلاص لله تعالى وحده قولًا وعملًا، توبة عظيمة كاملة تقع موقعها؛ كما قال ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ثناء الله عز وجل على عباد الرحمن وامتداحه لهم بذكر صفاتهم الجميلهْ، وأعمالهم الجليلهْ، وأخلاقهم النبيلهْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآيات.

٢- إثبات اسمه عز وجل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية؛ عامة وخاصة.

٣- إثبات عبودية المؤمنين له عز وجل عبودية خاصة، عبودية الألوهية.

٤- في إضافة عباده عز وجل إلى اسمه «الرحمن» تشريف وتكريم لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- أن من صفات عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض بسكينة ووقار، من غير مرح ولا تجبر ولا استكبار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾.

٦- مسالمتهم الجاهلين، وعدم مقابلتهم بمثل جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾.

٧- أن من صفاتهم المداومة على العبادة وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾.

وهذا مخصوص بما دلت عليه السنة من أن أفضل القيام قيام داود عليه السلام: «**كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»، وهكذا كان قيام نبينا محمد ﷺ[1].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾.

٩- أن السجود والقيام من أعظم أركان الصلاة، واشرف أعمالها؛ لهذا خصهما تعالى بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾.

١٠- في تقديم السجود إظهار للاهتمام به؛ لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، مع ما في ذلك من مراعاة فواصل الآي.

١١- دعاؤهم ربهم، وسؤالهم إياه أن يصرف عنهم عذاب جهنم بحفظهم من موجباته، ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآيات، وهذا يدل على أنهم لا يُدِلُّون على الله بأعمالهم، فهم مع عبادتهم لله خائفون من النار.

١٢- شدة عذاب جهنم وملازمته لأهلها دائمًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

١٣- أن جهنم ساءت وقبحت مستقرًّا ومقامًا لأهلها وسكانها من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾.

١٤- أن من صفات عباد الرحمن اعتدالهم وتوسطهم في الإنفاق من غير إسراف

---

(١) سيأتي تخريجها في تفسير سورة المزمل.

ولا تقتير، وبقدر الحاجة وما تقوم به الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾.

١٥- أن من أعظم الصفات التي يجتنبونها ويبتعدون عنها: الشرك بالله، وقتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، والزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾.

١٦- تحريم الشرك، وأنه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر؛ لهذا بدأ الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

١٧- تحريم قتل النفس المعصومة؛ وهي نفس المؤمن، ونفس الذمي، ونفس الكافر المعاهد والمستأمن، وأن ذلك أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لهذا قرنه الله تعالى بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

١٨- أن النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، إذا ارتكبت ما يوجب قتلها، مِن قَتْلِ نفس عمدًا، أو الردة عن الإسلام، أو الزنا بعد الإحصان؛ فإنها تقتل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

١٩- شدة فحش الزنا، وأنه من أكبر الكبائر؛ لأن الله قرنه مع القتل العمد بالشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾.

٢٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل الموبقات الثلاث: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله قتلها بغير حق، والزنا، بالعقاب والنكال ومضاعفة العذاب وتخليده فيه مهانًا ذليلًا حقيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾.

٢١- يستثني من قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ ما عدا المشرك، كالقاتل عمدًا، والزاني المحصن وغيرهما من أهل الكبائر؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٢٢- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والعذاب.

٢٣- أنه يجمع للمعذبين في النار بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي بالإهانة والإذلال والتحقير.

٢٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها.

٢٥- أن من تاب من الشرك، والقتل العمد والزنا، ورجع وأناب إلى الله تعالى، وآمن وعمل عملًا صالحًا تاب الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾الآية.

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، تبعًا لشرعه.

٢٧- أن من فضل الله تعالى وجوده وكرمه وسعة رحمته؛ تبديله سيئات التائبين حسنات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾.

٢٨- رفعة منزلة التائبين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٢٩- إثبات سعة مغفرته عز وجل ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٣٠- ينبغي لمن تاب أن يتوب متابًا صحيحًا عن قصد ونية وعزم وحزم وجزم، وإخلاص لله تعالى وحده، قولًا وعملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾.

هذا استمرار لذكر صفات عباد الرحمن.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، أي: لا يحضرون مجالس الزور، والزور هو: الميل عن الحق الثابت إلى الباطل الزائل، فكل ما مال عن الحق فهو زور، أي: كذب وباطل، فإن كان قولًا فهو كذب، وإن كان فعلًا فهو باطل، كالشرك بالله، والخوض في آياته، والجدل بالباطل، والغيبة والنميمة، والفسق واللغو، والغناء وشرب الخمور، وغير ذلك من المعاصي، ولا يشهدون شهادة الزور؛ وهي الشهادة بالكذب متعمدًا.

فهم لا يحضرون مجالس الزور، ولا يقولونه ولا يفعلونه؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ [النساء: ١٤٠].

ولا يشهدون شهادة الزور، التي هي من أكبر الكبائر؛ كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!**»(١).

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾، اللغو: كل ما يلغى ويطرح، وما لا خير فيه ولا فائدة منه.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾، «كرامًا» حال، أي: معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن سماعه، والخوض فيه، أو الرضا به والجلوس مع أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وأيضًا ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ محاولين الإصلاح والإفادة من وجودهم، وذلك بنقل هذا اللغو إلى أمر مفيد؛ لأن الكريم يعطي غيره فينفع نفسه وغيره، فيفيدون ويستفيدون، ويكونون مباركين أينما كانوا، وهذا حال المؤمن الموفق؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: إذا ذكرهم أيُّ مذكِّر، أي: وعظهم بآيات ربهم الشرعية والكونية الدالة على عظمته.

﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: لم يخروا عند سماعهم إياها صمًّا لا يسمعونها، عميانًا لا يبصرونها، بل يسمعونها ويبصرونها، ويخرون عليها سجدًا وبكيًّا؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

والحكمة- والله أعلم- في اختيار الصفة السلبية في قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، دون أن يقول: وخروا عليها سامعين مبصرين مطيعين- : هي التعريض بالكافرين، أي: بخلاف الكفار؛ فإنهم إذا ذكروا بالآيات خروا عليها صمًّا وعميًا؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ

رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

لما ذكر صلاحهم في أنفسهم ذكر سعيهم لإصلاح غيرهم من أزواجهم وذرياتهم بدعائهم لهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾، ﴿مِنْ﴾ بيانية، أي: هب لنا وأعطنا من أزواجنا. و«أزواج» جمع «زوج»، وكل من الرجل وامرأته زوج للآخر، فكل منهما يدعو بهذا الدعاء للآخر.

وقد يشمل قوله: ﴿أَزْوَاجِنَا﴾ الأزواج والقرناء والأصحاب.

﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب وابن عامر وحفص، بالألف على الجمع: ﴿ذُرِّيَاتِنَا﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد: «ذُرِّيَّتِنَا».

والذرية: الأولاد، ذكورهم وإناثهم، وأولاد البنين وإن نزلوا، دون أولاد البنات، وقد تطلق على ما يشمل أولاد البنات أيضًا وإن نزلوا.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ «قرة العين» مأخوذة من «القر»، وهو البرد؛ لأن العين القريرة باردة، بخلاف العين الحزينة، فهي حارة، ودمعها حار، أي: وهب لنا من تقر بصلاحهم أعيننا من أزواج وذريات، بحيث نراهم مخلصين لك العبادة وحدك لا شريك لك، مطيعين لك، متبعين لشرعك، ونفرح بذلك ونأنس به ونسر ونتلذذ؛ فإنه لا شيء أقر لعين المسلم الموفق من أن يرى أولاده وأحفاده وأهل بيته مستقيمين على طاعة الله تعالى مطيعين لوالديهم.

ولك أن تتصور ما مدى شعور الوالد الصالح إذا دخل في الصلاة وبعض أولاده عن يمينه، وبعضهم عن يساره، وماذا يخالجه من الغبطة والفرح والأنس وقرة العين، مما لا يكاد يوصف، بل ولا يحيط به الوصف، حتى إنه لو كان يعاني من مرض السكري وضغط الدم، وأخذتَ قياسهما في هذه الحال لوجدتهما في أعدل الأحوال؛ لما هو فيه من الفرح والنشوة، وهذا التصور وهذا المعنى لا يدركه إلا من وفقه الله، وذاق حلاوة الإيمان.

بل إن من العجيب والغريب أن المسلم إذا رأى أزواجه وذريته مطيعين لله تعالى،

تقر عينه وإن كان هو نفسه فاسقًا، ولا يحب أن يكونوا مثله؛ لأن المسلم مفطور على محبة طاعة الله تعالى.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾، أي: نحن وأزواجنا وذرياتنا ﴿لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، «إمامًا» يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، أي: قدوة يقتدى ويهتدى بنا في الدين والتقوى والعلم والخير والصلاح.

والمعنى: واجعلنا للمتقين أئمة، وهذا من أعلى المطالب، والتوفيق له من أعظم المناقب، وكما قال المتنبي[١]:

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

وقال أيضًا[٢]:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فسألوا الله لأنفسهم الإمامة في الدين؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى بهم، وأجر من اهتدى على يد من اهتدى بهم، وهكذا.

وسألوا ذلك لأزواجهم وذرياتهم؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى على أيديهم إلى آخر ذلك.

وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية**»[٣].

ومن لوازم هذا وذاك اجتهادهم في تحصيل هذا المطلب لأنفسهم بالصبر واليقين والمجاهدة، واجتهادهم أيضًا في تحصيل ذلك لأزواجهم وذرياتهم بتربيتهم على المجاهدة والصبر واليقين؛ لأن الإمامة في الدين لا تنال إلا بذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٦١.

(٢) انظر: «ديوانه» ٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾:

لما ذكر صفات عباد الرحمن وأعمالهم الفاضلة الجليلة، وأخلاقهم العالية الرفيعة، ومطالبهم السامية النبيلة؛ أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم من الجزاء العظيم في غرفات الجنات.

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، الإشارة لعباد الرحمن الموصوفين بالصفات المذكورة العظيمة.

﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾، وهي أعلى منازل الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، الباء: للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صبرهم على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء، وإسكان اللام، وتخفيف القاف: «وَيَلْقَوْنَ».

وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح اللام، وتشديد القاف: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾. أي: ويلقون في الجنة وغرفها، أو في غرف الجنات.

﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، من الله عز وجل ؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨].

ومن الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

وسلام من بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦].

فيلقون التحية والسلام قولًا؛ من الله عز وجل، ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض، ويلقون الحياة التامة والسلامة الدائمة من الله تعالى.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، أي: ماكثين مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

﴿حَسُنَتْ﴾، أي: طابت الجنة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، منصوبان على التمييز، أي: مكان استقرار وإقامة لهم على الدوام، وهذا في مقابل قوله عن النار: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ۝٧٧﴾:

لما أثنى على المؤمنين بذكر صفاتهم العظيمة، وهممهم الرفيعة، ومطالبهم العالية، ونعمه وفضله عليهم وعظيم جزائه لهم، أخبر أنه لا يعبأ بغيرهم.

قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: قل يا محمد للمكذبين المشركين: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: ما يكترث بكم ولا يبالي بإهلاككم والقضاء عليكم، ولا يعجزه ذلك.

﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود.

﴿دُعَآؤُكُمْۖ﴾، «دعاء» مصدر مضاف إلى فاعله، أي: لولا دعاؤكم إياه وعبادتكم له، أي: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: فالذي يمنعه من إهلاككم هو دعاؤكم إياه.

ويحتمل: أن يكون المصدر مضافًا إلى مفعوله، أي: لولا دعاؤه إياكم إلى عبادته.

قال ابن القيم: «والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أيُّ شيء يعبؤه بكم لولا عبادتكم إياه، فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل».

وقال أيضًا: «وأصح الأقوال في الآية أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم

إياه؟»[١].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: لأنكم قد كذبتم ما دعاكم إليه من الحق ولم تدعوه ولم تعبدوه.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سوف»: حرف استقبال، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، أي: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم، أو فسوف يكون العذاب لزامًا لكم في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل لهم يوم بدر، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون مجالس الزور والباطل، ولا يقولونه ولا يفعلونه، ولا يشهدون شهادة الزور بالكذب المتعمد على غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

٢- أن من صفاتهم إكرام أنفسهم إذا مروا باللغو بالإعراض عن سماعه، وعدم الخوض فيه، أو الرضا به، أو الجلوس مع أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

٣- أن المرء حيث يضع نفسه ويختار لها، فمن أكرم نفسه بطاعة الله تعالى والبعد عن اللغو ومجالس الردى؛ أكرمه الله تعالى وامتدحه وأثابه.

٤- أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم يستمعون إليها ويبصرونها، ويتأملون فيها، وينقادون لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين وبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿رَبِّي﴾.

٦- أن من صفاتهم دعاءهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم؛ لتقر بهم أعينهم في الدنيا والآخرة، ويستمر لهم نفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٢٠- ٣٢١.

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

٧- أنه لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى أزواجه وأولاده صالحين مطيعين لله تعالى، بل لا تقر عينه إلا بذلك، يدرك هذا من وفقه الله، ويعمى عنه الكثيرون.

٨- دعاؤهم لأنفسهم وأزواجهم وذرياتهم بالإمامة في الدين، التي هي من أعلى المطالب، مع بذلهم الأسباب لذلك؛ ليحصل لهم مثل أجر من اهتدى بهم؛ لقولهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

٩- فضيلة الإمامة في الدين بكون الإنسان قدوة في الخير والهدى والتقى والصلاح، والدعوة إلى الله عز وجل، وأنها من أجلِّ المناقب وأحسن الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، ومن أفضل ذلك وأجله الإمامة في الصلاة في المساجد، لمن قدر لذلك قدره.

١٠- وعد الله تعالى لعباد الرحمن الموصوفين بهذه الصفات العظيمة بالجزاء العظيم في غرفات الجنة بسبب صبرهم، وابتدارهم بالتحية والسلام من ربهم ومن الملائكة، وفيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾.

١١- فضيلة الصبر بأنواعه الثلاثة، وأنه من أعظم أسباب دخول الجنة وتوفية الأجر بغير حساب.

١٢- أنه يجمع لأهل الجنة بين النعيم الحسي وبين النعيم المعنوي للقلوب بالتحية والسلام ونحو ذلك.

١٣- خلودهم فيها خلودًا أبديًّا بلا انقطاع، في أحسن مستقر وأطيب مقام؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

١٤- شتان بين الجنة أحسن مستقر وأحسن مقام، وبين النار أسوأ مستقر وأسوأ مقام.

١٥- أنه عز وجل لا يعبأ بالمكذبين، ولا يكترث بهم، لولا دعاؤهم إياه وعبادتهم له؛ لأنه لم يخلقهم وسائر الخلق إلا لعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

١٦- أن الدعاء مانع من العقوبة وجالب للرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

١٧- تكذيب المشركين له ﷺ، وتهديدهم بلزوم العذاب لهم في الدنيا والآخرة، هم وأمثالهم من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

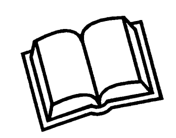
* * *

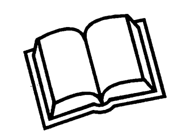
فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

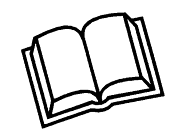
✍

✍

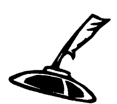
✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

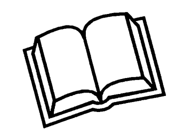
✍

✍

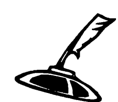
✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

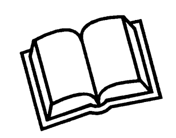
✍

✍

✍

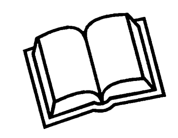
✍

✍



مفكرة



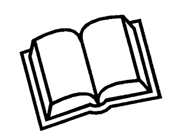


مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

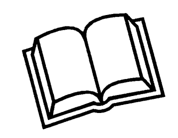
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958